
إبراهيم عباس



المُتمَغنِطون

إبراهيم عباس

ibraheem_abbas@



ISBN: 978-603-02-8044-5

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عباس، إبراهيم حسين

المتمغنطون. /إبراهيم حسين عباس. - جدة، ١٤٤٠هـ

٣٣٦ ص؛ ٢٠سم

ردمك: ٥-٨٠٤٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية – السعودية أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١١٧٨/١٤٤٠

رقم الإيداع: ١١٧٨/١٤٤٠

ردمك: ٥-٨٠٤٤-٠٢-٦٠٣-٩٧٨



إبراهيم عباس.. مبدع إعلاني، وكاتب سينمائي، شارك المهندس ياسر بهجت في تأسيس رابطة يتخيلون التي تهدف لنشر وتحفيز ثقافة الخيال العلمي العربي وإثراء محتواها ومخرجاتها والارتقاء بها بشكل يؤهلها للتنافسية العالمية.

www.يتخيلون.com

info@yatakhayaloon.com @yatakhayaloon

إهداءٌ لن يصل لأحد!

لم أرَ قط أجلف منك أيها التاريخ المسطّر، تتلقّف المتجبّرين والمفترين والمرتزقة بأذرع الترحاب وابتسامات التملّق؛ فينحتون على جبينك ما يشاؤون، ويدفنون تحت أقدامك من يشاؤون.
إلى أولئك المتكوّمين ظلمًا تحت وطأتك..
أهدي أسطري هذه.. وما بينها..
وبدون أدنى تحيةٍ لك أيها التاريخ المسطّر، المبهّر، المزوّر!

إبراهيم

-المغنطة الأولى-

دابّةٌ تدبُّ على دواليب

«أيتها الحسناء»
سحقًا لها!
«رفقًا بي، يا من تخبّط قلبي بين جمالها ودلالها»
اللعنة! سوف أتمادى في مغازلة تلك البقرة.. علّها تستجيب!
«أيا ساهيةً حجبَت أفقَ السماء بحسنها، فلمّا ضاق بها ذرعًا افترشت أديمها»
تباطأت خطواتها، تسارعت أنفاسها، وترنّحت الجرّة على هامتها.. معذورة! أسكرتها عباراتي التي غُمست برحيق العُذريين واشتعلت بلهيب العاشقين وآهات المتيّمين، وصوتي المتهدّج برخامته وفخامته وهيبته وجلاله، الذي صقلته السنون فازداد رزانةً وحنكةً وبحّةً دافئة تذيب قلوب الحسناوات التائهات الغافلات وتهوي بها لأعماق بئرٍ سحيقة، تزاحمَ فيها حكماء الدهور وفلاسفة الأزمان وشعراء العصور، تتردد أصداؤه بين صخورها المملّطة بالقِطر والآنُك والحديد. لقد تهاوى قلبها المسكين بين وخزَات عباراتي.. وآن أوان انقضاضتي الأخيرة:
«قدّك الممشوق قَد قُدَّ من..»
قدّ؟ لا أرى لها قدّا ولا رقبة! لقد التصقت الجرّة برأسها الذي غاص بدوره بين كتفيها!.. حسنٌ دعنا من قدّها.. ولنلتفت لـ.
«عِجزك الرجراج يجلجل الوجدان، يزلزل الأرضين، يهدهد الجدران»
توقفَت! خارت.. تنهّدت والتفتت، ثم شهقت:
«أين ذهب؟»
قالتها بعد أن هامت بعينيها فوق هامتي وتدنّت لتتلقّفها حدقتاي؛ وواصلت استنكارها:
«الذي كان يناديني، ألم تره يا هذا؟!»
«هأنذا أمامك!»
جَفَلت وأفَلَت، لم تستوعب البلهاء أن هذا الصوت الفخم الرخيم يصدر مني أنا!
«من يسمعك يظنّك وزير أمير المؤمنين، أو قائد جنده!»
حريٌ بمثلها أن تجهلني، تنحنحتُ لأشحن صوتي بالمزيد من الهيبة المزلزِلة:
«أنا نديم أمير المؤمنين، أبو عثمان عمروٌ بن بحرٍ الكنـ..»
«الجاحظ! لقد عرفتك من دمامتك وضآلة قامتك ونتوء عينيك من هامتك!»
تبًا للنساء، لا يملأ خواء قلوبهن سوى الوسيم الممشوق، الثري المرموق، وإن كان يحمل في هامته عقل دعسوقة.
«اغربي عني إذًا، أمير المؤمنين ينتظرني»
«وهل تشبثتُ بتلابيبك أيها الجرذ المحملِق المتحذلِق؟!»
«إنك تحجبين الطريق من الجدار للجدار!»
«مثلك يستطيع العبور من أي جُحر!»
باقترابي منها، تعاظم قُبحها، ملأتُ جوفي بالهواء قبل أن أقتحم سحابة عبَقها،

انزلقتُ محاذِرًا من أن أجرجر جبّتي الطرطوسية على الجدار، أو أن أدعكها بأوراكها وأردافها الهائلة.. و..
لم أجد ضيرًا من هامتي العظيمة قط، حتى انحشرَت اليوم بين براثن البقرة والجدار! نفذت أطرافي وعلقت هامتي ونفدت أنفاسي، كنت مخيرًا ما بين الموت اختناقًا بأردافها والموت تسممًا بعرقها؛ انقضّ علي رهاب الأماكن الضيّقة المغلقة فأطلقت صرختي المستغيثة المختنقة:

«أفلتيني أيتها البقرة البشرية!»

أبصرُت أجلي يلوح لي، تفجّرت غريزة البقاء بداخلي، رتّلت السبع المثاني، وأطلقت سيقاني، مرفرفةً بين الأرض والسماء. نهشَت الصخور أصداغي وأنا أدفع بهامتي.. ونفذت!
وقبل أن تلامس أقدامي الأرض أخذَت اللعينة بتلابيب حرمَلتي وأمطرتني بلعابها المتخثّر وهي تجرجرني إليها!

«ستنسيك البقرة البشرية طعم لبن أمك أيها المسخ المتقزّم المسخوط المتشرذِم!»

«ويحكِ! أهذا جزاء صنيعي؟! لقد تغزلّتُ بك! أقسم بمن خلقك لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو، أنني أول وآخر من ينحر الغزل على أردافك! فمثلك لا يتغزل به إلا كفيف العينين مجدوع المنخرين أصم الآذان مسلوب الجنان منزوع الوجدان! اتركي حرملتي يا لعينة! فقد حيكت من كتان فرعون وديباج كسرى وحرير قيصر، وأيم الله إن بنانةً منها أبهظ من عشر أبقارٍ مثلك!»

«سأكفّنك بها إذًا!»

استلّتني بيدٍ واحدةٍ كما تُستلّ الهُريرة، وحوطَت برأسي بين إبطها وزندها ونهدها.. وفعلَتها! لقد أنستني طعم حليب الوالدة رحمة الله عليها!
في الواقع، لقد أنستني والدتي شخصيًا، وأنستني معها كل طعم ورائحة ومذاق، إذ تغلغل ريح إبطها في داخل جوفي والتصق طعم عرقها العلقمي بباطن بلعومي وأمعائي وهي تلوكني بإبطها وتلوك كلماتها ببراطمِها، وأسنانُها مطبقةٌ عليها بِكلّ غِلّ:

«لقد لفظ آخر أزواجي أنفاسه هنا تحت إبطي هذا، فلنرَ إن كنت أوفر منه حظًا!»

إلهي، إن كنت سأقضي نحبي لا محالة، فاقبض روحي إليك طاهرًا، راكعًا أو ساجدًا أو مرتلاً، أو منكفئًا بين كتبي وصحائفي؛ إلهي، لا تقبض روحي هاهنا؛ إلهي لا تجعل هذا الإبط آخر عهدي بالحياة الدنيا.
واستُجيبت دعوتي.
تحققت على هيئة عجلٍ هائج له خوار..!
ارتطم بها فأفلتتني وهبطتُ من قبضة إبطها؛ وقبل أن أصل للأرض تأرجحَت اللعينة وترنّحت وبركت بإستها الهائلة فوقي، واعتلاها الثور ينطحها ويلكمها.

إلهي، أعلم أن جرأتي على الذنب قد عظَمت، ولكن رجائي فيك أعظم! إلهي، إن كنتَ قد عجَّلتَ حسابي وتكفير ذنوبي فتلطّف بي؛ إلهي، إن كان تكفيرُ الذنوب هكذا فهأنذا أعلنها توبة نصوحًا لم يعلنها من قبلي بشر، تأتي على سيئاتي وزلاتي ولملماتي فلا تُبقي ولا تذر، تخرجني منها وكأني انسلخت للتو من رحم أمي وهرعت لأطوّف بالبيت وأقبل الحجر.

لا لا! لن ألقى ربي وفوقي ثور وبقرة وجرة! وادي عجزها السحيق أنقذني، غصت بداخله فرحت أنبش الرمل والصخر بمخالبي لأخلّص نفسي من تحتها وهي تتلوى وتصرخ:

«ابتعد عني أيها الخرتيت!»

«أوَمثلك يتحدث عن الخراتيت؟!»

«عمّتي زوجة طاهي الخليفة، أقسم أن أشكوك إليه!»

«هدّدي غيري يا هذه! سوف أبتلعك أنت وعمتك وزوجها والخليفة في لقمة!»

«قلت لك ابعد كرشك المتحجّرة عني!»

«كرشي؟ كرشي؟! التزمي التهذيب وأنت تتحدثين في مقام جليلة!»

احتدم صراعهما، تعالى خوارهما، ينطحها وتنطحه، يلكمها وتلكمه، يقضمها وتقضمه، حتى غمرتهما سحابة المعركة؛ كان عراكهما يتضاءل وأنا أبتعد زاحفًا فارًا بروحي نافذًا بجلدي، وانطلقتُ حامدًا ربي على ما مد لي في عمري وما غفر لي من ذنبي!

دخلتُ بيتي، ألقيت بجبتي في موقد مغطسي وأشعلت فيها النيران، لن يزول منها عبق تلك البقرة وإن أمضيت ما تبقى من عمري في دعكها ودبغها وصبغها.

وددت أن أنسلخ من جلدي وأحرقه هو الآخر؛ نثرتُ السدر والمسك والزعفران في المغطس وانغمست بداخله أنملةً أنملة، كل أنملةٍ تحترق قبل أن تلحقها أختها، حتى لم يبقَ خارج الحميم سوى عيني وأرنبة أنفي، أشوي جلدي علّي أنسى البقرة وإبطها.

اللعنة! شيطان كتابتي يراودني!

أُغرب قَعْنَبور أُغرب! نعم لقد أسميته قَعْنَبور، يفر مني كلما اقتربت من القلم والورقة والدواة.. ويؤدي رقصته القُعبرية بين تلافيف وتجاويف مخي مزينًا كل فكرة طريفة وعبرة لطيفة عندما أهمّ بنوم أو أغوص في مغطس! وإن لم أكتبها في حينها.. يُنسينيها اللعين.. ويواصل رقصاته شامتًا مني وأنا ألوك مخي بحثًا عنها! يا ترى متى سيبتكر لنا أرباب الحيَل أداة تكتب لنا ما نتفوه به؟ أو تحفظه وتنطق به وقتما نشاء؟ آلةٌ تـجبُر عجز عقولنا إذا هرمنا، وتستعيد بنات أفكارنا إذا فنينا؛ ستكون تلك ثاني أمانيّ في جنة الخلد، بعد أمنية اقتناء كتب الدنيا بحوزتي!

ولكنني لا أزال في بغداد المأمون! قابعًا في مغطسي والقعنبور فوق رأسي ومنضدتي هناك..

حسنٌ لا ضير من كتابة بضع كَليماتٍ وأنا في المغطس؛ مددت يدي، بالكاد مسّت أطراف أناملي سيقان المنضدة، جرجرتها برفق، تناولت القلم، غمسته في الدواة وبدأت بسكب أفكاري من رأسي على الورق ريثما يسكب جسدي بقايا عبق إبط البقرة في المغطس.

«أيها الجاحظ! افتح!»

صوتٌ جِعِرٌّ أجش أفزعني فغطست برأسي هلعًا.. سحقًا، إنه أشعب! لقد نجى منها!

لم ينتظر ردّي، دفع الباب، انحنى وانحشر فيه قليلاً مخلخلاً مفاصله قبل أن يلج، التقطَ قدحي النحاسي وتوجه نحو ركن بيتي وكأنه يعرفه أكثر مني.

«اليوم خرنبيصٌ وفرّوجٌ محمر»

ويح خياشيمه، لقد عرف غدائي الذي نسيته أنا! بل ويح حروفه المتآكلة، لقد ابتلع راءاته فأضحت "غاءات"!

«وبالأمس دعبوسٌ وورك ضأن مزعفر»

اللعنة أقسم أن منخاره الهائل يميل يمنةً ويسرة! يطارد به كل ما أُكل ويُؤكل وسيؤكل!

لملَم العظام التي ألقيتها لهريراتي، مسح سطح طاولتي بيده الغليظة ليجمع فُتات الخبز والأرز والغبار ودفعها للقدح بكل رفق وحرص وكأنها حبيبات عقيقٍ سليماني، واقترب مني فغطست دون أن أشعر خوفًا من أن يلقي بي أنا أيضًا إلى وجبته، ملأ القدح من ماء مغطسي وأولاني ظهره وجلس يتجرّع حساء بقايا طعام الهرر وفتات الخبز وماء المغطس.

«وكأنك خِرنِقٌ مشدوه يرمق آكليه وهو يُطهى على مهل! ويحك لقد أثرت شهيتي!»

قالها أشعب متجشّئًا وهو يلقي بالقدح الفارغ بعد أن أنهكه لعقًا. قفزتُ من المغطس، يجب أن أملأ بطنه قبل أن يبتلعني ساهيًا أو مداعبًا! ارتديت جبتي الأصفهانية، وعمامتي الدمشقية، ودلقت على هامتي قناني المِسك الهندي وماء الزهر النيسابوري.

«جليلة، سامحيني يا جليلة، لن ينالك أحدٌ بسوء طالما كان بي عرقٌ ينبض، وضرسٌ يمضغ، وفاهٌ يبلع!»

همهم العملاق وهو متكمكمٌ على نفسه، ثنى رقبته فتلحلحت ثنايا قفاه الغليظ قليلاً، كان يحدّث كرشه العارية وهو يداعبها بأنامله، وكأنها زوجته التي زُفّت للتو إليه!

الشيء الوحيد الذي قد ينتزعه من حديثه مع خليلته هو طعامٌ يملؤها به، إن كان هناك ثمة ما يملأ تلك الجليلة:

«لقد أنقذتَ حياتي يا أشعب، وسآخذك معي إلى الخليفة»

لم يلتفت، ولم يعقب، فاستدركت:

«ومائدة الخليفة»

التفت نحوي، فألقيت إليه بقميصي..

«لكن عليك أولاً أن ترتدي ما يليق بمجلس أمير المؤمنين»

التقط القميص، نظر إليه شذرًا وهو يقول:

«جليلة، لم ولن أكفنها بقماش!»

«ويحك! جليلتك لم تحلم بهذا الديباج قط! قميصي لن يغطي مِعشار صدرك يا رجل»

حنى رأسه وهمس لكرشه يستأذنها فقاطعتهما:

«حسنٌ، أظنك تفضّل أن تحرِم جليلة من مأدبة الخليفة!»

حشر ذراعيه في القميصِ على مضض، فأطلق الأخير صرخته وزفر زفرته وهو يتشدّق ويتشقّق حول كتفي أشعب وإبطيه، وانطلقنا نؤم قصر أمير المؤمنين أبي العباس عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد.

على مدخل القصر، استقبلنا نهيق حمارٍ يصمّ الآذان ويصك الجدران وقد تحولق الحرس حوله وحول صاحبه ورئيسهم يصرخ:

«إما أن تخبرني من الذين يتآمرون على أمير المؤمنين وإما أن أضرب عنقك!»

انزلقتُ بين الزحام فرأيت حرّاس قصر الخليفة مُشهري نصالهم تجاه حمارٍ يدور حول نفسه فيصدر الجرس المعلق على رقبته صلصلةً ورنينًا، وصاحبه متربّعٌ عليه يتأرجح بوقار؛ لكز رئيس العسكر عمامته الشاهقة المدببة المترنحة فابتسم دون أن يرفع رأسه المنكّس، وقال بهدوء بالكاد يُسمع:

«وما يدريني أنك منهم؟! رقبتي ورقبة حماري لرقبة أمير المؤمنين فداء»

«مالكم تكأكأتم على هذا الهجعة يا محجوب؟ دعه وشأنه؟ وافتح البوابة، سنتأخر على مجلس أمير المؤمنين، هيّا!»

ميّز رئيس العسكر صوتي قبل أن يبصرني، فمثلي لا يُرى منه في الزحام سوى عمامته، وهتف:

«هذا الحمار يريد أن يدخل القصر بحماره، يدّعي بأن هناك من يتآمر لقتل أمير المؤمنين»

اقتربتُ منه، تنحّى الحرس عن طريقي، نظرت إلى عينيه مليًا؛ تبًا لم أرَ أحدًا! لم أرَ عاقلاً ولا مجنونًا، صادقًا ولا كاذبًا، حيًا ولا ميتًا؛ عادت فراستي إلي تضرب أخماسها بأسداسها..

«من أنت؟»

«أبو نواس جحا البغدادي»

تأمّلته، اختفى وجهه النحيل تحت ظل عمامته وبرقت عيناه داخل محجريه، اللعنة! ليستا توأمين، بل ضرّتين متضاربتين متنافرتين، كلٌ منهما تسبح في فَلَكها المستقل، كل واحدةٍ منهما تضيق وتجحظ، ترمش وتلحظ على حدة!

«ويحك، لعلّك قد أكثرت من شرب اليقطين الفاسد؟! هيا انطلق قبل أن تنطلق رقبتك إلى باريها! ولا تعد بعدها إلى اليقطين!»

«والله لن أبارح مكاني حتى ألقى أمير المؤمنين أو ألقى ربي!»
اقترب بوجهه النحيل مني، لاح لي منخاره الضخم ووجنتاه الناتئتان المتكورتان المكسوتان بتورُّد اليقطين الفاسد وهمس:
«إنهم يتآمرون على قتله الليلة»
همست له:
«وكيف عرفت؟»
«في المنام»
«أرأيت رؤيا؟ أأنت وليٌّ من أولياء الله؟!»
«رآها أكثر أهل الأرض صدقًا»
«من؟»
أشار بطرف عينيه تجاه حماره.
«حمارك؟!»
«لم أعهد عليه كذبًا قط!»
«أحمقٌ أنت أم تستحمق؟»
«ذلك الذي يستحمق فيظنه الناس أحمقًا هو في الواقع أكثرهم فطنة وأقلّهم حماقة، التغافل فنٌّ لا يتقنه سوى العباقرة! أما التذاكي فهو حماقة يرتكبها كل مغفل!»
تبًا له، لقد رُفع عنه القلم، بل لا أظن أن قلمًا قد اقترب منه قط، حسنٌ، مثله غير مكلّف، وسعة الآخرة خير له من ضيق الدنيا..
«اضرب عنقه يا محجوب وافتح لنا البوابة»
وانفجر مدمن اليقطين الفاسد ضاحكًا، ويحه ما أقبحه! أقبح مني أنا شخصيًا! أسنانه متخلخلةٌ متخلّعةٌ على التوالي، فراغٌ بين كل سنّين، تتعاشق أسنان فكه السفلي مع فراغات فكه العلوي. ابتلع ضحكته وعبس فجأة فتعجّبَت الجموع وتجمّدَت السيوف المشهرة نحوه؛ قفز من على صهوة حماره، مسح رقبته، همس في أذنه، قبّله على منخاره، وبدأ يدور حوله، يمشي متبخترًا متلكئًا، شاهقًا شلعلعًا، تثنّى ظهره من طوله ونُحله، وارتفع كتفه الأيسر دونًا عن الأيمن وكأنما تدلّى بحبلٍ رُبط تحت إبطه.. وصرخ فجأة:
«هيا فلنفقد رؤوسنا جميعًا ونلقي بها إلى السماء!»
نقّل نظراته المتقلقلة على وجوه القوم، طبع قبلةً أخرى على منخار الحمار، وواصل هذيانه المترنّح:
«يا ترى من أول اللاحقين بي منكم؟ أنت؟ أم أنت؟ أم هذا القزم؟ لا بد أنه محجوب الذي يداري مؤامرةً لاغتيال الخليفة! إن كنتُ مجنونًا فلدي عذري، وإن كنت كاذبًا فعلي كذبي، ولكن ماذا لو كنت صادقًا؟ ماذا لو علم أمير المؤمنين أن رئيس عسكره دق عنق من أتى ليحذره من مؤامرةٍ تُحاك ضده؟»
تخشّبت الأيادي على مقابض السيوف، وابتلعت الأفواه جَفاف ريقها، وواصل

المخبول:

«اسمعوني جيدًا.. لقد استودعت رقبتي باريها قبل أن آتيكم! وليس لدي ما أخسره سوى رؤية رؤوسكم البلهاء وهي تتدحرج بسيف أمير المؤمنين أو بسيوف المتآمرين!»

قالها وقد اختفت مسحة اليقطين من ملامحه، هذا أشجع أحمقٍ رأيته في حياتي! سوف يتسلى به الخليفة..

«محجوب، سجّله ضيفًا مرافقًا لي»

«لن يدخل بهيئته تلك!»

«سأخبر أمير المؤمنين أنك تطرد ضيوفي إذًا»

تناول محجوب ديوان الزوّار على مضض وبدأ بالتدوين:

«ضيفٌ مرافق لأبي عثمان عمرو بن بحر الليثي الكناني.. نقّلني الاسم يا هذا»

«أبو الجحجاح، جلمودٌ ابن صليصلةَ القُطحلي»

«ما هذا؟ ألم تقل للتو أنك أبو نواس جحا البغدادي؟»

التفت إلي بوقار وأشار إلى الحمار قائلاً:

«وما شأني؟ هذا هو صاحب الشأن، ما أنا إلا ترجمان له!»

أُقسم بالله أن أحرق كتاب الحيوان، وأعيد كتابته من جديد بعد البهائم التي التقيتها اليوم! بقرة تتغنج، وثور يغازل كرشه، وحمار أحمقُ من حماره!

«دوّن يا محجوب دون، ثلاثة ضيوف: جحا وأبو الجحجاح وأشعب»

«وجليلة»

قالها أشعب وهو يدفع بكرشه بين الجمع فجفل محجوب.

«أيها الجاحظ! ومن هذا الخرتيت الذي أحضرته معك؟ أقسم أن أقتلك قبل أن يقتلع أمير المؤمنين عنقي»

«اطمئن سيبدأ بعنقي أنا، هيا لقد تأخرنا!»

«سيحتجزهم الحرس في دار الضيافة حتى يؤذَن لهم بلقاء أمير المؤمنين»

«سأستأذنه، وإن لم يأذن لهم فاضربوا أعناقهم وألقوا بجيفهم في دجلة، هيا! يكاد الفجر أن ينبلج!»

ولجنا القصر أخيرًا، تزفّنا كتيبة أمير المؤمنين التي تنحّت بأشعب وجحا وحماره المصلصل إلى دار الضيافة وانطلقتُ أنا كعادتي إلى إيوان الخليفة.

آه.. وهاهن فتياتي: مرجانة الشركسية وريحانة الصقلّبية ورمّانة البربرية؛ انتزعنني من الأرض، حملتني أكفهن وضحكاتهن وتعطّفات خصورهن، وألقين بي على وسادتي الديباجية الزلِقة في حضرة أمير المؤمنين، وتناثرن من حولي.

كان رعاه الله لا يزال في سجاله بين أهل العقل والنقل، سأدعه في هموم رعيته وأنصرف أنا للفصل بين رعيتي..

«اعزفي على أوتار زرآب يا مرجانة، وغنِّ أبيات عُريبٍ يا ريحانة وتراقصي بما يجود به خصرك يا رمّانة، فوالله إن غنجكن خيرٌ لهذه البلاد من هُراء هؤلاء»

طوَّقت رمّانة خصرها براحتيها وهي تقول:

«لن يهتز لي قدٌّ إن لم تخبرنا أينا الأجمل!»

ساجلَتها ريحانة:

«أتيتُ في أسطول ڤايكينغ من مئة بارجة، تحمل كلٌ منها ألف حسناء واصطفاني أمير المؤمنين من بينهن لنفسه!»

واعترضت مرجانة:

«قصر أمير المؤمنين يعج بالجواري الحسان اللائي لا يعرفن فنًا ولا يُجدن حديثا!»

«ويحكِ! اتركي فنّ الحديث للّحى! ماذا يريد أمير المؤمنين منا سوى هذا؟»

قالتها رمّانة وهي تبرم خصرها ليلوح بأردافها في الهواء، فتعثرت بها موعظة الزاهد وتبعثرت دمعات مقلتيه الكاذبة وهي تتابع الأرداف المتمرّدة الرجراجة، ولكن لسانه استمرَّ يذكّر أمير المؤمنين بأهوال يوم الحساب.

«**vel danzleikr vér !læsa!!** »

«сонша жете ?бердім ат еді аш»

«dance me watch and up shut both You! »

احتدّ جدالهن بلغاتهن؛ تزداد الحسناء حسنًا عندما تحنق انتصارًا لجمالها، تُذيب اللبِ عندما تهذي دون أن يعي رطنها أحد؛ كان شجارًا بربريًا صقلّبيًا شركسيًا لذيذًا، غمسني في أمواج قزوين وجليد الڤايكنغ وجبال الأوراس؛ قاطعتُ سكَرات عراكهن:

«أيكن الأجمل؟ حري بالحسناء أن تثقب عيني الجمال بسبابتها ووسطاها، فمنها ينبع الحُسن وبها يُعرّف وعليها يُقاس! اخلبن لبّ أمير المؤمنين! اخلبنه وخبّلنه ولبّخنه! من يدري فقد تصبح إحداكن أم أمير مؤمنين صغير.. يُشركس البلاد أو يصقلبها أو يبربرها كما فرسَنها جدّه من قبل!»

ويحي، وما شأني بأمور البلاد وأمير المؤمنين الجديد؟ تنحنحتُ وعُدت لصوابي.. وحسناواتي:

«الحُسن.. كل الحسن.. والجمال.. كل الجمال.. يكمن فيما تهبهُ الأنثى لمن تُيّم بها، له وحده! في نظرةٍ لا يحظى بها سواه، أو بسمةٍ تأبى أن تظهر إلا في حضرة محيّاه، أو كلمةٍ تقفز من قلبها إلى قلبه دون أن تـُمسّ بلسانٍ ولا آذان، أو آهةٍ لا تزفر إلا لفراقه، أو نقرةٍ على قيثارة لا يصغي إليها غيره، أو تمايل قدٍّ لا يذوب سوى بين راحتيه.. ولكن الرجال أوغاد، يتركون كل ذاك السحر وينسبون الحُسن في قصائدهم وتغزّلاتهم إلى العيون والأفواه والسُوق والأعناق والخواصر والأرداف وما

دون ذلك مما يذوي ويبلى في الأجساد؛ تبًا لحُسنٍ لا يبقى متأجّجًا متّقدًا في معشوقتي مهما ذوت وسقِمت وخرِفت وهرِمت! يا معاشر الحسناوات، إن جاءكن الذين يتغزّلون بأجسادكن فابصقوا عليهم قبل أن يتغزّلوا بأجساد غيركن!»

«تبًا لك أيها الجاحظ! لقد كادت ليلتنا أن تنجلي دونما طرفتكم وحكمتكم!»

انتشلتني عبارة أمير المؤمنين من نشوتي بين فتياتي..

«لم أشأ مقاطعة المناطحة بين العقل والنقل يا مولاي»

«لكلٍ فكره ورأيه يا أبا عثمان، حريٌّ بنا أن نؤلف قلوبنا وعقولنا على الحق!»

«سامحك الله يا مولاي ما أحلمك! قلوبٌ وعقول؟ أين هي؟ لا أرى سوى صدورٍ واهية ورؤوسٍ خاوية لا تحمل سوى أحذيةٍ بالية! مولاي.. بالكاد ولَجت الشعرة في ثقب الإبرة.. وبقي البعير! وأيم الله لأن يلج الجمل وناقته وباقي القافلة في ثقب إبرة أهون من أن يتفق هؤلاء!»

أشهرت الأعين سهامها نحوي، تمطمطت الشفاه وتمصمصت، تلوك حنقها علي وترتل تعاويذها مني، ومشيتُ الخُيلاء أعدّل عمامتي على هامتي وأنا أترنح من ثقل الهامة والعمامة ومن تزلُّق الديباج تحت قدمَي؛ اشرأبت مقلتاي تبصقان على المتزاهد المتباكي وأنا أمر بمحاذاته، وقعت بصقة عيني بين عينيه وسالت مع لعابه على كيس المئتي دينار التي تكسّبها أجرَ تناعيره وتباكيه. هُمْتُ بهامتي لتُقدم حدقتاي واجب البصق على باقي جلساء أمير المؤمنين.. المتنمّقين المتزلّفين المتملّقين.

«بارك الله في عمر أمين المؤمنين»

ردد الحضور بإجلال ووجل:

«اللهم آمين»

واصلتُ وأنا أرفِع يدي للسماء:

«وصرف عنه كيد المنافقين..»

تجلجل الإجلال وتجحفل الوجل:

«اللهم آمين!!»

«من المؤمنين والمتقين!»

تلعثم الإجلال بالوجل، وانزلقت بعض الآمينات فهب أمير المؤمنين مغضَبًا:

«ويحك! أجننت؟!»

«المؤمنين بأن الله لم يهد قومًا سواهم، المتقين من سيفك بنفاقهم! لقد فُتحت لك الدنيا بأسرها يا مولاي، علومها وبدائعها وفنونها، لقد جعلتَ بغداد قبلةً لكل طالب علم وفهم، يبتكرون، يخترعون، يكتشفون كل يوم علمًا وعجبًا»

تبسّم المأمون، هز رأسه وداعب لحيته وأنا أواصل:

«والله لو دام هذا الحال لرأيتَ البشر يسكنون عروجًا من قوارير تناطح السحاب، ويمتطون سروجًا تحلّق بين الريح والهباب»
«بشرٌ يطيرون في السماء ويسكنون فوق السحاب؟! ألا تتوقف عن سخريتك يا هذا؟»
«وأيم الله لو لم يتنزل علي الجِد سوى مرة فلن تكون إلا هذه! وما العلم إلا سحرٌ حلال، ينزّله الله كزخّات المطر كلما انحلت عن عقول الناس الصلافة، وانجلت عن قلوبهم الجلافة. وإني أرى زخّات العلم أصبحت في كنفك غيثًا صيبًا وابلاً غدقًا؛ والله لو أن هؤلاء الأصلاف الأجلاف الذين استولوا على الدين طالوا البلاد والعباد لجزّوا رقاب ذوي العقول والفنون والعلوم، ولأعلوا كل ذي غلو، ولجرجروا الأمة من بعد عز لذل، ولأحالوا بغداد من منارة حضارة وعلم، لمنارات حرب وجهل وهدم!»
لقد قلتُ ما يكفي لجز رقبتي عدة مرات متتالية، حسنٌ، لقد آن أوان استبدال معاول التقريع بطبول الطرفة:
«أدام الله لنا أمير المؤمنين، حصنًا يحفظ لنا العلم وسدًا يمنع عنا الفرقة والجهل»
«ويحك يا جاحظ! قفزت فجأة من قاع الوقاحة إلى قمة التهذيب! تالله لقد كدت أن آمر بعنقك فتجزّ!»
«الوقاحة والتهذيب أخطر أسلحتي مع أعدائي، بهما أكسبُهم وأُرهبهم، أسخر منهم وأخرسهم وأسلخهم أحياء بكل لباقة إن تطلّب الأمر»
«أنا من سيسلخك الليلة إن لم تُبهج مجلسنا!»
نطق مأفونٌ من بين الحضور:
«جزَّ عنقه يا أمير المؤمنين وأرحنا من هذا الأحمق الجاهل الوقح!»
«معذرةً يا أمير المؤمنين»
قلتها وعدت أدراجي متفحّصًا متفرّسًا مقتنصًا غريمي بين الحضور بجحظتي، رُعِب عندما تقدمت نحوه وقلت بكل هدوء:
«صدقت! نقص العلم جهالة.. نقص العقل حماقة.. نقص الخُلق وقاحة.. أما نقصها جميعًا مع التباهي بذلك فشيء آخر.. يذكرني بك أيها الشمندق!»
تركته يبتلع ذُعره والتفتُّ إلى باقي الرعاع:
«رأس مالي علمي وعقلي و.. خُلقي، من أراد منكم أن ينال مني فليبحث عن شيء آخر حفاظًا لماء وجهه.. إن وُجد»
عُدت إلى أمير المؤمنين قبل أن يتململ وهتفت مستعرضًا:
«لقد جئتك الليلة يا مولاي بأشد أهل الأرض بلاهةً وحمقًا، وبأكثرهم جشعًا وأعظمهم بطنًا، فإن أذنت لهم لرأيت عجبًا لم تره قط»
«أستدهشني؟»
«سأدهشك!»

«ماذا لو لم تفعل؟!»
«عاقبني بحبسي بقية عمري في بيت الحكمة إلى أن أقضي نحبي بين الكتب»
«ولو أدهشتني، ما الذي ترجوه؟ ذهب؟ جارية؟ دار؟»
«ولو أدهشتك يا مولاي، لا أريد سوى أن أحيا بقية عمري في بيت الحكمة حتى أقضي نحبي بين الكتب»
قهقه مولاي وأمر بإحضار أشعب؛ ولج إيوان أمير المؤمنين يتأبّطه الحرس، وتسمّرت عيناه على إناء الفاكهة أمامه، أشار أمير المؤمنين فانصرف الحرس عن أشعب الذي تدلّى فكه وأغدق لعابه ولم تبارح مقلتاه التفاح القرمزي الفواح والمشمش الذهبي المنعش والدراق المخملي البرّاق، تبسّم الأمير وسأله:
«ما اسمك يا هذا؟»
لم تفارق أشعب البلادة..
«قلت لك ما اسمك؟!»
استفاق وأجاب دون أن يصرف نظره عن الإناء:
«أنا أشعب، وهذه جليلة!»
ربّت على كرشته جليلة فاهتزت هزةً لطيفة خفيفة تليق بمقام الخليفة، فانفجر ضاحكًا وضحك معه جوقة المنافقين..
«ويحك! جليلة؟! أوهبت لبطنك اسمًا؟!»
«غطِّ جليلتك العارية المتورمة يا هذا»
شخصٌ من بين الحضور هتف بها، فجفل أشعب والتفت عن الإناء لأول مرة وانثنى للأمام كثور يتهيأ للانقضاض، فتأهب الحرس. عاد للإناء بعد أن طاف بعينيه وعجز عن إيجاد الساخر من جليلة.
«كلٌ من هؤلاء يتباهى باسمه وكنيته، قل لي يا مولاي، أتستطيع العيش لو تركوك؟»
صمت الجميع إصغاءً للكنة أشعب الحازمة الصارمة بالرغم من لدغاته المتراكمة، لم يتوقعوها من بدين يسمي كرشه جليلة!
«ماذا لو تركتك بطنك يا مولاي؟! ماذا لو امتنعَت عنك؟ ماذا لو حبسَت الطعام بجوفك؟ ستلقى حتفك لا محالة في غضون أيام! بطنك يا مولاي أولى بالأسماء من أبي فلان وابن علان.. أهذا درّاق فارسي؟!»
استفاق أمير المؤمنين من دهشته على السؤال المباغت فأجاب:
«وصلنا اليوم من أصفهان، تفضّل»
انكفأ أشعب على يديه وبلغ الإناء بحبوةٍ واحدة وغاص فيه، يلتقم ويلتهم، لا يبقي قشرًا ولا يذر بذرًا.. وأمير المؤمنين ومَن حوله يراقبون الفاكهة التي تكفي كتيبة تتلاشى بين يدي أشعب وغاص برأسه في جوف الإناء، يلعق بقايا رائحة الفاكهة ويعاود اللعق ليتدارك بقايا لعابه حتى أضحى لاحتكاك حليمات لسانه بجدار الإناء صفيرًا جافًا منفرًا وصريرًا حافًا مقشْعِرًا؛ وأعتقه أخيرًا بعد أن كاد يثقبه

دعكًا ولعقًا.

«حريٌّ بالضيف أن يجيب دعوة مُضيفه يا مولاي، و "تفضل" تزداد هيبةً وقدرًا عندما تصدر من أمير المؤمنين وكريم المكرِمين»

بُهت المأمون، لم يرَ في حياته كائنًا كهذا قط..

«لقد ملأت بطنك.. معذرة.. لقد امتلأت جليلة الليلة، عاودنا غدًا واحضرها برفقتك لنرَ إن كانت تتلقف كل ما يلقى إليها كما يدّعي الجاحظ»

فزع أشعب وهب واقفًا مستجديًا..

«لقد صدق الجاحظ يا مولاي، فوالله لو ألقيت بعشاء هؤلاء في جليلة لظل يتجلجل فيها دون أن يمس لها قعرًا أو يجد لها قرارًا!»

«ويحك! أتسخر مني؟!»

«تعس من يسخر من أمير المؤمنين!.. أين العشاء؟!»

أشار أمير المؤمنين، فهبّ جيش الجواري والخدم يرصّون الموائد والقدور، وما كادت أول قدرٍ تمس الأرض حتى انقض عليها أشعب وأماط الغطاء عن شاةٍ محمّرة متّكئةٍ على جبلٍ من ثريدٍ منقوعٍ بالسمن وحولها حماماتٌ مشويات يتراقصن على استحياء.

لم يكد القدر الثاني أن يصل حتى كان القدر الأول نظيفًا برّاقًا ترقد عليه عظام الشاة والحمامات اليابسة البائسة! انقض أشعب، يقضم ويبلع ويتجرّع، ينهس وينهش ويتجشّأ.. لم يأبه وهو في سكرته مع جليلة بوعيد أمير المؤمنين:

«سأضرب عنقك إن أبقيت لقمة!»

لم يلتفت أشعب، لا يبدو أنه سمع وعيد الخليفة الذي مال نحوي وهتف متذمرًا:

«أين معتوهك الآخر يا أبا عثمان؟»

«مولاي، لقد أبى أن يأتي إلا برفقة حماره!»

قالها الحاجب فجنّ جنون المأمون:

«أقسم أن أطيّر رقبتك ورقاب معاتيهك يا عمرو بعد أن ينفضّ المجلس! وإن يكن.. أدخلوا الحمارين معًا!»

ولج جحا ماشيًا بوقار، يجرّ الأتان الذي لُفّت حوافره بالكتان حرصًا على بلاط السلطان، تزفّهم صلصلة الجرس المتدلي من رقبته حتى انتصف الإيوان، ووقف.

«هات ما عندك هيا!»

«أوَتهبُنا الأمان؟!»

«لن تنال الأمان ما لم تنطق!»

«ولا أنت يا مولاي!»

اتجهت نصال السيوف نحو رقبته في لحظة، ساد الهول والذهول، تحجّرت المحاجر وخرست الحناجر ولم يبق صوت همسٍ ولا نَفَس.. فيما عدا هنهنة الحمار وصلصلة الجرس، وصوت مضغ أشعب الذي لا زال منهمكًا بين قدوره غير آبه بسيوف الحرس. تبسّم جحا وقال:

«هكذا أنتم أيها السلاطين، تكرمون الكاذبين وتزدرون الناصحين! لقد جئتك وأنا على يقين أنني قد أغادر رأسي هاهنا، فقط لأحذر أمير المؤمنين من بطش الخائنين، الذين يحيكون مؤامراتهم ويعدّون عدتهم كي يقتلوه!»
قالها ومصمص شفتيه وهو ينقّل عينيه بين الحضور، متفرّسًا متفحّصًا:
«أكاد أجزم بأن منهم من يتخفى بين هؤلاء!»
«إن كان حقًا ما تقول فهي والله مصيبة ستُزهق النفوس وتقتلع الرؤوس..! هل تعرفهم؟ هل تعرف ما يبيّتون؟ ومتى سيهجمون؟»
«لا.. لم يخبرني جلمود بعد»
«جلمود؟ من جلمود؟!»
«أبو الجحجاح جلمود ابن صليصلة القُطحلي!.. حماري!»
ثبّت سعدون سيّاف المأمون قناعه واستل فأسه ووضع قدر الرؤوس أمام جحا، لقد أيقن أن رأسه طائر لا محالة، أشار إليه أمير المؤمنين بالتريث، قام الأمير من مجلسه وتقدم نحو جحا يتفحّصه،
أزاح عمامته التي ألقت بظلها على عينيه الصغيرتين الغائرتين تحت جبهته الناتئة وبين وجنتيه المكورتين اليقطينيتين وأنفه المتورم المعقوف وابتسامته ذات الأسنان المتخلّعة المتخلخلة وهمس له:
«أيّا ما كان الذي شربته يا هذا فلا تشربه مرةً أخرى!»
همس جحا بكل جدية:
«أوَتشكك في صدق جلمود؟ أقسم لك أنه أفقه من بعض هؤلاء، وأفطن من جلهم، وأصدق منهم كلهم!»
«وكيف عرف جلمود بكل هذا؟»
«رؤيا رآها البارحة، وأخذ علي عهدًا أن أخبرك بها يا مولاي»
تسمّر أمير المؤمنين واجمًا ذاهلاً متبلّدًا متلبّدًا حَنَقًا وغَضَبًا، جحظت حدقتاه أضعاف جحوظ حدقتي، حتى خشينا أن تقفز من محجريهما وتصيب أحدنا، تصاعد غيظه مع تصاعد رعب الحاضرين:
«يا أمير المؤمنين هل انتهت القدور؟ أهذه هي المأدبة؟! فقط؟!»
وكأن غضب أمير المؤمنين يحتاج إلى تأجيج، واصل أشعب بإلحاح، بعد أن أتى على المأدبة والتهمها برمّتها:
«أما من فالوذج وعصيدة يا أمير المؤمنين؟ هل تبقّى من فاكهة أصفهان شيء يا مولاي؟»
انفجر مولاي..
«أتراني حمارًا لتقص علي رؤيا حمارك؟! من ذا الذي يجرؤ على التآمر على المأمون ابن هارون الرشيد، أمير المؤمنين وسلطان الأرض من أقصاها إلى أقصاها؟! يا سعدون!»
وقبل أن يهوي سعدون بفأسه، زُلزلت الأرض زلزالها!

لقد صدقت رؤيا أبي الجحجاح جلمود ابن صليصلة القُطحلي!
دقّت ساعتنا، قامت قيامتنا، حقّت حاقتنا ووقعت واقعتنا.. مرعبةً مفزعةً.. مرجفةً مهلعةً.. خافضةً رافعةً.. دكّت حيطان القصر دكًا فصيّرتها كالعهن المنفوش، استحال رخامها جيريًا هشًا، تناثر بياضه على وجوه الحاضرين ولحاهم، فتراكضوا هرعًا وهلعًا؛ وساد هرجٌ ومرجٌ يموج ويمتزج، وضج الجميع يصرخون بألسن لم أسمعها ولم أسمع بها قط!
تناثر الزوار والجواري والخدم كالفراش المبثوث، وفرّ حراس أمير المؤمنين كالحمُر المستنفرة، قفزتُ لأفدي المأمون.. ولكن ما هذا؟! لحية مولاي أمير المؤمنين تدلّت وتشبّثت بطرف صدغه الأيسر وراحت ترفرف وهو يصرخ وزخّات لعابه تتطاير مع شذرات الجير:
«لك شو هاد؟ هادا الشي ما بيصير! الظاهر مو عارفين مين أنا!»
ومن لا يعرف أمير المؤمنين، ولكن ماذا حل بلحيتك؟ ما بالها تدلدلت على وجهك؟ بل ما بال لكنتك التي بالكاد أفهمها؟ ما بال هيبتك؟ ما بال صوتك الجهوري الرخيم الرزين؟
«أنا الممثل القدير جمال سليمان! والله لأبهدلكم وأخرب بيوتكم!»
توارى مولاي في سحابة الجص والجير، التي ما لبثت أن تنجلي حتى صُمّت آذاننا بهديرٍ ترجف منه الأفئدة، وانهار السقف فوق رؤوسنا وتنزّلت الشياطين بكلاليب من السماء! مدرّعين بالسواد، يحملون مواسير من حديدٍ يلوّحون بها فتُفرقع وتنفث النيران وهبّوا جميعًا نحو شخص واحد.
نحوي أنا!
ويحي ويحي ويحي! لقد شُدهتُ ودُهشتُ وتسمّرتُ أحكي لكم أهوال الساعة دون أن أفرّ بجلدي!
«آر يو آل جاهز؟»
أو شيئًا كهذا، قالها كبيرهم وهو يشير لجبهتي بماسورته، ارتفعتُ للسماء، حملني اثنان من زبانيته من إبطيّ فتصعّدتُ حتى أضحى وجهي مقابلاً لخوذته التي لا أرى فيها معالمًا، سوى صفيحًا معتمًا ومنظارًا مظلمًا. لسعني بالماسورة في جبهتي وأعاد عبارته الأعجمية:
«آي سيد.. آر يو آل جاهز؟ دو يو سبيك إنقلش؟»

تصببتُ من كل مكان، لا أدري إن كان ما سال على قدمي وتقطر من أناملي المعلّقة في الهواء عرقًا، ليتني رضيت بقدري وبقيت تحت تلك البقرة، نظرت حولي فإذا بجحا متعلق برقبة حماره والزبانية يجرّونه وهو يضحك ويهذي:
«صدق جلمود وكذب أمير المؤمنين»
ورأيت أشعب يهيج ويجفل وحوله كتيبة من الشداد الأجلاد يشدّون وثاق يديه ورجليه ويغزّونه بآلاتهم فينتفض كمن مسّه عفريت من الجان.

آغمضت عيني، رفعت سبابتي، وتشهّدت للمرة الثانية، هذه المرة آنا هالكٌ لا محالة!

إلهي، إني استودعتك بغداد.. دجلتها وفراتها، جنانها وأفنانها، علومها وأذهانها.

فرقعت الطلقة طبلة أذني، وانتظرت الملائكة ليقبضوا روحي.. ولكنهم تأخروا!

«أهرب أيها الجاحظ أهرب!»

سقطتُ على الأرض، أفلتوني ووجهوا مواسيرهم نحو ذلك الذي يهتف ويقذف عليهم نيرانه من ماسورته! ركضتُ لا ألوي على شيء، سأشكره لاحقًا إن كتبت له الحياة.. ولي! نظرتُ خلفي ورأيت جحا وأشعب يركضان بقيودهما، ورأيت صاحبنا يساجل شياطين الجحيم بمفرقعاتهم، انقضّوا عليه بمواسيرهم فقام يتراقص والدماء تنبث منه كأنه جراب نبيذٍ ثقبته النبال. رحمة الله عليه.. سأشكره إن كُتب لنا لقاء بعد يوم الحساب. ركضت والقصر يتهاوى كِسَفًا وكِسَرًا فوق رأسي، وزبانية الجحيم يركضون خلفي ومواسيرهم ترمي بشررها، ويحهم، بل ويح قِصَري وضآلة سيقاني! عَدْوي عندهم حَبْو، وخطواتهم عندي فراسخ!

خرّ سقف القصر من فوقنا، فبرزت في السماء طاحونة هواء، سوداء دهماء، تحمل شموسًا صغيرة أعمت عيني، تعلق بها المزيد من الشياطين وبدأوا يقذفون نيراهم نحوي؛ إلهي.. أوَكلما أنجيتَني من ميتةٍ تبعَتها أخرى ألعنُ من أختها؟ إلهي.. رضيت بقضائك فاقبضني إليك قبضة يسيرة يجد أهلي بعدها ما يصلّون عليه..

وخرجت الدابّة!

صفراء فاقعٌ لونها، تره‍ب الناظرين!

دابّةٌ تدبّ على دواليب، تشقّ طريقها وكأن قطيعًا من الثيران الجامحة الهائجة يجرجرها. حسنٌ سأتكوّم هنا، لن أفر هذه المرة، وليصلّ أهلي على دولاب الدابة الذي سيلتصق به رفاتي.

-المغنطة الثانية-

حوراء صهباء دعجاء.. عجماء هدباء غنجاء

جفلت الدابة، علا أزيزها وصريرها وتوقفت قبل أن تدهسني؛ أعمت شموسها الساطعة عيني، وانزاح باب هودجها فقفزْت! قذفني الأمل إلى داخلها، تتبعني طرقعات قذائف الشياطين التي تلقّاها صفيح الدابة، ولم أكد ألج حتى تشبث بساقي جحا طالبًا النجاة.

«ويحك فلتذهب إلى الجحيم!»

كان متعلقًا بساقي بيُمناه وبجرس حماره الذي يركض خلفنا بيسراه، ركلتُ اللعين على أنفه المتورّد، ولكنه غرز أصابعه بساقي حتى شعرت أنها ستنُزع كورك سمّان في يده، أدمت ركلات قدمي وجهه وهو يتضرع:

«احملوا أبا الجحجاح معكم، إن لم ينج أبو الجحجاح فلن ينجو منا أحد!»

نطح أبو الجحجاح جحا برأسه حتى أفلت الجرس من يده وولج معي إلى الدابة وتقهقر الحمار والحمار الآخر يلوّح وينوح:

«أبو الجحجاح! أبو الجحجاح!»

انطلقَت بنا الدابة المدولبة بين الركام ثم توقّفت فجأة فاندفعت أجسامنا داخلها وتلقّفنا صفيحها وزجاجها وأرائكها المخملية.

لقد اعترضها أشعب وقام يلكمها ويرفسها وهو يخور ويعوي كثور أرضعته ذئبة؛ دفعتُ باب الهودج المصفّح وناديته ليلحق بنا، سأقتله بعد أن ننجو من زبانية الجحيم؛ زأرَت دابتنا الصفراء وشقّت طريقها، ورأيتهم عبر نوافذها يصوبون مواسيرهم نحونا ويطلقونِ نيرانهم، فتطرق الدابة دون أن تخترقها، لقد بعث الله إلينا ملاكًا لينقذنا!.. والتفتَت..

كانت ملاكًا بالفعل.. ملاكٌ وأيما ملاك!

«جاحز؟ إنتا منيح؟ صار لك شي؟»

كنت أعتقد أن الأهوال التي مررت بها اليوم، ابتداءً بإبط البقرة، مرورًا بسيف المأمون وانتهاءً بنيران الشياطين، ستبقى محفورة في ذاكرتي وذاكرة آل بيتي ونسلي من بعدي؛ ولكنني نسيت كل شيء لحظة سمعتها تلوك اسمي بلكنتها ولحنها وتغنجها وتقول "جاحز"! لحظة التقى لحظي بلحظها! كانت لحظةً واحدة، التفاتةً يتيمة عادت بعدها للتحديق أمامها، وأحكمت قبضتيها على طوق الدابة وهتفت وهي تبرمه يمنة ويسرة:

«اربطوا السيت بيلت»

وانطلق الهودج يسابق طاحونة الهواء المعلّقة في السماء، يشق دهاليز بغداد فارًا من نيرانها؛ تشقلبنا أنا وأشعب وجليلته وجحا وعمامته بداخله وكأننا حبات قمح في رحى؛ أدركتُ حينها الآلام التي تقاسيها الحبة الأصغر عندما تنسحق عظامها؛ لا أعلم كم لبثنا في ذلك الرحى ولكنني رأيت السماء أخيرًا! وكدت أن أفقد الأمل في رؤيتها مجددًا. لقد اختفت طاحونة الهواء، وتقهقرت الشياطين، والتفت الملاك مرة أخرى:

«حدا تأزّى؟»

اقشعرّت فرائصي وتلبّكت أمعائي وتبعثرت ذاكرتي مرةً أخرى لرؤية وجهها!

صهباء وكأن شعرها خيوط حريرٍ حيكت بعروق الذهب ثم نُقعت في ماء الزعفران وقِطر الرمان ورحيق شقائق النعمان؛ حوراء دعجاء هدباء تلفحني كلما رمشت ورفرفت بجفنيها الكاحلين الكالحين! شفتاها متورمتان داميتان وكأنما وقعَت للتو عليهما، أظافرها كنصالٍ مخضّبةٍ بعد معركةٍ دامية، كأنها لبؤة أجهزت على فريستها ولم تلعق مخالبها بعد.

تناولَت قصبةً بيضاء والتقمتها بين شفتيها، ثم أخرجت تنكةً منمنمةً ما لبثت أن استحالت إلى موقدٍ أحرقت به طرف القصبة، استنشقتها بعمق ثم نقلتها من بين شفتيها إلى أُنمليها، ونفثت دخانها مع كلماتها.. لا أدري إن كان ما تتفوه به عربيًا، فاضت حروفها غُنجًا ودمجًا ومزجًا بلهجاتٍ لم أسمعها من ذي قبل، ولكنني فهمتها؛ لقد خلبت لبي وخاطبت وجداني وحببتني في لقبي القبيح المنقّر وكأنني أسمعه لأول مرة وهي تقول:

«شو بيك جاحز عم تسمعني؟»

«بلى أسمعك يا.. من أنت؟ بل ما أنت؟ هل قُبضت روحي؟ هل قامت قيامتي؟ هل اجتزتُ السراط للتو كي ألقاكِ؟»

«تؤبرني بعيد الشر عنك!»

قاطعَنا جحا، قذف بنا خارج جنة عدن! علا صوت نحيبه كمعزةٍ تصارع نِفاسًا متقطّعًا، دفن وجهه بين كفيه وهزّ كتفيه وهو يبكي ويعوي:

«واهٍ أبا الجحجاحاه!.. واهٍ أنيساه ونيساه رفيقاه خليلاه!»

صفعتُ المأفون!

«يا ويح حماقتك وبلادتك! كدنا نحترق وكادت مؤخراتنا أن تُمزّق وتُخترق بنيران الزبانية وأنت تنوح على حمارٍ نواح الثكلى على أبنائها!»

رفع رأسه والدمعات تتقافز من إحدى عينيه الغائرتين دون الأخرى:

«تبًا لك! ابنك إن حملك يومًا على ظهره تنهال عليه بدعوات الرضوان ليجتاز بها السراط ويلج الجنان؛ وأبو الجحجاح حملني على ظهره دهرًا، لم أجد أشرحَ منه صدرًا، ولا أكثرَ منه صبرًا، لم ينتظر مني حمدًا ولا شكرًا، لم يقل يومًا أفٍّ ولم يعص لي أمرًا، قل لي يا هذا هل هناك ابن أبرّ بوالديه من أبي الجحجاح بي؟!»

تبًا له ما أقوى حُجته!.. وتبًا لحماره أيضًا، نظر إلينا بعينيه المتضادتين حتى في ذرف الدموع، سالت إحداها وتقلقلت الأخرى وهو يشهق ويقول:

«نفسي لنفس أبي الجحجاح فداء!»

«يا ويح أمٍّ لم تجهضك، وابتلت البريّة بك! كل هذا النواح على حمار؟ حيوان! دابة! بهيمة!»

«وهل تسامى البشر عن البهائم بفائض عقلهم ووعيهم وذكائهم؟ أم تفوّقوا عليهم بإجرامهم وأنانيتهم وإفسادهم وتدميرهم؟ هل رأيت حمارًا قط يقود جيشًا من الحمير ليحاربوا حميرًا آخرين؟ حدثني بعدها

عن ذكاء الإنسان و "إنسانيته" وغباء الحمار و "حيوانيته".. أعتقد لو أن الحمار نطق لكانت أول وصمةٍ وتهمةٍ وسبّةٍ يطلقها هي "يالك من إنسان"»

لم يُمهلني أشعب أن أكيل له صفعةً أخرى.. استفرغ اللعين! تقيأ! تناثر! تبعثر! تدفق الطوفان من أنفه وفمه وأغرقني! أفرغ مأدبة المأمون فوقي، بل أفرغ كل ما كان يكدّسه في جليلته منذ خُلق! من درّاق أصفهان وحتى لبن أمه! وراح ينبح وينطح هودجنا المصفّح:

«أخرجوا جليلة من هنا! سوف تختنق!»

وكأني كنت أنتظر هذا العِجل ليستثير رهاب الأماكن المغلقة بداخلي! تعلّقتُ برقبته كي أروّضه، ولكن هيهات! الهودج الذي تحمّل نيران الشياطين عجز أن يقاوم هيجان أشعب، فُتحت بوابته الخلفية من شدّة الركلات، وطار أشعب منه..

المصيبة أنني كنت لا أزال متعلقًا برقبته، والكارثة أن هودجنا كان منطلقًا كالريح، والطّامة هي أننا سقطنا بين سرب من الهوادج والصهاريج الحديدية المدولبة التي تزمّر وتزمجر، سقط أشعب على أرضٍ صماء عتماء صلداء وهبطتُ أنا على جليلته، كانت الهوادج تنحرف عنا وتتراطم فيما بينها، هبّ أشعب يركض على أربعٍ بينها وعليها، والناس بداخلها يصرخون ومنها يفرّون، تشبّثتُ بقميص أشعب وانثناءات رقبته الغليظة، قد يُنقذ الثور الهائج حياتي مرة أخرى! ابتعدنا عن نهر الهوادج، واعترضتنا بنايات ممرّدة من قوارير، مطعمة بزبر الحديد.. صروح باسقات متطاولات لا تكاد تطال عيناي الجاحظتان لها أسقفًا؛ انطلق ثورنا الهائج نحو إحداها، اللعنة أرى من خلف القوارير أناسًا على الأرائك يتسامرون ويأكلون! كيف أوقف هذا الشيء قبل أن ينقض عليهم؟! أمسكتُ برقبته أخنقه، عله يطلق الروح قبل أن يلقي بنا لحتفنا.

و.. تحطمت القوارير، لم ير أشعب حائط الزجاج، أو أنه اخترقه عامدًا لينقضّ على الطعام؛ ارتطمنا به فجعله دكًا، وماج الناس بعضهم في بعض وهجم أشعب على كل ما يؤكل بعد أن ألقاني عن صهوته وسقطتُ بين الأرائك والزجاج..

حسنٌ الآن أدركت كل شيء، أنا ثمل! ربما تلبسني عفريت تلك البقرة التي تغزّلت بها؟ أو أن سقطتي تحتها أذهبت ببعض عقلي؟ أو ربما أتلفَته رائحة إبطها؟! سأغمض عيني وأنتظر حتى ينتهي هذا الكابوس وينجلي أو يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

«جاحز! يا جاحز!!»

سأفتح عيني.. لا لن أفتح، لن تستدرجني الشياطين لأعود في ذلك الكابوس اللعين!

«جاحز! اركض يا جاحز»

فتحت عيني.. تبًا! ترجّلت الصهباء من دابتها راكضةً نحونا بعد أن اعترضت بها سيل الصهاريج، فتعالت مزاميرهم ولحقتهم هوادج سوداء مدولبة.. بمزامير أكثر إزعاجًا وأعلى نياحًا تحمل قناديل حمراء وزرقاء متلولبة متقلّبة، برز جحا من خلفها مهرولاً تتهادى عمامته المعقوفة المدببة مع عرجته.. وهتف بنا:

«هيا قبل أن تنفجر!»
ودوّى الانفجار! تحولت دابتنا الصفراء إلى كومةٍ ملتهبة!
«شو عملت يا مجنون؟!»
«سيلهيهم الانفجار عنّا.. هيا قبل أن يلحقوا بنا!»
قالها وانفجر ضاحكًا فجأة! وكأنما نسي جحجاحه الذي كان يندبه وينعيه للتو! دسّ قصبةً بيضاء بين شفتيه وأوقدها بالتنكة المنمنمة ونفث كيرها ثم ألقى بها إلى الصهباء الهدباء الغنجاء، التقطتها، أدخلت يدها في شِق سروالها وتحسّست مؤخرتها متعجبة، كيف انتشلها؟ نفضت رأسها وهتفت:
«اللي بدّو يعيش.. يلحقني»
قالتها فهممنا بمتابعتها، ولكن أشعب لم يسمعها، كان منهمكًا منكفئًا يحشر كل ما تراه عيناه داخل فيه. لن يصرفه عن الطعام سوى الطعام!
«أشعب! ستفوتك وليمة الصهباء!»
سبقنا جميعًا بقفزة، كانت الدجاجة المحمّرة متدلية بين فكيه في أول القفزة، وتلاشت في آخرها، وانطلقنا خلف الصهباء داخل دهاليز ذلك الصرح.
ما بال هذا العالم؟ بل ما بال نسائه؟ كرزيات الشفاه.. قرمزيات المخالب! متى سأستيقظ يا ترى وأعود لبيتي ومكتبتي والبقرة التي أغازلها؟ تبًا لها تبًا! لأن أقضي نحبي مع هذه الصهباء خيرٌ لي من أن أحيا بجوار تلك البقرة، فلتذهب إلى الجحيم، فلتذهب بغداد كلها إلى الجحيم! سأستمتع بهذا العالم مالم أستيقظ. كانت الصهباء ترتدي سروالاً أزرقًا.. آه.. يا لزهدها.. أظنّها لم ترتدِ غيره منذ كانت جويريةً صغيرة؛ لقد تشدّق حول خصرها وتشقّق حول أردافها وتمزّق حول فخذيها؛ فتَرَ رونقه وبهتت زرقته وتفتّتت أطرافه ولا زالت ترتديه! اعتلت قبقابًا فاقعًا، شاهقًا مطرقَعًا، منمنمًا مفرقِعًا، التفّ بحبلٍ حول ساقيها واشرأبت منه أصابع قدميها؛ حتى قميصها الأبيض، لم تجد له قماشًا كافيًا لتغطيةِ زندها ولا نحرها؛ واسع الجيب منزع الأكمام بالكاد يلامس أطراف سرّتها، بالكاد يلمُّ شمل نهديها، أظنّها مرضع.. أو نفساء.. لم تكن الزاهدة الوحيدة في هذا العالم..
جميعِ النساء هنا زاهدات.. جميع النساء هنا مرضعات!.
انطلقَت بنا نحو جدارٍ من صفيح مصقول، داعبَته بأناملها فانشق وتلاشى داخل الحائط.. ولجَت، وولجنا خلفها وانحشرنا بداخل حجرة الصفيح تلك، داعبَت الجدار مرة أخرى فانغلق وهوى بنا!
التفّت أمعائي ببلاعيمي حتى هبطنا وانشق الجدار فإذا بهوادج ودواب مصهرجة مصفوفة، دفعتَنا خلف عمود وأشارت لنا بالمكوث، ومضت تمشي مشية تتعطف فيها سيقانها، ويتثنى خصرها، ويطرقع قبقابها، نحو هويدجٍ صغير منزوع السقف، يمتطيه فتىً ينافسها في زهدها! يكاد صدره يمزق قميصه، اكتظت زنوده بالنتوءات المكورة المتصلبة بشرايينها المتشعبة التي عمّت ذراعيه وظهره ورقبته. تدنّت نحوه الصهباء، غرست لفافة بيضاء بين شفتيها الكرزيتين القرمزيتين، هبّ المفتول يشعلها لها، ولكنها وفي لحظة نقلت قبقابها من

الأرض لنتوآت رقبته، وأطاحت به قبل أن يرتد إليه طرفه! امتطت صهوة هودجه وانطلقت نحونا يسبقها صراخها:

«يلا اركبوا.. اركبوا!»

قفز أشعب فعبّأ المقعد الوحيد الشاغر بجوار الصهباء، وقبل أن أفكر سبقني جحا وقفز على حجر أشعب..

«يلا يا جاحز عجّل!»

رأيت المفتول ينهض ويركض مزمجرًا نحونا، سامحيني يا أم عثمان.. أغمضت عيني وقفزت، فهبطت على حِجر الصهباء! اقشعرّ بدني عندما شعرت بعظام أوراكي الضئيلة الناتئة تضغط فخذيها الغضين اللدنين الطريين اللينين، تشبثتُ بالإطار كي لا أضع ثِقلي عليها، فماج بنا الهويدج يمنةً ويسرة، نزعَت يدي عن حلقة الإطار، وأمالَت هامتي عن وجهها فتطرقعت فقرات رقبتي تواليًا؛ استسلمتُ لها، أرحتُ مؤخرتي على وسادتها، وتشنّج رأسي على حجر جحا، ونفذت بنا كما ينفذ السهم من الرمية!

أحلامي لا تنطلي علي..

ولكن هذا الحلم مختلف..!

جليٌّ مجلجِلْ.. مزمجرٌ مزلزِلْ!

أهي رؤيا؟ لا لا.. الرؤى تأتينا بشيوخٍ نيّري الوجوه، مهفهفي اللحى.. لا بصهباواتٍ عجماواتٍ زاهدات!

أهي أضغاثٌ من تلاعب الشياطين بي؟ نعم! لا بد أنه قعنبور الوغد اللعين! ولكن مهما كان قعنبوري جهبذٌ جامحٌ فذٌ شاطحٌ فلن يبلغ هذا المبلغ!

أحلامنا ليست إلا مرايا يختلط فيها حابل وجداننا بنابله، ولكن وجداني يُقسم أنه لم ير قط ما أراه اليوم..! سوف أنتظرُني حتى أستيقظ، وسأنتقم بعدها من وجداني، ومن قعنبوري أيضًا!

«وصلنا!»

هتفت بها الصهباء.. أظننا في أحد قصور المأمون، ولكن لا خدّام يحومون ولا جندٌ يحرسون! تدحرجنا بين جنان وعيون، تُفتّح لنا البوابات من تلقاء نفسها وكأنما وكّلت بها العفاريت، على كلٍ وسم، ما هذا الوسم؟ كأنه رأس شيطان! جمجمةٌ من ذهبٍ إبريز عيقان، مزينةٌ بزخارف نحتها سحرة فرعون ومردة سليمان، توسّط جبينها قلبٌ مقلوبٌ ياقوتيٌ قرمزيٌ قان. اعتلى ذلك الرمزُ الأبواب وزين الحيطان، وخُطّت أسفله كلمة (القُرْمُزَان). نطقتُها فأجابتني الصهباء وهي توقف هويدجها المسروق أمام بوابة القصر المرمري.

«إيه، وصلنا لبيت القرمزان!»

«أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة! اللهم أعذنا من شرّ هذا القرمزان! ومن شر بيته بيت السحرة والمشعوذين والجان والكهّان»

«جاحز شوبيك؟ شو مشعوذين وجان وكهان؟»

«أولا ترين الجماجم ترمقنا من كل مكان؟»

« هيدا لوغو القرمزان: كالاڤيرا ذهبية وعليها سبيد روبية»

«هلا تحدّثتِ بالعربية؟!»

«كالاڤيرا! جمجمة مكسيكية مزركشة وعليها ياقوتة كالة، بستوني، جاروفة تبع ورق الشدةّ، الكوتشينة.. ما بتعرفها؟»

قاطَعنا جحا:

«القرمزان يحيّينا بابتسامته!»

«يا ويح حمقك! تلقّفنا بجماجمه وشياطينه وأنت تقول يحيّينا بابتسامته؟!»

«ابتسامة الموت هي الأنقى والأبقى، تظهرُ إذا فتر الوجه ولم يعد قادرًا على العبوس، وتتسع كلما ذوت الروح وتلاشت معها الهموم والأحزان، وتبلغ ذروتها إذا لم يبق على الوجه جلدٌ ولا لحم.. هل رأيت جمجمةً عابسةً قط؟!»

صمتَ عندما وصلنا، لعنة الله على حجّته! عبرَت كارول البوابة فتبعناها كالبُله، جحا يضاحك نفسه، وأشعب يتلفّت باحثًا عمّا يُسكت جليلته، وأنا أتمتم بتراتيلي وتحاصيني؛ توسطنا ردهة قصر القرمزان، واستقبلنا في صدرها إطارٌ يحمل صورته، ويح من رسمها، كأنه يرمقنا من جوف الجدار! بل ويح القرمزان، عتلٌ وسيمٌ ممشوقٌ متقززٌ متعجرفٌ لا يرتدي سوى.. سوى خُريقةٍ ديباجيةٍ قرمزيةٍ بالكاد تستر ما لا أستطيع ذِكره.

عضلاته متكوّرةٌ متحجّرةٌ متحشرجةٌ، تتزاحم وتتصارع وتتدافع، فتُنبت عضلاتٍ أصغر فيما بينها، وتُفجّر العروق المشرئبّة كالأنهار في ثناياها. متكئٌ على عرشه، في يُمناه جمجمته المذهّبة المزركشة المزينة بياقوتة القلب المقلوب، وتربّت يسراه على ليثٍ هزبرٍ ضرغامٍ رابضٍ كهريرةٍ عند قدميه.

«أليس اسمًا من أسماء الأسد!»

التفتُّ بجانبي فوجدت جحا مكتّفًا ذراعيه يعبث بلحيته ونتوآت وجنتيه وواصل هذيانه وهو يتأمل لوحة القرمزان:

«لم أسمع بكلمة القرمزان قط، ولكنها تحمل هيبة الأسود»

«للأسد أربعمئة اسم عربي ليس منها القرمزان يا هذا!»

«أعلم! في لغتنا العربية لا يضاهي الأسد في تعداد الأسماء والأوصاف سوى..»

«صَه يا قليل التهذيب!»

«وإن يكن، هناك أربعمئة متحذلق كدّسوا لسان العرب بالمزيد من أسماء الأسود، لن يضيرها أن يأتي مأفون باسم إضافي.. لذا قررنا نحن أبو نواس جحا البغدادي أن القرمزان هو الأسد! الأسد القرمزي المشمئز»

لا يوجد أعته من هذا إلا من يجادله!

انصرفت عنه خشية أن تصيبني عدوى حماقته، وتأملّت باقي الصور المتناثرة في كل مكان، يظهر القرمزان في كلٍ منها مستعرضًا عضلاته العملاقة وسراويله البرّاقة؛ واستوقفتني صورةٌ.. في الواقع لم تستوقفني، بل استقفزتني واستفزّتني، صورةٌ تقشعر لرؤيتها الأبدان وتشمئز الأبصار، مجونٌ وفسوقٌ وعصيان اجتمعت داخل إطار! القرمزان المتعري إلا مما يستر عورته المغلظة جدًا، يقف على حافّة زورقه، يحمل جاريتين لا تقلان عنه تعريًا كذبيحتين على كتفيه، ويلوح بكأسٍ يفور بشرابٍ مريب!

«آخر صورة إلنا سوا»

أفزعتني الصهباء، لم أشعر بوجودها جواري، أشرتُ إلى الجاريتين، أو بالأحرى إلى المؤخرتين الملقاتين على عاتق القرمزان:

«أي مؤخرةٍ فيهما؟»

«السمرا.. كنت عاملة تان»

«إني جائع!»

قالها أشعب، ورددت صداها جليلة التي لا تفتأ تُصدر زمجراتها المكتومة، أظن أن قبيلة الدواب بداخلها تتعارك من ضيق المكان، اللعنة أخشى أن يشعر بأنني أحدث نفسي عن جليلته فيبتلعني!

«أيتها الصهباء.. أين مائدة هذا القصر؟ علينا أن نطعم أشعب قبل أن يلتهمنا»

«المطبخ من هون..»

التقطت أذنا أشعب كلمة مطبخ فهرول كقطٍّ تدلى أمامه ذنب بعير.

«ما هذا؟ أين الطعام»

نطق القط! دخلنا ذلك "المطبخ" فلم نجد سوى حيطان وأدراج وصناديق، وهبّ أشعب يشمشمها ويقلّبها باحثًا عن قدرٍ ممتلئ أو طبقٍ مزفّر.. قلّب أوانٍ فارغة براقة، لعقها فلم يجد لسانه أثرًا لطعام! لقد قُضي علينا جميعًا.. سنَباتُ ليلتنا مع الدواب داخل جليلة!

«ويحكِ أين الطعام؟!»

فتحت الصهباء إحدى الخزائن وأخرجت صندوقًا من ورق وتنكة من حديد..

«هيدا كورن فليكس وهيدي تونا»

التقمها أشعب، نهش الصندوق الورقي فتساقطت منها حبات الخرز ومضى يمضغه ويبتلعها ويقضم التنكة حتى انغرست أنيابه فيها وسال ما بداخلها.

«اصبر يا أشعب»

يا لحمق هذه الصهباء تظن أنه سينتظر أمام طعام، أحضرَت معولاً صغيرًا.. أظنه لفتح التنكة، ولكن التنكة كانت خاوية يلوكها أشعب في فمه مع ورق الصندوق.

«أهذا كل ما لديك يا امرأة؟!»

فتحت خزانة فانتشرت من داخلها سحابة زمهريرية وانقض أشعب بداخلها.

«وهيدي الثلاجة»

برزت مؤخرة أشعب من صندوق الزمهرير بعد ان انحشر هو وجليلته بداخله، ولم أسمع سوى مضغه وتجشُّئه.

«اسمعيني أيتها الصهباء، ما بداخل هذا الصندوق لن يملأ مِعشار جليلة!»

«أوكي بسيطة.. هلأ بأعمل أوردر!»

رطنت رطنتها وأخرجت صفيحة من سروالها الممزق، وخرزة بيضاء أقحمتها في أذنها وداعبت الصفيحة بأناملها، وواصلت رطنها..

«ممكن عشرة وجبات سوبر دبل بيكون تشيزبورغر پليز؟»

«هاه؟ ما هذا السَوْبر دَبَلُ بَيْقون تشيزَبُورغرٍ بليز؟!»

تجاهلَت سؤالي، لمحَت أشعب بطرف عينيها وهو ينتزع أحشاء صندوق الزمهرير ويجهز على كل ما يمكن مضغه وبلعه بداخله؛ ثم عاودت الحديث مع الهواء.

«خليها عشرين.. أو خمسين إذا بتريد.. ومعاها خمسين سوبر تشيكن ديلوكس، إيه مزبوط العنوان، ميرسيه»

التفتت إليّ أخيرًا بعد أن أخرجت الخرزة من أذنها.

«الأكل جاي عالطريق!»

تحركت أذنا أشعب مع كلمة "أكل"، وتدفق المزيد من لعابه.

«ويحكِ! أتسخرين منا؟! تتحدثين إلى الهواء فيأتي الأكل في الطريق؟!»

لن يحتمل جَناني المزيد من المجانين! لقد طفح كيلي بهم الليلة! تدخّل أكثرهم جنونًا ليهدئ روعي. اقترب جحا، جاحظًا، مخرجًا عينه من مقلتيه الضيقتين لتلتقي عينَي وهمس:

«هذه ساحرةٌ يا جاحظ، ألم ترَ كيف روضت الشياطين؟ لقد أمرت أعوانها من الجن ليحضروا الطعام.. سيحضرونه.. وسترى»

ويح هذه الصهباء، نعم! هي ساحرة! تتحدث بلسانٍ عربي أعجمي هجين، تلوك كلماتها بتعاويذها كمضغة مغنّجة، بالكاد أفهم ما تعنيه. ولكن كل هذا لا يهم الآن؛ المهم أن تأتينا شياطينها بالطعام قبل أن نحلَّ ضيوفًا في جوف جليلة!

غادرت الصهباء وتبعناها، ذكّرتني برودة المرمر بخفيّ اللذين تركتهما على بساط المأمون. امتدت يدها إلى طاولة ارتصت عليها قضبان سحرية سوداء، تناولت إحداها وأشارت بها نحو نافذة معتمة معلقة على الحائط؛ فأضاءت! اللعنة على سحرها! لقد استحضرت جنّية بداخل النافذة، تتمايل وتغني بلوعةٍ وأسى:

«جرح تاني.. هو قلبي لسا طاب من الأولاني؟!..»

وقفز جحا يتراقص ويضحك بهستيريا على تلك الأغنية المأساوية! ركلتُ مؤخرته المعقوفة، بالمناسبة كل شيء فيه معقوف، وهتفت:

«الجنّية تشكو لوعتها وجراحها وأنت تضحك وتتراقص؟!»

واصل قلقلة عينيه ومؤخرته مع الأغنية البائسة ورمقني ولعابة يسيل من فجوات أسنانه المتخلعة وهو يقول:

«السعداء يتراقصون على الألحان بينما يتباكى التعساء مع الكلمات؛

آغاني الغرام ليست سوى مسوِّغاتٍ لتلذذ المتيمين بمآسيهم، ومعزيّاتٍ لهم في خيباتهم، أنا مستعد للتبرع بثلاثة أرباع ثروتي وكليتي اليمنى لمن يُحضر لي عاشقًا لا يدّعي أنه أكثر من أحب وأكثر من تعذب!»

نقرَت المشعوذة على العصا فتلاشت الجنّية المتباكية وبرزت محلها الطاحونة الطائرة مقبلةً نحونا من خلال النافذة؛ صمّ صوت مفرقعاتها آذاننا. ففزعنا وقفزنا! اختفى أشعب خلف الأريكة وانحشرتُ طالبًا الأمان خلف مؤخرته، وانفجرت المشعوذة ضاحكة:

«شو بكم؟ هيدا تيليفزيون»

اختفى صوت المفرقعات، وانطلق صوت فتاة من النافذة المعلقة، رفعتُ رأسي من خلف مؤخرة أشعب، فرأيت شيطانةً تتحدث إلينا:

«وقد سيطرت شرطة أبو ظبي بالتعاون مع المباحث الفيدرالية على الوضع»

جلست الصهباء أمام النافذة تشاهدها باهتمام، هذه بغداد، وهذا قصر المأمون.. يا إلهي وهذا نحن! نركض لا نلوي على شيء!

«وقد فرّ المشبوه برفقة اثنين من الممثلين بمساعدة فتاة لم يتم التعرف عليها بعد في سيارة هامر صفراء عثر عليها لاحقًا تحترق في شارع الخليج العربي بقرب المدينة الإعلامية دون أثر للمشتبهين»

هبّ جحا يتلمس النافذة حيث ظهر حماره وهو يتقهقر خلف دابتنا المصفحة فتشجعتُ واقتربتُ من النافذة، تحسستها بدوري، نظرت خلفها، هي صفيحة أخرى معلّقة على الجدار، تَعرض عليه شياطين المشعوذة ما كان وما سيكون!

تكمكمتُ فوق الأريكة لأراقبنا من خلال تلك النافذة السحرية ونحن نفرّ بأرواحنا تجاه المشعوذة الصهباء ودابتها الصفراء، ورأيت الأحمق الذي أنقذ حياتنا وجسده يتراقص مع المفرقعات، وواصلت الفتاة تعليقها:

«جميع الإصابات كانت طفيفة ومتوسطة فيما عدا إصابات مخرج مسلسل ليالي بغداد فريد ابن فريد الديباجي الذي هاجم القوات الفيدرالية بمدفع آلي وتلقّى عدة طلقات وهو في حالة حرجة الآن في مدينة الشيخ خليفة الطبية؛ شكرًا لمتابعتكم، انتظرونا بعد الفاصل»

تلاشت الجنيّة من الشاشة فجأة! وظهر مكانها رغيف مشطور، محشو بلحم محمّر وقديد، يسيل المرق من جوانبه، عرضه بعرض النافذة، يدور وتتصاعد منه الأبخرة، أقسم أنني كدت أن أشعر بحرارته وأشتم رائحته! انقلبَتْ بي الأريكة حيث هب أشعب من خلفي منقضًا نحو النافذة، صرخَت الصهباء بعد فوات الأوان، لقد حطم أشعب نافذتها الزجاجية السحرية المعتمة وتبعثر فتاتها على الأرض وأشعب ينبش ويجهش باحثًا عن اللحم.. لقد هلكنا لا محالة!.

انطلق صوت صفير في أرجاء الإيوان، هبّ جحا هاتفًا:

«لقد وصلت الشياطين بالطعام»

وتبختر خلف الصهباء يتبعهم أشعب يمشي على أربع، سأتركهم معه قليلاً في حال لم يأت الطعام كي يبدأ بالتهامهم.. مكثت هنيهة، لم أسمع صراخًا، وصل الطعام؟ أم ابتلعهم قبل أن يلتقطوا أنفاسهم؟ تبعتهم محاذرًا من أن أدوس على فتات النافذة السوداء، أدمت بعضها أخامصي، لم آبه وأنا أتسلل خلفهم.

«جاحز.. بدّك بيف أو تشيكين؟»

كومةٌ هائلة من القراطيس، وأشعب منكفئ وسطها ينتزع منها أرغفة اللحم الدائرية ويسقطها إلى قعر جليلته مباشرة دون حتى أن تلامس شفاهه وأسنانه ولسانه وبلعومه. "بدّك بيفًا أم تشيكينًا؟" اللعينة تريد أن تسحرني! اقتربت منهم، أخرج لي جحا رغيفًا مكورًا:

«أتريد رغيف عجل أم رغيف طير؟»

«ويحك يا جحا! أوَتفهم طلاسم هذه الصهباء؟»

ضحكَت وهي تمسح بقعة دمٍ أحمر متخثر نفرت من شطيرتها على طرف شفتيها؛ اللعنة على ضحكتها الطنّانة الرنّانة، سيبقى صداها ينخر قلبي وطبلة أذني إلى أن يحين أجلي! ناولتني أحد القراطيس وهي تقول:

«بيف يعني لحم يا جاحز، وتشيكين يعني دجاج.. هيدا اسمه هامبورغر»

اللعنة فلتسحرني الصهباء، إني أتضور جوعًا وسألتهم هذا الهَمْبَوُرْقَر أيًا كان قبل أن يطاله أشعب! فتحتُ القرطاس، أخرجتُ رغيفَ خبزٍ مكوّر مشطور محشو كالذي كان يدور في النافذة السحرية قبل أن يحطمها أشعب؛ قضمته.. تبًا إنه لذيذ!

«بدك فرايز وكاتشاب؟»

قدّمت إلي عصيانًا صفراء وقراطيس حمراء منمنمة. ماذا أفعل بهذه؟! تناولَت أحد القراطيس ومزّقته بأسنانها لينبثق منه الدم المتخثر القاني ففزعْت!

«ويحكِ ما هذا؟!»

«هيدا كاتشاب!»

«أحلالٌ هذا أم حرام؟!»

ضحكَ جحا الذي تلطخ وجهه بالدماء المتخثرة ولوّح بكوبٍ من قرطاس وهو يلوك قصبةً ناتئة منه ويتجشّأ:

«حلالٌ زلال يا صديقي لا تخف! هذه بطاطا وطماطم!»

تذوقت موائد أهل الأرض من أقصاها إلى أقصاها.. ولم أسمع يومًا ببطاطاء ولا طماطاء! أقبلَت نحوي الصهباء ملوّحةً بعصًا ذهبية، مغمّسةً بالدماء القرمزية، وقرّبتها بدلالٍ إلى فمي.. حسنٌ سأتحرى عن الحلال والحرام لاحقًا و..

«اللعنة كم هي لذيذة!»

تحولتُ إلى أشعبٍ مصغّر وأنا ألتهم الهَمْبَوُرْقَر وتوابعه بنهم، اقتربَت مني، أخرجت القصبة من فيها وقربتها إلى فـيّ، نظرتُ إلى البقع الحمراء على طرفها، لا أعلم إن كان هذا من دماء الطماطاء أم من أصباغ شفتي الصهباء.

«بدك كوك؟»

«اشرب يا جاحظ، فوالله إنه خيرٌ من عنّاب أمير المؤمنين»

عليك اللعنة يا مدمن اليقطين الفاسد! تناولتُ القصبة، احتسيت بتردد وتقزز كي لا تلتصق أصابع الساحرة بفمي.. وندمت! شعرتُ بقطيع من النمل الثائر الهائج يسري في حلقومي، تزغزغه خطواته، تغزغزه قرصاته! لُسِعتُ وسَعُلتُ واستنثرت فانبث النمل من كل منسم في وجهي.. من فمي وخياشيمي ومدامع عيني!

«سحقًا لك يا جحا! ما هذا؟!»

«إنها الكَوْكا كَوْلاء! سوف تعتادها يا صديقي!»

ناولَتني قنينة، أرجو أن يكون ما بداخلها ماء كمائنا.. شربتُ ومسحت وجهي واستنثرت وتجشأت تجشؤًا لم أتجشأ مثله من ذي قبل.. وأكملتُ هَمْبَوُرْقَرِي وأنا أراقب أشعب وحوله القراطيس المتطايرة والأقداح المتناثرة، لقد فعلتها الساحرة! لقد أشبعت أشعب! شاركني التجشؤ من فعلِ الكَوكاكولاء فسمعت صدى صرخات البهائم المتحشرجة من داخل جليلة؛ استلقى على قفاه متوسّدًا القراطيس والمرمر، وغطّ في نومه يشخر و.. ويزمجر، توسّده جحا وأطلق معه الروح إلى باريها. قامت الصهباء، متمطّعة متمجّغة، متلوّية متغنّجة.. ثم أدخلت أناملها تحت ناصيتها وانتزعت شعرها الأحمر! اللعنة! قلت لكم إنها ساحرة! لقد أصبحت شقراء في لحظة!! انهال شعرها الفاقع ولوحت به في الهواء لوهلة قبل أن تهم بالمغادرة.

«إذا بدك تنام أوضتك من هون، والتوليت من هون»

ألقت بشعرها الأحمر على الأريكة وتركتني ذاهلاً جاحظًا.

يا إلهي، ما هذا الحلم الذي يأبى أن ينتهي؟! ذهبتُ إلى حيث أشارت، ربما لن ينتهي الحلم حتى أنام! خطوتُ بأقدامي الحافية الدامية على مرمر المقصورة، فتوهجَت بقناديل أرى ضياءها دون لهيبها، تتوسطها أريكةٌ أكبر من بيتي برمّته، تكفيني وتكفي أشعب وجحا وخمسة جواحظ آخرين، وأمامها تعلّقت نافذة سحرية سوداء كالتي حطّمها أشعب، يا ترى كيف أستحضر شياطينها؟ هتفتُ مناديًا:

«يا عفاريت الشقراء.. يا شياطين القرمزان.. اظهروا داخل هذا التلفزيون!»

لم يستجيبوا؛ لوّحت بيدي، طبعت إبهامي وبناني وأخامص أقدامي عليه كما تفعل الساحرة بصفيحتها علّه يستجيب؛ آه تذكرت! لقد أشارَت إليه بقضيب سحري.. وجدته بجوار الأريكة، تناولته ودعكت جميع نتوآته حتى توهّجت صفيحة التلفزيون؛ لقد تعلّمتُ السحر! وجدتُني أمام رجل وامرأة، يتبادلان النظرات والبسمات.. هذا هو الحب العُذ.. اللعنة! لقد انقضاّ على بعضهما ببراطمهما يلوكانها وينهكانها بشناعةٍ وفظاعةٍ وبشاعة! ويحكم ما هذا؟! قُبلة حب أم إعلان حرب؟! أعوذ بالله أعوذ بالله!

فركت نتوآت القضيب السحري بانفعال فتلاشى الفاجران وظهرت محلّهما كتيبة

من الفتيان، ملوّني القمصان، عاري السيقان، يركلون كرةً ويلاحقونها في وسط بستان.. ما هذا؟ لعب صبيان؟! اغربوا عني! تخلّصت منهم فظهر لي مأفون يلوّح بساطور ويصرخ بلغة لم أعيها.. أظنه يقول "تبًا لك" هكذا بدت لي! انتظروا انتظروا.. هل تعون كل ما أقوله هنا؟! وما يدريني أن من يقرأ هذه الأسطر الآن ليس أعجميًا كالشقراء؟! ولكن هذا جمال لساننا العربي، كلماته تتحدث عن نفسها! تهمس بمعانيها في آذاننا دون حتى أن نبحث عن شاعرٍ غابرٍ ألقى بهذه الكلمة أو تلك بين قصائده ليتشدّق بها متنطّعوا اللغة ويسمحون بمرورها عبر قواميسهم! ومن أين أتى بها ذاك الشاعر من الأساس؟ هل كان لديه قاموس هو الآخر؟ هل محّص غريب عباراته في بطون الشعراء من قبله؟ ما يدريهم أنه لم يلقي بها جزافًا كي يبهّر قصيدته تمامًا كما فعل جحا بـ "القرمزان"؟ هل أجهضت اللغة العربية جميع عباراتها فجأةً أيام شعراء الجاهلية وأصيبت بعدها بالعقم التام؟ صدقوني يا أصدقائي، ما يهم هو البيان والتبيّـن وما لا تجدونه في المعاجم ابحثوا عن معناه بين طيات وجادينكم..
اللعنة اللعنة اللعنة! ذلك الوغد الذي يلوح بالساطور يمزّق آخرين يقطع فرائصهم كالشياه ودماؤهم تتناثر على وجهه ولا يزال يصرخ بلغته الغريبة "تبًا لك! تبًا لك!!" ومع صرخاته تتعالى قهقهاته والموسيقى! ما هذا العالم المجنون؟! تابعت تقليب نتوآت التلفزيون، فظهر رجلٌ يتحدث بالعربية.. عربيتنا نحن لا عربية المشعوذة، متهندم متأنق ينظر إلي من خلال الصفيحة كأنه يخاطبني:

> «وقد أسفر الانفجار عن وقوع عدد من القتلى في ضواحي بغداد، وتبنى تنظيم أسود السنّة العمل كرد على عمليات القتل التي قام بها أفراد أنصار آل البيت الشيعية الأسبوع الماضي»

غاب الرجل، وامتلأت الصفيحة خرابًا ونارًا.. أشلاءً ودمارًا.. لا لا! هذه ليست بغداد المأمون! هذه ليست الحضارة التي بناها المسلمون! هؤلاء شرذمة مجرمون، خوارج ملعونون، مغضوبٌ عليهم ضالون، لا معروفًا يعرفون، ولا بدِين يدينون! فركت النتوء الأحمر في طرف القضيب السحري فتلاشى وهج التلفزيون، كيف سأنام وبجواري هذه الصفيحة الملعونة التي تحمل مجازر المجرمين وهرطقات المجانين وقبلات الماجنين؟
أحتاج إلى غطسة! أحتاج أن أغسل ما علِق بي من أهوال هذا اليوم! تجوّلتُ في أرجاء مقصورتي، لو رآها المأمون لاشتعل غيرة ولقايضني بها قصره! يا ترى ما الذي يقبع خلف تلك الستائر؟ لا بد وأنه المرحاض؛ أزحتها و.. يا للهول! إنها شرفةٌ تطل على جنّةٍ مدهامة تحتضن بحيرة أمواجها متلاطمة اقتربتُ منها حتى ارتطمتُ بحائط الزجاج، زحزحته عن طريقي وهرعت مهرولاً حافي القدمين داميهما لألقي بنفسي في هذه البحيرة الثجّاجة الوهّاجة؛ قفزت، وأنا في الهواء تساءلت: يا ترى هل تكون أكثر عمقًا من مغطسي؟ اللعنة على هكذا أسئلة، تتلكأ ولا تأتي إلا بعد فوات الأوان! بالطبع هذه البحيرة الهائلة كافية لإغراق قبيلتَي كنانة وقضاعة بأكملهما! طرتُ في الهواء.. ارتطمتُ بالماء.. وبدأتُ رحلة

غوصٍ طويلة؛ لم تدرك أقدامي القاع! شعرت بهامتي العظيمة تجرجرني بثقلها للأسفل، حسنٌ يا إلهي، أظن أنني قد استنفدت جميع معجزات النجاة اليوم، أنا في انتظار ملك الموت الآن، فليقبض روحي هذه المرة ويخلصني من هذا الكابوس! هيا يا قابض الأرواح إنني أنتظرك! سأرتّل ما تيسر من القرآن في سري ريثما تأتيني..

يا أيتها النفس المطمئنة.. ارجعي إلى ربك راضيةً مرضية..

لم يقبض الملاك روحي، وإنما قبض كاحلي، وانتشلني من قاع المغطس، كبس صدري، وحبس منخري، والتقم فمي ينفخ فيه بعد أن كادت تفرّ منه الروح. لفظَت رئتاي الماء وشفطَت الهواء، وفتحتُ عيني.. وجحظت!

هذه المشعوذة الصهباء الشقراء تنفخ سحرها في جوفي! انتفضتُ من السحر، بل من شفتيها، بعثَتْ عفاريتها تعبَثُ في جسدي، سرت قشعريرتها في كامل بدني وتكوّمت في شفتي فتخدّرت ولم أعد أشعر بهما!

«جاحز؟ جاحز! صار لك شي؟!»

«أريد أن أموت، أريد أن أعود، أريد أن أستيقظ!»

«بعيد الشر عنك يا جاحز!»

«أعيديني إلى بغداد! أرجوكِ!»

«ما بينفع! رح يقبضوا عليك ويسجنوك!»

«من هم؟ ولمَ؟ أنا لم أرتكب جرمًا في حياتي! سوف أشكوهم للخليفة!»

«مافيش خليفة هون! مافيش بغداد!»

«لماذا؟! أين نحن؟!»

«السؤال مش وين! السؤال امتين؟ نحنا في ألفين وعشرين ميلادي، بعد عصرك بألف سنة على الأقل»

اللعنة! ما هذا الهراء؟! لقد جنّت المشعوذة الشقراء!

«ألف سنة! تبًا لك لقد كنت أرتع مع الجواري في قصر المأمون منذ سويعات!»

اقتربت بعينيها من عيني، ازدادتا احورارًا وهي تقول

«ما بتتذكر شي؟ أي شي؟»

مررت أناملها على رأسي، على الندبة التي تحيط بهامتي.

«ما بتتذكر هيدي العملية؟»

«لقد سقطتُ من بعير على جلمودٍ شجّ رأسي! أعيديني إلى بغداد واسألي أم عثمان!»

«تتذكر أم عثمان؟ تتذكر شكلها؟ طويلة؟ قصيرة؟ سمرا؟ بيضا؟ رفيعة؟ ناصحة؟»

اللعنة، لا أستطيع تذكر ملامح أم عثمان! ولا عثمان، ولا إخوة عثمان! مهلاً هل كان لي أبناء؟ اللعنة اللعنة لقد نفخت سحرها وأنستني كل شيء!

«جاحز، بغداد اللي بتعرفها اختفت، حياتك الحقيقية ابتدت اليوم»

«في أي بلادٍ نحن؟ تتحدثين بعربية مهجّنة ملحّنة معجّنة، ولكنني أفهمك»

«صدقني يا جاحز أنا حاولت أتعلم عربي فصيح بس كرمالك، لكن انت كلامك صعب علي وباحاول أفهمك»

سوف أسايرها في الحديث، وأتجنب البديع المحبّر والبليغ المعصفر كي تفهمني وأفهمها، وكي تفهموني أنتم أيضًا!

«نحنا بأبوظبي!»

ازدادت عيناي جحوظًا أبلهًا، لا أعرف ظبيًا ولا أباه وأمه! بحثَت بعينيها الناعستين في أعماق حدقتَي المتسعتين عن إجابةٍ لسؤالها.

«جاحز.. ما بتتذكر فريد الديباجي؟ القرمزان؟ ما بتتذكرني؟!»

«أنت الساحرة الزاهدة المرضعة التي تستلني من بين أنياب المنايا كلما لاح لي أجلي»

تأملتني مليًا.. ثم زفرَت..

«ما تتعب حالك يا جاحز، نام الليلة وبكرة بتعرف كل شي!»

طبعت قبلةً على وجنتي، فشعرتني مرة أخرى.. وقامت..

«لم تخبريني، ما اسمك؟!»

تبسّمت، تغنّجت..

«اسمي كارولينا، بس فيك تناديني كارول.. كارول فرناندو»

كدت أن أسألها إن كانت فعلاً مشعوذة، كبحتني لباقتي في آخر لحظة، هي مشعوذة على كل حال!

ابتعدَت عني.. ويا للهول، كنتُ غارقًا في وجهها ولم أرَ ما ترتديه! غشاءٌ يُرى باطنه من ظاهره، تناولَت صفيحتها السحرية، نقرتها فانطلق صوتٌ ملائكي.. يغني بالعربية.. ألقت بردائها الرقيق الرقراق؛ ويح الفاسقة لقد تعرّت! لا لم تتعرَّ، بقي عليها خيطان رقيقان معقودان.. يُستَران ولا يَستُران، قفزَت للمغطس، وكاد قلبي أن يقفز معها، راحت الحورية تركل الماء ذهابًا وإيابًا، يتلوى جسدها متراقصًا على الأنغام الملائكية: "نحنا والقمر جيران.." وجلستُ أنا على حافة البركة الفيروزية مدلدلاً أقدامي التي لم تبلغ حتى سطح الماء، متأملاً مشعوذتنا كارَوْلِيناء، مجترًا قشعريرة شفتيها، متفكّرًا في جنون هذا المكان!

-المغنطة الثالثة-

قصر المأمون.. وقصر القرمزان.. وقصر قيصر

«أم عثمان! كم اشتقت إليكِ!»

نعم إنها هي، تجدل ضفائرها أمام النافذة.

«أنت بيضاء نحيلة قصيرة إذًا! التفتي إلي.. دعيني أرى وجهك! ماذا عن عثمان؟ كيف يبدو؟ ألديه إخوة؟ أأنجبنا عثمان أم لم ننجبه بعد؟!»

لمَ لا ترد علي؟ لمَ لا تلتفت إلي؟

«لقد راودتني أضغاثٌ صارخةٌ مفزعة جليّة مروعة أنستني نفسي وآيستني من العودة إليكِ»

ردّت علي دون أن تلتفت بصوتٍ ذكوريٍ أجشّ وباللغة التي لا أفهمها قائلة "تبًا لك!"، ثم شدّت ضفيرتها فانخلع شعرها، ألقت به على وجهي وقفزَت من النافذة إلى نهر دجلة! مثلما فعلت المشعوذة!

أعوذ بالله! فتحتُ عيني! ما هذا؟! أكان كل ذلك حُلمًا؟ روادتني نفسي الأمّارة بالسوء أن أتلفّت كي أتأكد. فأبيْتُ وأغمضتُ عيني واعتصرتهما، ولكن نفسي اللعينة لم تدعني وشأني! هذا الفراش الوثير، ورائحة العبير، وصوت الخرير والعصافير لا تمت لبيتي بأي صلة. حسنٌ، سأتدحرج دون أن أفتح عيني، علّي أن أقع وأستيقظ! تدحرجتُ، وتدحرجتُ، ولم أصل لحافة الفراش بعد!

فتحتُ عيني، تبًا لي لازلتُ أحلم! اضطررت إلى الوقوف والسير لوهلة قبل أن أصل إلى حافة الأريكة، يا إلهي، هذا خُف! قفزت وغمست قدمي في وبَره المنكوش وعهنه المنفوش المطرّز بوسم القرمزان الذي يزين كل شيء في هذا المكان؛ تبخترتُ متهاديًا على غمام. تغوص فيه الأخامص والأقدام.

ما هذا؟! كتاب على المنضدة! انقضضت عليه، أضمضمه، أشمشمه، أقبّله! كمتَيّمٍ تيمم متَيّمتَه! نظرتُ إليه، اللعنة، عليه تصاوير مشعوذةٍ أخرى، زاهدة أيضًا.. زاهدة جدًا! نظراتها ساهيةٌ ماكرة، صورتها براقةٌ باهرة، وكأنها ترمقني من خلف زجاج. ما هذه الحروف المتقطّعة عليه؟ تبدو جرمانية أو إفرنسية، لقد أتقنتُ نصف ألسن أهل الأرض وأعجز عن قراءة كلمة؟! ڤوجوي؟ ڤوغو؟ أيًّا ما تكون.. نبشت الكتاب النحيل الرقيق المتعطّف، ما هذا! كله تصاوير! حسناوات زاهدات مرضعات، وحلي ومجوهرات، ودواب مصفحات! ألقيت به، اللعنة على هذا المكان! كل هذا الترف ولم أجد قِرطاسًا أسد به رمقي! لو امتلكت معشار هذا السحر لجلبت كتب جميع أهل الأرض، السابقين الأولين، واللاحقين الآخرين! ولاعتزلت الكون لأتمرغ بين صحائفها.

حسنٌ! كيف نفتح هذا الباب؟ محكم مصمت في وسطه كرةٌ معلقة من تنك. أمسكتُ الكرة، هززتها، دفعتها، لكمتها ركلتها، كدت أن أخلعها وفي النهاية استدارت فانفتح الباب. غرفةٌ أخرى مؤثثة بالمرمر والفضة، في جانبها مقعدان وفي قلبها مغطس. اقتربتُ من أحد المقاعد، جلستُ عليه، غير مريح! قمت أتفحّصه، ما هذا يالحمقي، لم يكن مقعدًا، وإنما بئر ماء صغير! رفعت غطاءه، غمست يدي وغسلت وجهي، توجهت للمرآة، أتأملني وأتغزلني؛ جسدي المنهك المتهالك يستحق بعض الدلال في هذا المغطس!

خلعت نعليَ، كشفت عن ساقيَ، ودخلت الحوض. كيف أملأ هذا الشيء بالماء؟ من البركة التي سبحَت فيها كارَوْلِيناء البارحة؟ وما هذه القناني المنمنمة؟ فتحتها، صببتها، تمرخّت بدهنها وتملّطت بزُلالها الزلِق المزفلط الدبِق المملعط اللزِق الملعبط. وعندما أعدتها دفعَت يدي عصًا فضية فأمطرت! يا اَلِلّه ما هذا! اللهم نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، اللهم لا تعجّل لنا نعيمنا في الدنيا! واستُجيبت الدعوة على الفور؛ تحول النعيم إلى حميم يشوي الجلود! وتحولت الدهون إلى بصاق يلهب العيون! تراقصتُ وتقافزتُ وترافستُ في ذلك القِدر كعجل عجّلوا بشيّه قبل ذبحه! أصبح كل شيء من حولي زلقًا بفعل البصاق اللعين، ترنّحتُ وأنا أعبث في عصيان الفضّة حتى توقفت الحمم! قفزت منه نافذًا بجلدي، تزلّقَتْ قدماي على المرمر فخررتُ ساجدًا سجدةً كادت أن تشج رأسي، ويا ليته شُج! لقد ظنّت دماء جسمي أن هامتي قد فُتحت فهرعت هاربةً إليها، ولكنها لم تجد المنفذ، فتجمعت وتكدست وتكورت وصنعت رأس جاحظٍ صغير معلقٌ على جبهتي. زحفتُ بجسدي كسمكة تتلوّى في العراء، قاصدًا خفي. ارتديته، وارتديت عباءة عِهنية معلقة على الباب، ومسحت بقايا البصاق اللزق عن وجهي وشعري، وخرجت. لقد تزاورت الشمس عن كبد السماء، رب اغفر لي النسيان والغفلة، وليّت وجهي جنوبًا وشرقًا متحريًا القبلة، وجمعت وقصرت ما تيسر لي من فرضٍ ونافلة.

انطلق صوت غناءٍ أجعر أجش ألدغ أحرش، أفزعني.. فتبعته إلى المطبخ.. أشعب يغني! لا أكاد أصدق أن فم ذلك الغول يجيد شيئًا غير المضغ! كارَوْلِيناء منهمكةٌ في إفراغ القراطيس، ارتدَتْ سروالاً أزرقًا باهتًا ممزقًا، أكثر ضيقًا وقصرًا وزهدًا من سابقه، يبدو أنها قصته لتتصدق بقماشه فلم يبق منه إلا ما يعتصر مؤخرتها ولا يكاد يتجاوزها؛ التفتَ إليها أشعب ملوّحًا بطنجرةٍ في الهواء:

«هل نستطيع أن نلتهم الفطيرة المطنجرة الآن؟»

«روق يا أشعب! وبعدين قلت لك اسمه پان كيك!»

أعتقد أن أشعب يستدرجها كي يلتهمها!

«جاحز؟! شوبيك؟ ليش وشك أحمر ومكوّر ومعوّر؟!»

الصهباء تجاريني في أسجاعي وجِناساتي وطباقاتي وفذلكاتي اللغوية، تعجبني هذه الزاهدة!

«لا عليك يا كارَوْلِيناء، فقط انزلقتُ على مرمر المغطس وكاد رأسي أن يُشج»

لا أظنها فهمت شيئًا، علي أن أدير دفّة الحديث بعيدًا عن هامتي المتورّمة:

«ويحك يا أشعب! منذ متى تطيق صبرًا عن التهام طعام أمامك؟»

«أنا ألتهم كل ما يؤكل أمامي عندما أكون جائعًا جدًا!»

«وهل شبعت قط؟!»

«أنا الآن جائع فقط! أريد أن أتذوق الفطيرة المطنجرة مع شرائح البيقون والعجة المخفوقة، الطعام يا جاحظ كالنساء، دلِّل تُدلَّل، غنِّج تُغنَّج!»

واستمر في تدليل طنجرته بتجاعير حنجرته. أخرجت كارَوْلِيناء قنينة من زجاج، فتحَتها واغترفت من جوفها طينًا لازبًا بسكين! وملّطت بها فطائر أشعب! فانهال لعابه وسألها:

«تود جليلة أن تسألك.. ما هذا الشيء؟»

«قول لجليلة هذه اسمُها شوكولاطاء نوتيلاء بالبندق»

أخرج أشعب طبقًا.. بل مائدة مصغرة، رصّ عليها فطائره المطنجرة، ومرّخها برحيق القيقب ولطّخها بطين النوتيلاء اللازب وألقت عليها كارَوْلِيناء ثمار العلّيق والزبد الذائب، وتناولت قطعة تتبّعتها نظرات أشعب الناقمة، كادت تبتلعها مقلتاه وهي في الهواء؛ ناولتني الفطيرة، تفوح رائحتها، ينفح دخانها، يتراقص علّيقها، ويتقاطر قيقبها..

«دوق الپان كيك يا جاحز»

تناولتُها، شممتُها، قضمتُها.. كان علي أن أنبّه مفرزات اللعاب قبل أن تصاب بالصرع وتعتصر لعابًا يُغرق فمي ويوجع أصداغي. لقمةٌ لُكتُها ولاكتني، لم أجد بُدًا من أن أدفع بالحروف بين طوفان اللذة والطين والقيقب والعلّيق واللعاب قائلاً:

«كم هي لذيذة!»

«يسلموا دَيّاتك يا أشعب!»

نظرتُ إليه، كان قد أجهز على كل ما في مائدته قبل أن تبلغ لقمتي الأولى حلقي، وعاد إلى الطنجرة يصنع المزيد من الفطائر ويغني لها. اقتربت منه، أرى دخانًا بلا نيران! مددت يدي باحثًا عن لهب.

«حذار يا جاحظ! ستحرق يدك! وإن احترقت سآكلها!»

ويح المشعوذة، عفاريتها ينفثون عبر هذه الصفيحة السوداء فينضج الطعام!

«أين جحا؟»

تنبّهت لاختفاء مدمن اليقطين.

«جحا عم يتشمس عالبيسين»

لم أعِ من رطنها شيئًا لولا أنها أشارت بعينها ناحية البِركة.

أعدّ أشعب وعفاريت كارَوْلِيناء الطعام، وأممنا بستان القصر، جلسنا حول طاولةٍ من سعف، رصّ أشعب الفطائر والبيقون والعجة والقناني، وانقض عليها، أما جحا فكان مرتميًا على قرصٍ يتهادى في قلب البحيرة، لا يرتدي سوى سرواله وعمامته وعِصابةً سوداء برّاقةً على عينيه، لا يُحرك ساكنًا، أظنه قد فارق الحياة من فرط الكوكاكولاء..

لا لم يلفظ اللعين روحه بعد بكل أسف! لقد تحركت يده، متجهةً إلى فيه وارتشف رشفةً من قصبته البيضاء الملتهبة، ثم نفث دخانها للسماء.

نظرت إليه كارَوْلِيناء، ذكّرتها نشوته بشهوتها، فأخرجت تنكتها واستلت قصبتها من علبتها والتقمتها بشِفَتها ثم أشعلتها وبدأت باستنشاق نيران السعير ونفث دخان الكير. ها هي تستدعي شياطينها..

«الدخان يجلب الشياطين؟»

ضحكَت ونفثت دختَاتها بوجهي ثم رطنت:

«إكسكيوز مي.. شو شياطين وما شياطين؟ هيدا دخان.. عادي، مثل صاحبك جحا ما بيدخن»

«أولم تجدي بخورًا بريحٍ أطيب من هذا لتستنشقيه؟ وكأني أشتم جيفةً باليةً تحترق!»

«أنا ما بادخن منشان الريحة، بادخن من شان هيدا يركز»

قالتها وهي تشير بإبهامها نحو هامتها وبجواره القصبة المشتعلة بين سبابتها ووسطاها تكاد تحرق خُصَل شعرها، مدتها إلي:

«بدك تجرب؟»

يا أيها الشيطان، إنني أراك! تستدرجني خطوةً خطوة! جعلتها تغريني البارحة باحتساء الكَوكاكَولاء واليوم تريدني أن أنفث معها كيرها.. ولكن هيهات هيهات أيها الشيطان اللعين!

«جرب مرة، ما بتخسر شي.. كرمالي يا جاحز»

حسنٌ، أيها الشيطان، وفر خطواتك، سوف أنفخ الكير! وأنتم يا من تقرؤون، لا تشمتوا بي، فلو رأى أحدكم تغنّج هذه الزاهدة ومضغها للكلمات لقبل منها سكينًا ينخر بها صدره وينتزع قلبه ويناولها إياه دون أن تخبو ابتسامته البلهاء! أمسكتُ بالقصبة، ملطخَةً بشفاهها من جهة، متوهجة من الأخرى، قربتها محاذرًا أن تحرقني، واستنشقت.. إلهي.. لك الحمد والشكر والعرفان.. على ابتلائك وتعجيل عقابك لي في الدنيا، علّي أتخفف من أثقال سيئاتي في الآخرة. لقد نلت عقابي في لحظتها، لا أعرف ما الذي دخل جوفي عندما استنشقت القصبة، كأن جنيًا انحشر داخل صدري ولم تسعه رئتاي فانبث من بلاعيمي وخياشيمي وحلقومي صارخًا مكحكحًا مترنحًا. سعلتُ القصبة اللعينة ودلقت علي كارَوْلِيناء الماء وناولتني الكوب:

«اشرب يا جاحز اشرب.. اسم الله عليك.. هيدا أول مرة بس بيصير هيك وبعدين بتتعود»

مشعوذة تسمي علي الله! أجبتها بعد أن التقطتُ بعض الأنفاس:

«لن يحصل "هَيْكٌ" بعد الآن!»

أشعلَت قصبةً جديدة.

«لا يليق بحسناء مثلك نفث الكير، دعي ذلك للأوغاد كجحا وأمثاله»

«إذا متضايق باطفيها وبجرب ما أدخن قدامك»

«أنا فقط متحسّرٌ على كل هذا الجمال أن يغطيه الدخان الكريه»

«أول مرة تتغزل فيني يا جاحز، في العادة الشباب بيغازلوني من أول لحظة، وانا معك يومين ما فكرت تغازلني لهلّأ!»

سحقًا، ماذا ستقول لو علمت أنني غازلت بقرةً كادت أن تسممني بريح إبطها؟ وإن يكن، سوف أنكر وأتمنّع.

«أغازلك؟ أنا؟ هذه مجرد دماثة ولباقة، جمالك يا كارَوْلِيناء مقبول على

كل حال»
«جمالي مقبول؟ يكون بعلمك أنا ملكة جمال پورتريكو ألفين وستطعش، وملكة جمال الكون ألفين وسبعطعش! وبعدين شو هيدي كارَوْلِيناء ومارَوْلِيناء؟! أنا اسمي كارولينا!»
«كارَولينة؟»
«كارولينا! كارولينا! بلا "هاء" ولا "همزاء"! ناديني كارول!»
لقد أغضبتُ الصهباء، زفرَت دخانها ثم مدت يدها إلى مؤخرتها، أخرجت صفيحةً صغيرة وناولتني إياها.
«هيدا إلك!»
قلّبتُ الصفيحة بين يدي، هذه الصفائح السحرية في كل مكان! وبكل الأحجام والألوان! ولكن هذه تختلف، توسطت جمجمة القرمزان المذهبة البارزة إحدى جهتيها.
«ما هذا؟ محاولة جديدة لتسحريني؟»
تلعثم دخانها بسعلتها أجبرتها على التخلي عن غضبها وإطلاق ضحكتها المميّعة:
«أسحرك؟!»
«معذرةً.. أولستِ مشعوذة؟ تستحضرين الجان فيتشكلون على الجدران وينفثون النيران؟»
أطلق جحا ضحكته الغير مبررة وهو مقبلٌ علينا بمشيته المترنّحة وأكتافه المائلة المجنّحة يتقاطر منخاره المكعبر ماءً وجبينه المقعر غباءً:
«هاه أيها الجاحظ، هل تمكّنت من هذه الحسناء المتمنّعة؟»
«ويحك أيها اللعين!»
«متمنّعة؟ شو يعني متمنّعة؟»
كدت أن ألكم منخاره وأحطم ما تبقى من أسنانه وحروفه بالكاد تعتصر نفسها بين ضحكاته وهو يمسح القطرات عن أذنيه ويجيبها:
«الفتاة المتمنّعة يا كارول هي التي وإن قالت "نوءٌ نوء" فهي لا تعني سوى "يسٌّ يس"»
«Excuse me?! »
«صه يا قليل التهذيب، يا قليل الأخلاق، يا قليل الحياء، يا قليل المروءة، يا قليل النخوة، يا قليل كل شيء!»
كنت ألكم وجهه فيزداد ضحكه!
«وما يضير كثير الضحك إن قل لديه كل شيء آخر؟!»
«فلتصمت إذًا! اسكت! اخرس! توقف عن الضحك!»
«ويحك! نحن نحيا بالضحكات يا هذا! الأنفاس التي تخرج بلا قهقهة أنفاسٌ مهدرة! تُهرمنا وتُذوينا!»
«من يراك وأنت تضحك يظنك أسعد من على وجه الأرض، ولست سوى

بائس متخاذل متآكل!»

«لقد أنهيت بكائي في أول يوم قدمت فيه إلى هذه الدنيا، فلا تتعجب من ضحكي على كل يومٍ يبعدني عنها! السعادة يا صديقي هي ألا تبكي إلا على ضحكة فاتتك»

أفلتّ وجهه، هذا هو اللعين الوحيد الذي لم أطق مقارعة حُجته ولا مبارزة فذلكته؛ دفعتُه، مسحت لعابه ونخامه عن يدي ومددتها إلى كارول:

«دعيك من هذا المخبول، أتقولين أن هذا هو عفريتي الشخصي؟!»

«هيدا موبايلك يا جاحز! ما حدا غيرك يقدر يفتحه!»

تناولَت الصفيحة، رفعتْها أمامي، وأمسكَت بإبهامي، أغمضتُ عيني وتعوذت بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة..

«افتح عينك يا جاحز، الموبايل لازم يتعرف على وجهك وبصمتك في نفس الوقت»

فتحتُ عينيَ، وما إن أبصرت انعكاس جحظتي على الصفيحة المصقولة حتى اشتعلت! اللعنة سحرها مربوط بخطوط بناني وعيوني! برزَت من بين السواد جمجمة القرمزان الذهبية؛ وعليها قلب الكالة القرمزية وتحتها خُطّت عبارة برّاقة: "وما الحياة إلا رقصةٌ عمياء بين الحب والموت"، تنهّدَت كارول وهي تقول:

«قلب اللال علامة الحب، وجاروف الكالة علامة الموت، الجمجمة موت مزخرف بحب، والقرمزان جمع الموت والحب في شعاره! الحياة هي رِقصة الحب والموت»

ما لبثَت جمجمة القرمزان أن تلاشت وحلّ محلها شيطاني الوسيم الممشوق يرتدي حلّةً حمراء كالحميم، كبّلت الأغلال رسغيه وصفّدت السلاسل كاحليه، بادرنا بضحكةٍ هستيريةٍ مدوية!

«لا أكاد أصدق! أنت على قيد الحياة يا جاحظ!»

«نعم أنا على قيد الحياة! من أنت أعوذ بالله منك؟!»

لكزَتني كارول وقالت:

«ما بيسمعك، هيدا فيلم مسجل»

اشرأب جحا بعنقه، واقترب أشعب بعد أن لعق آخر قطرة قيقب من القنينة، وواصل شيطاني حديثه بلسانٍ عربيٍ فصيح:

«لا أعلم إن كان جحا وأشعب ٍلا يزالان على قيد الحياة أيضًا، في الحقيقة لست متأكدًا إن كنتَ أنت على قيد الحياة أيها الجاحظ أم أن الإف بي آي قد اقتلعوا عينيك وبتروا إبهامك كي يفتحوا رسائلي. بدايةً اسمحوا لي بتقديم نفسي: أنا القرمزان!»

كما توقعت.. هو عفريت من عالم الجان!

«القرمزان فريد ابن فريد الديباجي!»

أطلقَت كارول تنهيدةً من أعماق جوفها، أغواها العفريت الوسيم الذي واصل:

«إن سار كل شيء كما خططت له، فلا بد وأن كارول قد أحضرتكم من

استوديو ليالي بغداد إلى عريني المتواضع، وأن اليوم هو غرة إبريل من العام ألفين وعشرين للميلاد؛ يا إلهي! اليوم هو عيد ميلادي الخامس والأربعين، هاپي بيرث داي تو مي، هاپي بيرث داي تو مي»

بدأ المأفون بالغناء، وانهارت كارول بالبكاء، وتابع بصوت متحشرج:

«اليوم مضت خمس وأربعون سنة على ولادتي، وسنة على وفاتي، انتظروا! ما هذه الدراما البليدة؟! فلنحتفل ونحتسي نخب هذه المناسبة السعيدة! لقد رسمتُ لكم رحلةً لطيفة لتستمتعوا بكل ملذّات الحياة التي لم تخطر على قلب أي منكم، ستستمتعون بها رغمًا عن أنوفكم، وإلا فسوف تلقون حتفكم بطُرق شنيعة غالبًا!»

قالها ملوحًا بيديه المكبلتين دون أن تفتر ابتسامته، أرعبني اللعين وواصل هذيانه:

«كم وددت أن أستقبلكم بنفسي، ولكن اطمئنوا سوف نلتقي بكل تأكيد في قلب الجحيم! كما ترون أنا ههنا، مكبّل الأيادي والأقدام، سجين أنتظر تنفيذ حكم الإعدام، سوف يقتادوني في أي لحظة إلى غرفةٍ منمنمةٍ معقّمة، ليضعوني على سريرها ويربطوني بالأحزمة، ومن ثم يحقنوني بمحلول الپنتوباربيتال كي أفقد وعيي، يليه بروميد البانكرونيوم كي تصاب جميع عضلاتي بالشلل، وأخيرًا كلوريد الپوتاسيوم كي يخرس قلبي إلى الأبد!»

«يا إلهي! أهذا صحيح؟ هل سيقتلونه؟! ألا يمكننا أن نفعل شيئًا لإنقاذ هذا اللعين المسكين؟!»

أشارت إليّ كارول بيد، ومسحت دمعتها بالأخرى، وواصل المارد المكبّل ضحكاته وعباراته:

«لا أعلم إن كان هذا التسجيل سينجح في الوصول إلى سحابة قمري الاصطناعي قبل أن يوقفوه ويُتلِفوه، أتمنى أن يكون من يشاهده الآن هو الجاحظ وليست كتيبة الإعدام الفيدرالية أثناء احتفالها بالقضاء علي. اسمعني جيدًا أيها الجاحظ، لقد أعددت لك لعبةً بسيطة أتمنى أن تجتازها، هناك ثلاث سِتّات، ثلاثة أرقام متسلسلة عليك إيجادها وإدخالها بشكل صحيح في هذا الجهاز، وإن نجحت فسوف تعود إليك حياتك! وسيمكنك التحكم في ثروتي التي تجاوزت ثلاثمئة مليار دولار!»

التفتُّ نحو كارول وسألتها:

«ما هو المليار؟ ما هو الدولار؟»

لكزتني فخرست واستمعت:

«ليس ذلك فحسب، بل سيصبح سوق تجارة الأسلحة العالمية تحت تصرفك! سيمكنك التحكم في مئة وثلاثة وعشرين قمرٍ اصطناعي عسكري طورتها في معاملي وبعتها للحمقى الذين يظنون أنهم

سيقضون علي بسهولة بعد أن يحصلوا عليها، ستتمكن من تعطيلها لتتساقط من السماء فوق رؤوسهم، وستنتهي عندها عدة حروب مشتعلة وأخرى باردة، وستخسر مجموعة من الدول صفقاتها الحربية وستتدهور مواقفها السياسية، وسيتحول عدد لا بأس به من أولئك الأوغاد زعماء العصابات رؤساء الحكومات إلى باعة خردوات. أما إن لم يحالفك الحظ في لعبتي، وفشلت في المحافظة على هاتفي واكتشاف أرقامي، فلن تلبث أن تلحق بي، وسيستمر البشر في تدمير أنفسهم بحماقاتهم المتلاطمة المتفاقمة طردًا مع جشعهم وفزعهم وطمعهم وهلعهم، وسنحتسي نخبنا أنا وأنت في قلب الجحيم ونحن نشاهد الأوغاد يُفنون أنفسهم بأيديهم من أجل المال والسلطة»

تلفّت حوله مرتبكًا وكأنما يخشى أن ينقض عليه أحد من خلفه، وهمس:

«لقد قرروا التخلص مني بأسرع وقت عندما لاحظوا أن شخصًا مثلي أصبح يتحكم بتجارة الأسلحة أكثر منهم؛ بالرغم من دهائي وتخطيطي لكل خطوة بحذافيرها، إلا أن الملاعين تحركوا بسرعة وقبضوا علي ليعدموني! ولهذا يجب أن تكونوا أسرع منهم قبل أن تلاقوا مصيري! اسمعوني جيدًا، إن حالفكم الحظ.. الكثير من الحظ، فستكتشفون الأرقام وستصلون إلى البروفيسور سايمون ليحرركم من تنويمكم المغناطيسي ويعيد إليكم ذاكرتكم المفقودة، وستستمتعون بثرواتي الطائلة، وتوقفون جميع الحروب الطاحنة؛ ولكن إن أخفقتم ووصلوا إليكم.. فستجدوني بانتظاركم في غياهب الجحيم! فقط ابحثوا عن الثلاث ستات: ستجدون الستة الأول على دماغ الجاحظ، والثانية على قلبي، والثالثة على شفـ..»

انقطع صوته واضطربت حركته إذ هجم عليه حرّاسٌ مدجّجون كالزبانية الذين دمرّوا بغداد، سمعت صرخاته الأخيرة وهم يطرحونه أرضًا:

«أحبك يا كارول.. سيند.. ديليت»

أظلمت الصفيحة في يدي، وغرقنا في صمتها وسوادها وشهقات كارول المنخرطة في بكائها، حتى قاطعنا تصفيق جحا البطيء. اللعنة عليه، وجد أخيرًا من يضاهيه في خَباله! رفع جحا عمامته ولوح بها وخرجت حروفه من منخره المعقوف:

«أرفع لك القبعة أيها القرمزان أينما كنت!»

كفكفَت كارول دموعها وهي تقول:

«لازم ننفذ كل شي! لازم نعرف الأرقام السرية»

«أيستطيع أن يضرّنا؟ ألم يقتلوه؟!»

«فريد مات، لكن الإف بي آي بتنبش علينا! أول ستة أرقام في دماغك يا جاحز! حاول تتذكر!»

لقد طفح كيلي من سيل المجانين هذا! سأعود إلى بغداد، وأشكوهم إلى

المأمون كي يحجر على مجنونهم ويقيم الحد على ساحرهم! وقفتُ جافلاً صارخًا:

«هيهات! لن أمضي معكم في هذا الهراء!»

«جاحز، لازم ننفذ خطـ...»

«فليذهب القرمزان إلى الجحيم! فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم! أنا بالله منكم عائذ، وإلى بغدادي وقراطيسي وأقلامي ومدادي عائد!»

تركتهم واجمين وانطلقت أجرجر ردائي القطني وأطرقع حذائي العهني، وخرجت من بوابات ذلك القصر لا ألوي على شيءٍ سوى أن أصل إلى بغداد، وأشكو المأمون، وأقرأ كتبًا حقيقية!

غادرت القصر فبادرتني السروج الثائرة، تعميني بمصابيحها وتنهرني بزئيرها وهي تمرق من أمامي وخلفي وأنا أحاول جاهدًا أن أعبُر من بينها، ليتها لفحتني وأنهت كوابيسي. أبصرتُ خانًا صغيرًا جدرانه من زجاج، دخلت فنظر إلي التاجر شذرًا وسألته:

«كيف أذهب إلى بغداد يا هذا؟ أين قصر المأمون؟»

نظر إلى متبلدًا ثم نطق بلسان لا أفقهه:

«وات؟ آر يو كريزي؟ دو يو سبيك إنقلش؟ أرابيك؟»

ظللت أردد للأعجمي:

«بغداد، بغداد!»

فرد علي بعربية محطّمة:

«شنو هذا بغداد؟ بغداد مال عراق، إحنا هني في أبو ظبي! إنت هذا واحد نفر مجنون؟ سكران؟!»

هو أيضًا يقول إننا في أبي ظبي! هل صدَقَتني الساحرة عندما قالت أن بغداد على بعد ألف ميل؟ وألف عام؟! لا لا مستحيل!

جلستُ على عتبة الخان أمام الطريق قبل أن يطردني التاجر، مرّت السويعات وغابت الشمس وأنا متيبّسٌ أتأمل الصهاريج المدولبة المسرّجة وهي تمرق أمامي كالشهب..

عرفت أن دموعي تنساب عندما بدأت تهطل على أصابعي وأنا أفركها بحِيرة وحُرقة؛ ولمَ أبكي؟ وعلامَ أنوح؟ على من مات وبَلي قبل ألف عام؟ على بغداد التي استحالت جصًا منبثًا وهباءً منتثرًا؟ أم بغداد التي عاث فيها المجرمون المتنطعون وأنهكوها تقتيلاً وتفجيرًا؟ لا أكاد أذكر أحدًا من أهلي ولا صحبي، لا أذكر سوى مكتبتي وكتبي؛ علي من أبكي إذًا إن لم يكن لدي من أبكيه وأنعيه؟ أنعي نفسي؟ وما يدريني أنني أنا؟ من أسأل؟ ولمن ألجأ والجميع هنا مجانين؟

لا! لا يُعقل أن يفقد كل البشر عقولهم ويبقى لبّ أبي عثمان في محلّه! أعتقد أنني جننت، لقد صدق تاجر الخان الأعجمي، أنا "هذا واحد نفر سكران مجنون"!

هذا ما يشعر به المجانين إذن! يجدون أنفسهم في عالمٍ غير عالمهم، وبين أناسٍ غير أناسهم، يهذرون ويهذون ولا يعي هذيانهم أحد؛ يهيمون ويتيهون ولا

يراعي تيهانهم آحد. كل مجنونٍ هو عاقلٌ وجد نفسه في غير عالمه!

«جاحز.. ارجع معي.. پليز!»

وجدتُ أناملها على أناملي فجأة، لم أشعر بحضور كارول وجلوسها بجواري، هدَأ روع أناملي المضطربة بين أكناف كفها ولكنها مدينةٌ لي بتبرير كل هذا الجنون!

«لن أتزحزح من هنا حتى يأتي حرس أمير المؤمنين، أو تخبريني بكل شيء!»

أخرجَت لي صفيحتها دون أن تتكلم، أشعلَتها فظهر مشهد لغرفة بيضاء تتوسطها أريكة عليها رجلٌ ممدّد مضمّد مغمّد، دخل عليه عصبة يرتدون السواد، يترأسهم.. بل تترأسهم سمراء حادةٌ متجبّرة متنمّرة. تمتمت كارول:

«چيسيكا چوهانسون الملقبة بالعميلة چي، أشرس عميلة فدرالية على سطح الأرض، هي اللي قبضت على القرمزان»

تابعتُ المشهد، بدأت تلك اللبؤة بسؤال الرجل المضمّد:

«فريد فريد الديباجي، أتعرف كم تهمةٍ موجهة لك؟»

بدأ المضمَّد بالضحك، اللعنة هذا هو المأفون الذي أنقذنا وتلقّى طلقات العصي النارية، كنت أظنه يحاسَب في قبره الآن، ولكنه لم يلفظ روحه بعد! قاطع فريد العميلة چي ساعلاً:

«تهمة الدفاع عن برنامجي وفريقي!»

«التستر على أخيك المجرم فريد فريد الديباجي.. القرمزان، ومهاجمة قوات الإف بي آي الخاصة و..»

قاطعتها ضحكته الهستيرية فسكتت، انتظرته حتى ينهيها عن آخرها وجاهد ليخرج كلماته بين سعلاته وقهقهاته:

«أريني دليل الإدانة، أريد أن أشاهده بنفسي!»

أشارت لأحد رفاقها، فعبث بالشاشة المعلقة على الحائط لتبث مشاهد هجوم فريد على القوّات وتلقّيه للطلقات، قام المجنون مترنحًا نحو الشاشة والحبال المثبتة في ذراعيه تشده إلى سريره، تأهّب الزبانية، أشهروا مواسيرهم نحو رأسه وهمّوا بإعادته ولكن العميلة چي أشارت لهم بالابتعاد. اقترب من الشاشة وراقب جسده المتراقص مع الطلقات النارية وأطلق ضحكاته الجذلة قائلاً:

«تمامًا كما أخرجتها في مخيلتي! هذا هو أعظم عمل سينمائي! فليشهد التاريخ أنني أول من يُخرج مشهد قتله! ولكن رجالك الحمقى أفسدوه، كل هذه الطلقات ولم تصب إحداها رأسي ولا قلبي؟! أين تدربون هؤلاء المرتزقة؟!»

زمجرت العميلة چي، تناست ضماداته وأمسكت بتلابيبه وهي تصرخ:

«اعترف! أين فريد؟!»

«تهددين ميت؟ كي يدلك على مكان أخيه الميت؟! ألا تعلمين أنني أنا الذي قدمت البلاغ كي تهجموا على موقع التصوير وتقتلوني أيتها البلهاء؟ لقد أعددت خطة إعدامي في أروع مشهد أكشن في التاريخ

قبل أن يفسده جنودك البُله! الشيء الوحيد الذي يهوّن علي بقائي على قيد الحياة هو رؤية وجهك يتمزّق غضبًا الآن!»

هزّته بعنف، بدأت ضماداته تصطبغ باللون الأحمر بالتدريج وهي تزمجر:

«ماهي علاقة القرمزان بالجاحظ؟ هيا تكلم!»

دفعها عنه وألصق رأسه بالشاشة، بقّعها بدمائه المتدفقة من فمه وواصل ضحكه المتقطع:

«اخرسي، دعيني أستمتع بلحظات وفاتي! إن أردتِ شيئًا من القرمزان فاذهبي واسأليه؛ انبشي قبره وسيخبرك بكل شيء!»

انطلقت في المكان الصافرات المستنفرة ممتزجة بقهقهاته المتقهقرة وشهقاته المستنثرة فهبّ عددٌ من الممرضين يحاولون تطبيبه ورقيته؛ انتهى المشهد، وتنهّدت كارول:

«فريد فريد الديباجي المخرج، أخو فريد فريد الديباجي القرمزان مات مبارح! قدرنا نفك تشفير كاميرات المراقبة بالمستشفى، وأخدنا هيدا التسجيل»

«وما شأني أنا بكل هذا؟ ما شأني بالمجانين فريد ابن فريد وأخيه فريد؟»

«جاحز انت مش فاهم الوضع! ما في وقت نضيعه»

«إذًا فهّميني الوضع ولا تضيعي المزيد من الوقت! أخبريني من هو هذا القرمزان؟ وما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ وكيف أعود إلى حياتي ودياري؟»

زفرت أمام عنادي وتيبُّسِ رأسي، وقررَت أن تُبدِ لي ما يسوؤني:

«جاحز، بغداد اللي كنت عايش فيها كانت تمثيلية، وكل اللي فيها ممثلين! مشروع إنتاج برنامج واقعي لعصر المأمون. المشروع من فكرة وتنفيذ المخرج فريد فريد الديباجي، أخو القرمزان فريد فريد الديباجي»

«لا تكذبي يا هذه! لقد عشت وترعرعت في بغداد، وقرأت كل ما حوته دار الحكمة وكتبت مئات الكتب! كل هذا حلم؟!»

«بيتهيأ لك يا جاحز، يو آر پيرمينانتلي هيپنوتايزد! إنت تحت تأثير تنويم مغناطيسي دائم!»

«تنويم؟ مغناطيس؟ أنا متمغنط؟!»

«إنت منتا الجاحز! الجاحز الحقيقي مات من ألف سنة!»

جحظت! حتى كادت مقلتاي أن تصيب مقلتيها!

«ويحك! هأنذا أمامك، حيٌّ، أتنفس وأتكلم وأجحظ!»

«إنت بتمثل دور الجاحز، جحا وأشعب كمان منومين مغناطيسيًا مثلك، المخرج فريد فريد خلاكم تدرسوا سيرة الجاحز وجحا وأشعب وتقرأوا كل اللي انكتب عنهم، وبعدها قعّدكم مع البروفيسور سايمون سيمينز مبتكر التنويم المغناطيسي الدائم، وأقنعكم بأدواركم ومن يومها وانتو

عايشين في بغداد المزيّفة بين الممثلين»
أخرَجت صفيحتها وأدارت مشهدًا لبغداد التي أعرفها، ولكنها مكتظة بأبناء هذا العصر، حرفيين يعلقون آلاتهم ويثبّتون مصابيحهم ويصبغون حيطان الجص وآخرين يرتدون العمائم وعباءات العرب فوق ملابسهم ويُلصقون الشوارب واللحى على وجوههم المرداء، ويتحدثون بلغات ولهجات لا علاقة لها ببغداد، رأيت المأمون وحوله الفتيات يُلبسنه حُلّته ويُلصقن لحيته على وجنته، ويدهنَّ جبهته ويمرخن بشرته وهو ممسكٌ قرطاسًا ويتحدث للهواء:
«ألقوا إليه بصُرّة فيها ألف دينار من ذهب!»
ثم يقهقه قهقهةً تشقُّ فاه، ويستلقي على قفاه قبل أن ينادونه:
«جاهز أستاذ جمال؟ التصوير بيبدأ بعد عشر دقايق»
اللعنة اللعنة اللعنة! لا بغداد! لا مأمون! لا عثمان ولا أم عثمان!.. ولا جاحظ!! وضعَت صفيحتها جانبًا وواصَلت:
«المخرج فريد، والقرمزان فريد أخوان من أب: فريد الديباجي، رجل أعمال لبناني، تزوج السيدة نهاد جبران وخلّف منها ابنه وسماه فريد على اسمه، امتهن فريد فريد الإخراج، ووضع جنونه في مشروع ليالي بغداد»
«وماذا عن القرمزان؟!»
«فريد الديباجي الأب كان يعيش حياة مزدوجة، رجل أعمال في الشرق الأوسط، وزعيم أكبر منظمة سرية تتاجر بالأسلحة في المكسيك؛ كان متزوج السيدة ماريا أليخاندرو وخلف منها ابنه الثاني وكمان سماه على اسمه: فريد فريد الديباجي؛ تخيل غصب مرته اللبنانية ومرته المكسيكية عالولادة بعملية قيصرية بذات النهار، بيوم عيد ميلاده.. واحد أبريل»
«اللعنة عليه، أورث ابنيه اسمه وجنونه ويوم ولادته!»
«وورّث إمبراطورية تجارة الأسلحة بعد موته لابنه فريد في المكسيك اللي لقب نفسه بالقرمزان»
اللعنة على هذا الفريد النرجسي المأفون، اللعنة على جميع الفرائد! فليذهبوا إلى الجحيم قاطبةً! قاطعتُها:
«وأنا! من أنا؟! إذا لم أكن الجاحظ فمن أكون؟! أليس لي أهل وأبناء؟ أين هم؟ كيف أعود إليهم؟!»
«البروفيسور سايمون سيمينز هو الوحيد اللي بيقدر يفيّقك من التنويم المغناطيسي وترجع لك ذاكرتك»
«فلنذهب إلى هذا السايمون إذًا!»
«لازم نمشي على خطة القرمزان حتى نوصل لسايمون قبل ما نوقع في قبضة الإف بي آي، أو الإنتربول! العميلة چي عم تنبّش ورانا وممكن توصل لنا في أي لحظة!»
ألقت علي هذه الصاعقة الصادمة الهادمة وحكت لي هذا الجنون الذي لا يطيقه

جَنان!
أنا لست أنا! أنا واهمٌ متمغنط! وجحا وأشعب متمغنطون أيضًا؛ نحن دمىً بائسة مُعدمة بيعت حياتها للفريدين الديباجيين الملاعين كي يلهوا بنا في لعبتهم!
أنا مجنون، ضللت طريقي عن عالمي، بديلي ودليلي الوحيد هو هذه الساحرة حتى أعود لبغدادي.. أو أعود لرشدي.
«وأنت يا كارول، ما شأنك بكل هذا؟ لم تخاطرين بنفسك من أجلي؟ لم لا تدعين الزبانية ينالون مني وتنفذين بجلدك؟»
أطرقت وتمتمت:
«كرمال بابا.. وكرمال القرمزان»
استنشقت دموعها واستعادت صرامتها وواصلت:
«أنا حكيت لك كل شي، وإنت حر، ياريت تصدقني وتجي معي، لكن ما رح أجبرك»
قالتها وقامت من جواري فأمسكْتُ بخنصرها وبنصرها وتبعتها كطفلٍ يخشى أن يتيه من والدته بين الزحام، وعدنا أدراجنا إلى قصر القرمزان.
ولجنا القصر، استقبلنا شخير أشعب وهتاف جحا:
«هل وصلتَ إلى بغداد؟ هل بلّغت سلامي للمأمون وأبي الجحجاح؟»
لطمتُه فتقلقلت عيناه. وبادرتني كارول:
«القرمزان قال الرقم الأول براسك، حاول تتذكر يا جاحز پليز!»
«اللعنة! عجزت عن تذكر أم عثمان تريديني أن أتذكر أرقام القرمزان؟!»
قمت أدور حول نفسي، أفرك هامتي وأدقدقها في الحيطان علّ مخي يعتصر ما بداخله ويتخلخل فتتناثر تلك الأرقام اللعينة!
«قال على دماغ الجاحظ ولم يقل في دماغه أيها الحمقى!»
فعلاً صدق جحا! حملتني كارول، نعم حملتني من أذني، علقتني من هامتي وأنا أرفس برجلي في الهواء وتأمّلتني مليًا، ثم ألقت بي كجراب سويق على كتفها، أزاحت المنضدة ورمتني على الأريكة، نزعت قبقابها وتربّعت أمامي حتى لامست ركبتيها ركبتَي وواصلت حملقتها وتمرير أصابعها على ثنايا رأسي.
لم تجد الأرقام، فسحبَت هامتي ودفنتها بين ثدييها وراحت تنبشها، وكدت أختنق من الرهبة والرعشة والحرج والعطر، ما هذا؟! زيزفونٌ أم زعفران؟ جِلنارٌ أم بيلسان؟ أم أن عرَقها يقطرُ عطرًا وطيبًا؟ بالأمس تأبّطتني وبركت علي البقرة، واليوم قبّلتني واحتضنتني الحورية الزاهدة المرضعة ملكة جمال الأكوان!
«لقيته! لقيت الرقم! زيرو، وَن.. زيرو، فور.. وَن، ناين»
رفعتُ رأسي، والتقطتُ أنفاسي.
«أين وجدتيه؟!»
«مكتوب بأثر خياطة العملية!»
شردَت بعينيها المغرورقتين قليلاً ثم هتفَت:
«هيدا تاريخ اليوم اللي أعدموا فيه فريد! واحد إبريل ألفين وتسعطعش!»

أجابها جحا بضحكته اللّزجة:

«الأول من نيسان، يوم الهراء العالمي، إنه يتلاعب بنا!»

«كانت أمنيته الأخيرة انهم يأجلوا يوم إعدامه أسبوع منشان يوافق عيد ميلاده!»

اعتصرت كارول كلماتها بحزن ثم تناولت إصبعي ووضعتها على الصفيحة مرة أخرى واشتعلت حالما نظرتُ إليها، وظهرت جمجمة القرمزان أسفلها خانات فارغات للثلاث ستات.

مدّت كارول إصبعها المرتعش إلى الستة الأولى، وبدأت بإدخال الأرقام التي وجدتها محفورة على نتوآت شجّة رأسي: صِفرٌ، فواحدٌ، فصِفرٌ، فأربعةٌ، فواحدٌ، فتسعة.. وانتظرنا هنيهةً كدهر!

هل كان الرقم صحيحًا يا ترى؟ توهّجت الخانات وتحولت الأرقام من اللون الرمادي الباهت إلى اللون القرمزي البرّاق، وما لبثنا أن سمعنا صوت تحطم من داخل القصر، لقد وصل الزبانية ليحملونا إلى الجحيم!

ركضَت كارول وركضْتُ، لقد سقطت صورة القرمزان العاري والهزبر الضاري من تلقاء نفسها! وبرز من خلفها بابٌ حديدي صغير مرقّم فتحته الشياطين ببطء، تقدّمت إليه كارول، وأخرجت من قلبه قراطيس تتأملها وتقلّبها وعيناها تجحظان:

«مجنون يا فريد! مجنون مجنون!»

«ما هذه القراطيس؟»

«مصاري وجوازات وتذاكر»

«أقسم أنني لم أفهم شيئًا»

«مصاري يعني فلوس، نقود، وجوازات وتذاكر منشان نسافر.. لازم نسافر الليلة على أميركا!»

«إلى مكانٍ فيه طعام؟»

.. حضر أشعب

«إلى مكانٍ يُشبع من لا يَشبع!»

.. وحضر جحا

«هيدي تذاكر على لاس ڤيغاس وحجز بسيزر پالاس»

«هاه ما هذه اللاس ڤَيقاس؟ وما هذا السَيزر بالاس؟!»

عقّب جحا ضاحكًا:

«قصر قيصر يا جاحظ!»

«قصر قيصر؟ أوليس ذلك في رومية؟ أو القسطنطينية؟!»

«بل في أميركا في لاس ڤَيغاس، ذي ميدوز، المروج والرياض»

«لاس ڤيغاس بأميركا، ما خصّها بالرياض!»

قالتها كارول معترضة فتدخلتُ بينها وبين جحا:

«ويحكم! أوتروني أحمقٌ مثلكم؟! أقول لكم بغداد وتقولون أميريكاء؟! وإن صدق القرمزان فلا حاجة لي بأمواله وألاعيبه! لسنا دمىً في لعبة هذا القرمزان المأفون يأرجحنا كيفما يشاء!»

لا يبدو أن أشعب وجحا يكترثان بأي شيء، فالأول لا يزال شاردًا يفكر في جليلة وما يملؤها، أما الثاني فقد أطلق ضحكته واقترب بوجهه الكريه مني وكاد أن يخترق جحظتي بمنخاره المعقوف ومقلتيه المتقلقلتين:

«وهل يضير الدمية المتأرجحة يدُ من التي تأرجحها يا هذا؟! وما الفرق إن أرجحك القرمزان أم المأمون أم أم عثمان؟ جميعنا دمىً، جميعنا متأرجحون! من بطون أمهاتنا وحتى بطون ألحادنا! لن تستطيع أن توقف تأرجحك، لذا توقف عن تأففك!»

ليتني تركت المأمون يجتزّ عنق هذا اللعين وعنق حماره، سوف يصيبني بالجنون ولكنهِ على حق!

أمسكَتني كارول من كتفي، وتلقفت حورتُها المترجّية جَحظتي الغاضبة، سوف تسحرني مرة أخرى!

«جاحز، قلت لك إذا بدك تتركنا إنت حر، بس صدقني لازم ننفذ خطة فريد القرمزان، عشان حياتك وحياتنا كلنا!»

ما أسهل أن أُسحر.. استسلمتُ وزفرتُ:

«وأين هي أميريكاء هذه؟ ناحية الصين؟ أم الأوقيانوس؟»

أخرجَت كارول صفيحتها واستدعت صورةً لكرة الأرض وأشارت إليها.

«هيدي الأرض، شكلها مثل الطابة، مكورة يعني»

«ويحك! أعلم أن الأرض كرة! لقد قاس المأمون محيطها!»

«نحنا هلأ هون، بأبوظبي، ولازم نسافر لهون!»

دارت بإصبعها حول كرة الأرض، شهقتُ.. فعقّبَت..

«إيه الرحلة رح تكون طويلة ومتعبة»

«يا إلهي! سنشد الرحال ونقطع جزيرة العرب وإفريقية ونخوض غمام الأوقيانوس حولاً أو يزيد!»

«الرحلة بالطيارة شي سبعطعش ساعة»

نسيتُ عفاريتها، سوف يحلموننا على ريحٍ غدوها شهر، بل حول كامل!

«سبعة عشر ساعة! إذًا تستطيع عفاريتك أن تحملنا إلى بيت الله الحرام قبل أن يرتد إلينا الطّرف!»

«من هون لمكة شي ثلاث ساعات!»

«لو كان بيني وبين بيت الله سويعات لألصقت هامتي بشاذروان الكعبة عند كل فرض!»

«لن يُدخلوك مكة يا آل كاپوني!»

قالها جِحا وهو يلوح بأحد القراطيس في يده، تناولت كتابي، عليه صورتي بجحظَتي بدون عمامتي، وحروف إفرنجية.

«ما هذا؟ ومن رسمني على هذا الكتاب؟!»
«هيدا جواز سفرك يا جاحز!»
اقترب جحا المأفون، يقاطع هذيانُه ضحكتَه، يلوح بباقي القراطيس، اللعين يجيد قراءة الإفرنجية:
«أنت آلفونسي جابرييل كاپوني، ذي سكار فيس، الأشرم! أمريكي من أصل إيطالي، وأنا ڤيكتور أناتوليڤيتش بوت، روسي، وهذا الخرتيت بابلو إسكوبار، كولومبي. لن نشم ريح الكعبة حتى يلج الجمل في سم الخياط»
«ويحك! كيف يُحال بيني وبين بيت الله وأنا أشهد أن لا إله إلا هو وأن محمدًا عبده ورسوله؟!»
«جاحز، دخول مكة مش سهل؛ لازم لك توثيق ديانة من السفارة وشهادة وڤيزة عمرة!»
اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أقلّب قرطاسي، ليتني حججت مع المأمون هذا العام!
«لعنة الله عليك يا حظي! ألا تبتسم أبدًا؟ سهوًا ولا عمدًا؟!»
أجابني فضول جحا:
«ومن يستطيع أن يبتسم لوجه شؤوم عبوس قمطرير؟ إن أردت أن تُضحك حظك فلا بد أن تزغزغه قليلاً»
«كيف أُضحك حظي والحياة لا تفتأ تصفعني وتركل مؤخرتي؟!»
«حتى عندما تصفعك الحياة وتركلك، استمر أنت بالرقص على صفعاتها وركلاتها.. ستصيبها حينها بالجنون، وستشاركك الرقصات مرغمة»
مسحَت كارول على هامتي المكردمة وقالت:
«بس نفك شفرة القرمزان حاوديك لمكة؛ وعد يا جاحز!»
كدت أن أسألها إن كانت سترافقني عمرتي، ولكن مهلاً، لا أعلم أمسلمةٌ هي أم غير ذلك؟ وإن كانت، فمثلها لا ينبغي أن تطأ أرض الحرم إلا وهي مكفّنة متلحّفة بكومة من السرابيل لا يُرى منها إلا ما يَراه ضريرٌ في ليلة مخسوفة القمر مطموسة النجوم ملبّدة بالغيوم!
«أتستطيع عفاريتك أن تريني بيت الله الحرام على هذا اللوح؟»
مسّته بأناملها، وظهر قصرٌ مرمري مهيب، تحيط به المنائر الشاهقة والقلاع المتلألئة، وفي ساحته نقاط بيض وسود تسبح حول.. حول.. يا إلهي هذه الكعبة! وكل هذا مطاف! لقد ابتلع أرض مكة بأكملها!
«أدخل أهل الأرض في دين الله أفواجا؟!»
أجابني جحا:
«هم ألف مليون أو يزيدون، لم يعتصموا بحبل الله جميعًا، وتفرقوا إلى سبعين فرقة؛ يتشاتمون، يتفاسقون، يتكافرون، يتناحرون، وكأن كل فرقةٍ لديها مفاتيح مالك ورضوان. عِلمهم، معيشتهم، قوْتهم، مؤونتهم،

عتادهم، دواؤهم كلها من الكفار وعلى الكفار، ولا يفتؤون يلعنون الكفار ويبتهلون إلى الله كي يدمرهم ويدكّ ديارهم وييتّم أطفالهم ويجمّد الدماء في عروقهم ويزلزل الأرض من تحت أقدامهم ولا يذر عليها منهم سيّارًا ولا ديّارا، ولولا لطفه سبحانه لاستجاب للعائنهم وحرمهم نعمة الكفار، ولنُبذوا من بعدهم بالعراء مذمومين كعصفٍ مأكولٍ وصرعى كأعجاز نخلٍ خاوية؛ أقسم أن رؤيا أبي الجحجاح قد صدقت! وصدق حدسك أيها الجاحظ، لقد نهش طواعين الدين بعضهم البعض أحالوا العلم سفاهةً والدين وجاهةً، مزقّوا البلاد وفرقّوا العباد وسيربضون على القلوب والألباب والأجساد إلى يوم المعاد»

«قلت لكم إني جائع!»

زمجر أشعب، ورددت جليلة صداه، اللعنة! علينا أن نطعمه!

«كارول، أرسلي شياطينك لإحضار كرات الهامبَوُرقرِ وقناني الكَوكاكَولاء!»

«تطمن يا أشعب، لقد عملتُ أوردَرًا بالهامبَوُرقرِ والبيتزاء»

«ويحك يا كارول لقد فجّرتِ صنابير لعابي وقشعرتِ تلافيف جليلتي! ما هي هذه البيتزاء؟!»

«إنها فطيراء لزيزاء بالجبناء من إيطالياء! وهلأ ضروري تغيروا ثيابكم بسرعة قبل ما يوصل الأكل تَنلحّق على الرحلاء»

هتفتُ بها:

«لقد اغتسلتُ بحميمٍ سلخ جلدي وارتديت خف العهن وحلّة الديباج والقطن!»

«هودي السليبر وروب الحمام، ما بيمشي حالهن! ضروري تغيروا؛ ثيابكم جاهزة بأوضكم وهلأ بيوصلوا خبيرات المانيكير والبوديكير تَ يزبطوكم»

لقد كان وقتًا عصيبًا مربكًا للجميع، كارول الفاتنة تقود فريقًا من بنات مأجوج الصفر المنمنمات، يُقلّمن أظلافنا، يشذّبن لحانا، يهذّبن هندامنا، يمرخننا بالدهن والعطر، يلبسننا ملابس هذا العصر؛ ونحن نتقلب بين زغزغاتهن كهريراتٍ يتيماتٍ تائهاتٍ هائمات؛ أقسمتُ ألا أخلع خفي العهني، وأقسم جحا ألا ينزل عمامته المتعفنة على رأسه، وجفل أشعب عندما حاولَت كارول أن تستر كرشته، ولكننا ارتدينا بعض ملابسها على كل حال. طفحنا الهامبورقر والبيتزاء واحتسينا الصوداء والكوكاكولاء وامتطينا دابة مصفحة سوداء، وانطلقنا هائمين، ننتظر شياطين كارول لتحملنا إلى أرض الرياض..

لاس ڤيغاس..

حيث قصر قيصر!

-المغنطة الرابعة-

المتمغنطون بين الأرض والسماء

أنا مجنونٌ إذًا! متمغنطَ يظنّ نفسه الجاحظ، جهبذُ الفلسفة وفَطحل الأدب، الذي اكتشف للتو أن حياته كلها ليست إلا هلوساتٍ متمغنطةٍ داخل جمجمته، وأن المدعو بروفيسور سايمون سيمينز قد زرعها بعد أن اقتلع ذكرياته الحقيقية. هل يُعقل أن يُنتزع إنسانٌ من داخل عقله ويُحبس مكانه آخر؟ ما كل هذا السحر الذي بلغه بنو البشر؟! لقد تقافزوا قفزاتٍ هائلة في ألف عام، بل مئة عام! سكبوا الكهرُباء في ضفائر القِطر فأضاءت وحرّكت وصنعت العجائب، ثم هندسوا الحواسيب فحملت عقولهم معها إلى حيث لم تحتسب، وأخيرًا نسجوا شباك المعرفة العنكبوتية وجعلوها بساطًا بسيطًا مبسوطًا تمشي عليه أنامل كل من على البسيطة؛ لقد رأيت العجب العجاب وأشراط يوم الحساب.

حاصرنا الصهباء لتخبرنا بمواضينا، ولكنها أقسمت أنها لا تعرف عنّا أي شيءٍ سوى أننا فررنا من سعير حيواتنا السابقة، إلى جحيم لعبة القرمزان. لا تعرف عنّي سوى أنني فقير بائس معدم بدماغٍ نهشه المرض، أمضيت سنيني غائبًا عن الوعي حتى ضاق من حولي ذرعًا بي فباعوني بثمن بخسٍ للقرمزان الذي كان يبحث عن قصيرٍ جاحظٍ يستطيع أن يشتريه.

سلّمني القرمزان للأطباء والرقاة، فقصّوا جمجمتي، وأصلحوا عطب دماغي؛ لطالما تأملت الندبة التي تلفّ رأسي، ولعنت البعير الوهمي الذي أسقطني، والحجر الهلامي الذي شجّني، لقد كانت الندبة أثرًا لحياكة جلد رأسي بعد أن أعادوا إلصاق عظام جمجمتي ببعضها؛ وبالطبع بعد أن أنفق علي القرمزان كل هذه الأموال، أخذني لعبةً يلهو بها هو وأخوه، جعلوني أتدارس كل ما كتَب الجاحظ وكل ما كُتِب عنه، وبعد ذلك وضعوني بين يدي سايمون الذي عبث بي.. ومغنطني.. وأوهمني بأنني أنا الجاحظ الأديب المتفلسف الذي كتب مئات الكتب وقرأ آلافها وشجّ رأسه من على بعير؛ ووضعني في داخل بغداد الزائفة وأهلها المستعربون الذين يتقاضون أجورًا لقاء الكذب والتمثيل علي ومسايرتي كوني الجاحظ نديم أمير المؤمنين المأمون ابن هارون الرشيد. وكان كل ذلك مجرد بداية للعبةٍ أدهى وأمرّ. كانت لعبة الفريدين الحقيقية أن يُلقيا بي في خضّم العالم الذي لا أعرف عن كنهه شيء بعد أن يَلقيا هما حتفهما، وهأنذا، قزمٌ هائمٌ بهامته، جاحظٌ بمقلته، يتحدث الفصحى بين الأعاجم فيحسبونه مهرّجًا ساخرًا أو مجنونًا سارحًا..

«حدا بدّو قهوة؟»

أوقفَت كارول دابتها، نظرنا إليها كالبُله، ومن تكون قهوة هذه؟

«تؤكل؟!»

هذه الكلمة الثانية التي يجيدها أشعب بجوار شقيقتها التوأم كلمة "جائع".

«القهوة بتنشرب ما بتتاكل»

«وإن يكن، طالما انتهى بها المطاف في جوف جليلة!»

ولجنا خانًا تزيّنه شارة تحمل رسم ملكةٍ متوجة، شعرها مسدول على صدرها، تحيطها أذناب الحيتان.. سَبَقنا أشعب داخل خان الحورية، يتقافز جذلاً كجويرية،

وطفقت كارول تردد تمتماتها السحرية:

«واحد اسبريسو دوبل شوت»

عبق المكان يشبه رائحة خُبزات جدتي المحترقة.

«شو بتشرب يا جاحز؟»

تطفل جحا الوقح وهمس لي:

«اطمئن، لقد حلله الأئمة بعد أن حرمّوه دهرًا، جرّبه قبل أن يحرّموه مرة أخرى»

لم ينتظرنا أشعب، فقد لملم كل ما يستطيع حمله من لفائف وقراطيس مرصوصة أمام البائع المشدوه، فأومأت له كارول وتابَعت:

«خلاص باطلب لك كارميل مكياتو»

التفت جحا للبائع وبدأ يرطن:

«وَن كوفي لاتيه وِذ سكيم ميلك پليز»

ويحه، كيف تعلم هذا اللسان الأعجمي؟!

رمقت كارول أشعب الذي افترش الأرض وبدأ ينهش القراطيس والناس من حوله ينظرون ويضحكون ويوجهون نحوه صفائحهم السحرية، ثم عادت للبائع:

«وواحد كراميل فراباتشينو، مع إكسترا كريم وإكسترا كراميل اعمل معروف»

«وات سايز؟»

«غراندي.. ولا أقول لك.. ڤينتي.. خليها ثلاثة ڤينتي»

لم تناوله كارول أي نقود، أولجت قصاصةً في صندوق صغير مشقوق ونقرت عليه نقرة سحرية وحسب!

تناولت كارول قُديحًا لا يسع رشفة! يا لكرم هذه الزاهدة، ناولتني قدحًا معتبرًا، كقدح الكوكاكولاء ولكن بدون قصبة، شممت رائحة خبز جدتي المحترق يفوح منه وتجرعته.. و..

صرختُ صرخةً صمّت الآذان وهزت جدران الخان.. صرخةٌ كادت أن تُفزع الحورية العارية المتوجة ذات الأذناب، صرخةٌ بثّت ما في فِيّ على وجه جحا فشاركني الرقص والصراخ، وتوجه إلينا رواد الخان الأوغاد بصفائحهم السحرية شامتين مقهقهين موثِّقين!

نطقتُ ولثاني ملتهب وثقف حنكي متثلّخ..

«عليكِ اللعنة! لِم لَم تخبريني أنه حميم يصهر ما في البطون؟!»

ارتبكَت، وتناولت أحد الجرادل التي طلبَتها لأشعب؛ لمستُه، إنه بارد، تجرعته.. وليتني لم أفعل..

صقيع من ثلج وبَرَد.. شلّت برودته فمي وأصداغي حتى منابت أذني، وشنّجت أسناني وعظام جمجمتي وما بداخلها حتى كادت محاجري أن تلفظ مقلتي خارج رأسي.

«حسْبي الله ونعم الوكيل فيك أيتها الثاحرة!»

«وين أشعب؟»

سألتْ اللعينة، نظرنا إلى حيث كان أشعب فلم نجد سوى بقايا قراطيسَ ملوكةٍ ممضوغةٍ ممجوجة. هرعنا خارجين، تلفّتنا ذات الشمال وذات اليمين، هاهوذا يركض في الأفق، يحمل على كتفه وتدًا مخروطيًا ملبّدًا باللحم والشحم ينهش فيه وخلفه برمكيٌ يلوّح بخنجره.

«أشعب سرق سيخ الشاورما!»

«شاورماء؟ ماهي الشاورماء؟!»

لحقنا بها، بالكاد بلغنا البرمكي الغاضب ذو الشوارب، نفحَته كارول حفنة قراطيس لقاء قضيب الشاورماء فعاد أدراجه لاعنًا معشر الأعراب. أما أشعب فقد تكوم بين دابّتين مصفحتين محتضنًا تلك الشاورماء المخروطية بيديه وقدميه ووجهه غائرٌ في أحشائها ينقرها وينخرها ولا يفتأ يغازلها بين كل نهشتين.

«هلمّي إلي يا معشوقتي، عطرك يسكرني، لهيبك يذويني، قوامك يسحرني وأنت تتراقصين حول العامود، تهزين لحمك وشحمك فيهرّان منك هرّا»

«أشعب! لو ما رحنا المطار هلأ ما بنلحق الرحلة!»

سحقًا لهذه الكارَوْلِيناء، لِمَ تأبه بهذا الخرتيت؟!

«أنتِ تضيعين وقتك! عندما يبدأ هذا الخرتيت بالمضغ يفقد حاسة السمع وجزءًا من ذاكرته؛ دعيه وشأنه! وليذهب إلى الجحيم، فجليلته لا يملؤها سوى الزقوم والحميم!»

تدخّل المأفون الآخَر:

«لديهم في ڤيغاس أوپن بوفيه..»

لم يتزحزح أشعب، وواصل نخره للشاورماء..

«أوپن بوفيه.. وما أدراك ما الأوپن بوفيه.. ولائم مفتوحة وموائد ممدودة مكتظّةٌ بكل ما يُؤكل ويُشرب ويُـمضغ ويُزلط ويُبلع»

لم يتوقف نهش أشعب، ولم يتباطأ، ولكن حدقتي عينيه تزحزحتا قليلاً وارتعشت إحدى أذنيه، كضبع تأهب للانقضاض على قطيع وعول؛ وواصل جحا..

«لن تغفر لك جليلة إن حرمتها من الأوپن بوفيه يا أشعب!»

توقف، حمَل السيخ على كتفه واستطاع أن يدفع الكلمات بين أكوام الشاورماء المتكدسة في فمه وصدغيه:

«هيا بنا، أين هو هذا الأوبن بوفيه؟!»

انحشرنا في دابتنا، وتأبط أشعب سيخ الشاورماء، نظرَت إليه كارول من مرآتها وقالت:

«مافيك تفوت عالمطار بالشاورما»

هذه الحمقاء لا تعرف أشعب!

«ويحك! سيحمل أشعب الشاورماء داخل جليلة.. ستتبخر قبل أن أنهي عبارتي!»

وفعلها! قبل أن توقف كارول دابتنا المصفحة تلاشت الشاورماء! ولم يتبق سوى قضيب معدني مصقول لامع برّاق! حتى رائحة الشاورماء اختفت، فعندما يفغر هذا الأشعب فاه يبتلع كل شيء.. حتى الروائح.
تقول كارول إننا سوف نُحمل على الريح من هذا الصرح القواريري ونطوف نصف الأرض، ولجنا لجّةً من بشر، كل جنس ولون ولسان، سُمرٌ وحُمرٌ وصُفر، أعارب وأعاجم، يتكدّسون ويتدافعون ونحن نمشي على مخملٍ قرمزي لا يزاحمنا عليه أحد. كنت أظن أن هيئتنا وملابسنا ستستثير أحداق الفضوليين، ولكنها لم تستثر سوى الشقراء المتأنقة التي استقبلتنا:
«فين شنط العفش؟»
«ما في عفش!»
ناولتنا قراطيسنا وتتبّعتنا ريبتها إلى أن انغمسنا وسط طوفان البشر.
«ما هذه البوارج؟!»
قلتها وأنا ملصقٌ هامتي على الزجاج، أقسم أنني شعرت ببرودته عندما التصق به بؤبؤي عيني! دوابٌ عملاقة مجنّحة متناثرة أمامنا كالجراد! ضحكت كارول:
«ولك هيدي طيارات!»
«هذه البوارج تطير؟!»
هبطت الإجابة من السماء، بارجةٌ صافّة جناحيها، منسابةٌ تحملها العفاريت.
«يا إلهي ما هذا!»
جفل أشعب.. لأول مرة أسمعه يتحدث عن شيء غير الأكل!
«لن تلِجَها جليلة!»
«خبّر رفيقتك جليلة إن الطيارة متروسة أكل!»
بخّرت اللعينة رهبته في لحظة، ورهبتي أيضًا إذ سألتني:
«ما بدك شي تتسلى بيه عالرحلة؟»
«تسليتي وعزائي، نهمي وغذائي، كله في الكتب!»
«أكيد بنلاقي كتب في الدوتي فري»
أعتقد أن دوتي فري تعني مكتبة في عالمهم، فغر جحا فاه ورفع منخاره إلى السماء مشخّرًا وتكوّم بجواره أشعب يغازل جليلة، وذهبت أنا مع كارول إلى بيت الكتب: الدوتي فري!
«ما هذا؟! كتبٌ إفرنجية!»
قلّبت بصري بين الكتب، لقد تعلّمت لغة رومية وبيزنطة وقسطنطينية.. ولكنني لا أجيد هذه؛ وجدت في الرفّ الأخير بضع كتبٍ عربية. أبراجٌ وطعام، فتاوى وأحلام، عشقٌ وغرام.. هذه فقط؟ أين كتب الآداب والعلوم والأعلام؟! أقبل علي خازن الخان وأنا مطأطئ هامتي، مُشهرٌ مؤخرتي أقلب تلك الكتب:
«أستاذ؟ بتدور شي معين؟!»
التفتُّ إليه، يبدو من هندامه أن القراءة قد هذبته!
«ألا توجد لديكم كتب أخرى؟ في لطيف الفلسفة وظريف العلوم وبديع

الأدب؟»
«تقصد كتب الجاحظ وابن المقفع وأبي العلاء المعري؟»
قفزت من مكاني!
«ألديكم كتب الجاحظ؟!»
غاب هنيهةً وعاد متبخترًا بزهو، حاملاً كتيبًا وكأنه سيسلمني مفاتيح عمورية.
«تفضل كتاب البيان والتبيين للجاحظ»
«البيان والتبيّـن، وليس التبيين!»
«عفوًا أستاذ، البيان والتبيين!»
«من الأحمق الذي يقول البيان والتبيين؟ هما نفس اللفظ، وكأنك تقول (الإفهام والتفهيم) بدل (الإفهام والاستفهام) اسمه البيان والتبيُّـن!!»
«يعني بتفهم أكثر من الجاحظ؟!»
«ويحك! أنا الجاحظ!»
أدار القريطيس نحوي، وعليه كارثة مكتوبة بخط عربي منقّط: البيان والتبيين، ومذيّلٌ باسمي! ليتني مِتّ تحت أرداف البقرة قبل أن أرى هذا الهراء! ألقاه إلي وبادر بالانصراف. قضيت عمري أكتب ثلاثمئة وستين كتابًا لم أجد منها هنا سوى هذا الممسوخ المبتور!
انقضضت عليه كي ألقنه درسًا، فسحبتني كارول من تلابيبي، أنقذَته من قبضتي وهو يهتف وينعتني بالجنون ويهددني برجال الأمن وأنا أبصق عليه وعلى قراطيسه الفارغة الخاوية.
في تلك اللحظة دوّى النداء، بمختلف اللغات:
«الإعلان الأخير لرحلة الخطوط الجوية العربية السعودية خمسة سبعة واحد والمتجهة إلى جدة، على السادة المسافرين سرعة التوجه إلى البوابة رقم تسعة»
أسرعت كارول وأسرعتُ خلفها، أصيبت بالهلع لاختفاء جحا وأشعب، تجاوزنا صف البشر وهرولنا على بساطنا الأحمر، سألتْ كارول السيدة الواقفة عند طرف المعبر فأومأت لها، مشيتُ خلفها في نفق من قوارير ورأيت البارجة المجنّحة تقترب.. وتكبر! استقبلتنا فاتنة علـى أعتابها ألصقت ابتسامةً على وجهها ورطنت مرحبةً بنا بعد أن رمقت قراطيسنا وولجناها فإذا بي في دهليز ارتصت عليه الأرائك ذات اليمين وذات الشمال، ولمحت الوغدين متكئين عليها فهرولت نحوهما وكأنني لم أرهما دهرًا. ما هذه المقاعد؟ أعجب من هذا العالم برمته، جلست على إحداها فتقدمت كارول وسحبتني من ذراعي:
«هيدا مش كرسيك»
آوتني إلى مقصورتي؛ وقيدتني بحبلين قبل أن تتبوأ مقعدها بجانبي.
«ما هذا؟! لمَ تربطينني؟!»
«لازم تربط السيت بيلت»
كان أشعب يجفل ويدور بمحجريه في كل مكان ويطلق همهماته المكتومة:

«أين مائدة السماء يا جحا؟!»
تقدّمت إليه الحسناء ذات الابتسامة الملتصقة، لم يفهم إيماءاتها ولا كلماتها، مدّت يدها إلى مقعده لتربطه فدفعها مزمجرًا:
«إن مسستِ جليلة فسأبتلعك!»
أصيبت المسكينة بالرعب، فلكزه جحا قائلاً:
«سيخرجونك إن لم تربطه! ولن تتذوق جليلة مائدة السماء قط!»
تراخى الخرتيت، أخرج الحبلين متأففًا، لم ولن يحيطا بجليلة، أحضرت الحسناء المذعورة حبلاً ثالثًا، ورابعًا وبالكاد أحاطوا بكرش أشعب.
ما لبثت أن عادت الحسناء، ما هذا؟ تمر! وأخيرًا شيءٌ أعرفه وآلفه في هذا العالم! تنبّهت للدخان المتصاعد من قدح الحساء الساخن المنمنم.
«انتبه يا جاحز القهوة سخنة»
«لن ألسع من قدحٍ مرتين!»
ارتشفتها ببراطمي المرتعشة محاذرًا مُصدرًا خريرًا أصمّ رُكّاب البارجة..
«ما هذا؟ شتان ما بين قهوة الحورية المتوجة ذات الأذناب وهذه!»
«هيديك ستاربكس، وهيدي قهوة عربي»
وإن يكن، هي لذيذة مع التمر، حصلت على تمرتي العزيزة قبل أن يتشاجر أشعب مع حسناوات البارجة ليستحوذ علـى طبق التمر وإبريق القهوة.
تزلزلت البارجة وترجرجت ثم تدحرَجت، نظرتُ من النافذة بجانبي فرأيت قناديل المدينة تطفو وكأننا نبحر على شَرارٍ ولهب؛ ارتج بداخلي رهاب الأماكن الموصدة المغلقة والارتفاعات الشاهقة المعلّقة! تشبّثت بذراع المقعد وذراع كارول وأنا أشعر بقلبي يتقلقل ويتخبط رعبًا داخل قفص صدري، وينزلق للأسفل مع أمعائي، ألصقتُ رأسي بالنافذة من الهلع فرأيت نجوم السماء ونجوم الأرض، ورأيتنا نقترب من الأولى ونبتعد عن الثانية، تاركين أمعائي في الأسفل. حسنٌ سأرتل دعواتي الأخيرة مرةً أخرى، أغمضت عيني، وبدأت الدعوات. ليست دعواتي وإنما دعاء السفر! الله أكبر الله أكبر الله أكبر..
كبّرت مع النداء الذي تردد في الأجواء بصوتٍ يضاهي صوتي رخامة وفخامة، أعاد لي الدعاء طمأنينتي وأمعائي، فوجئت بكارول ترمقني بعينيها اللوزيتين وتبتسم. أبعدتُ يدي عن يدها، ويحي لقد تركَت أصابعي المعجرمة أثرًا على ذراعها السندسي، أكاد أرى الدماء تمشي عائدة في عروقها.
«لازم تريّح شوي يا جاحز!»
مرَّرَت أناملها على المقعد، فعبثت به شياطينها واستحال أريكةً، فسريرًا وثيرا. ناولتني مخدتي ولحّفتني بغطائي وربطت عصابةً حول عيني بالكاد استوعبَت حدقتَي.. وأودعتني لأحلامي. لم تزرني أم عثمان هذه المرة، لا أعلم إن كانت لدي زوجة، من الذي باع جسدي للقرمزان يا ترى؟ زوجتي وأبنائي بعد أن عافوا رعايتي؟ إخوتي؟ أمي؟ أبي؟ هل هناك أحد يعبأ بوجودي على قيد هذه الحياة يا ترى؟ إن لم يعبؤوا بي فلم أعبأ بالذهاب إلى سايمون واسترداد ذكرياتي؟ لأتذكر

من نسوني وباعوني؟ وما فائدة العودة لحياة تخلو من المحبّين؟ إن لم يكن لديك من تحبه في هذه الحياة فأنت ميت تتنفس، تلك هي حكمة القرمزان.. وما الحياة إلا رقصةٌ عمياء هوجاء رعناء.. بين الحب والموت!

فإما أن يُبقينا الحب على قيدها، وإما أن نرتمي في أحضان الموت ريثما تأتينا ملائكته؛ ما كل هذا الهذيان؟ أهذه صنائع القهوة؟ أم أنها وساوس القعنبور؟ أعتقد أن القعنبور لم يطِق الأهوال التي مررتُ بها ففرّ مني ليتلبس وغدًا آخر لا يتشهد على روحه عدة مراتٍ كل يوم.

لم يعد عقلي يعي الفوارق بين الوقائع والأحلام، ولا بين الحقائق والأوهام؛ كنت أعلم أن ذهني لن يطيق كل تلك الكتب، وأن انكفائي عليها سيحيله لا محالة إلى قِدر ثريدٍ ثائرٍ فائرٍ مخفوق؛ ولكن اللعين يبهرني حتى وهو في حالته المخفوقة، لقد صنع من خيالاتي وتأملاتي وهواجسي ونزواتي عالمًا سحريًا أقسم أنه يفوق عوالمكم أنتم دقةً وجلاءً؛ مهلاً مهلاً.. من أنتم؟ أنا لا أكتب الآن!

أنا أحلم في أريكتي الهائمة في قلب البارجة المجنّحة، لِمَ أخالُني أحدث أناسًا عبر القراطيس؟ لِمَ أنتقي من الكلمات أيسرها ومن المعاني أسهلها وكأني أخشى أنني أحدث أقوامًا قد أعوجت ألسنتهم ككارول؟ هل تتحدثون العربية؟ هل أحدثكم بالفارسية أو الهندية أو الحبشية أو الرومية؟ أتحبذون أن أتخفف من بدائع الكلِم وعجائب اللفظ وأحدثكم كما أحدث كارول؟

> «أعزاءنا المسافرين، نود تنبيهكم إلى أننا نمر الآن بمحاذاة ميقات الإحرام»

أيقظني هذا الهتاف، أزحت قناعي، فتحت عيني، فرأيت أنفًا!

> «اللعنة عليك يا جحا! ماذا تفعل؟! ابعد منخارك المقرف المعقّف وعينيك الغائرتين الزائغتين المتهاجرتين عني، وإلا جدعته واقتلعتها وألقيت بها إلى ذلك الخرتيت ليلتهمها»

همهم أشعب رغم سباته:

> «نيئة؟»

أجابني جحا وضحكته تكاد تنبث من أطراف شدقيه:

> «دعك من أنفي الآن، لقد عرفت لماذا وضعنا القرمزان على هذه الطائرة بالذات.. كي يُريك بيت الله الحرام! أنظر!»

أشار إلى النافذة، سواد حالك يحتضن بقعة متأججة متوهجة

> «يا إلهي! ما كل هذا النور؟!»
>
> «هذه مكة يا جاحظ، وهذا هو المسجد الحرام!»

ألصقتُ جبهتي بالنافذة، وتدلى فكي وتجاهله لساني وظل يردد ما أحفظه من تراتيل وترانيم وتسابيح حتى اختفى وهج بيت الله الحرام، واصطكت البارجة بالأرض. استيقظ الجميع من اهتزازها باستثناء أشعب، أشرت إليه بحدقتي وسألت جحا.

> «هل أطعمته؟!»

«تسع وجبات!»

«بالكاد تكفيه»

هبطنا من بارجة.. وصعدنا إلى أخرى، وبعد أن تبوأنا مقاعدنا وربطنا أحزمتنا ملت نحو كارول متضرّعًا:

«ألا يمكننا أن نبقى قليلاً؟ يومًا أو يومين نصلي في بيت الله الحرام ونؤدي العمرة؟»

«أوعدك يا جاحز بعد ما نخلص خطة القرمزان باخذك مطرح ما بدّك!»

مشعوذة.. لكنني أثق فيها!

«إذًا علينا أن نعرّج على قَيْغاس قبل أن نذهب إلى مكة؟»

أومأت برأسها وعينيها.

«ومتى سنصل؟»

«الرحلة شي سبعطعشر ساعة»

«اللعنة!»

عبثَت باللوح السحري أمامي فترنحت عليه الصور:

«فيك تتفرج على أفلام إذا بدّك!»

«أفلام؟»

«ايه أفلام.. قصص، إثارة، خيال، رعب.. اللي بدك ياه!»

«وهل هناك إثارة ورعب وخيال أكثر مما نحن فيه؟! لا أتمنى في هذه اللحظة سوى كتابًا أقرؤه!»

«ناولني آيفونك.. صفيحتك السحرية على قولتك»

«تذكرت، لقد دسست صفيحة القرمزان المأفون في جيبي، أخرجته، أمسكت كارول بإبهامي ووضعته على قعر الصفيحة فانتفضت وأضاءت وظهر رمز القرمزان؛ تناولته مني وبدأت تعبث.

«بادور لك على أكثر الكتب تأثيرًا في تاريخ البشرية.. ممم القرآن الكريم»

«ومن لا يحفظه؟!»

«الكتاب المقدس؟»

«قرأت جميع الأناجيل»

«الجمهورية لأفلاطون؟»

«تقصدين البلاد الفاضلة؟ قرأتها بالإغريقية قبل أن يأمر المأمون بترجمتها للعربية!»

«The Art of War? »

«اللعنة على جميع الحروب!»

«جاحز؟ كيف فهمتني وأنا عم باحكي إنجليزي؟»

«لستُ بحاجة إلى المزيد من الجنون يا امرأة! لقد قلتِ فنون الحرب!»

«I said: The Art of War! »

«And I said: Hell with all wars! »

«بتحكي إنجليزي!»
اللعنة، لقد تعلمت الجرمانية والإغريقية والرومانية، ولم أسمع بهذه الإنجليزية من قبل! ومن يأبه؟! هي أضغاثٌ على أضغاث!
«أكملي قائمة الكتب يا هذه»
«The Origin of Species؟ »
«منشأ الكائنات؟! عمّ يتحدث هذا؟!»
«شو بدك فيه، نظرية دارون بتقول الكائنات الحية بتتطور وتتنوع»
«ويحك! وهل ينكر هذا سوى أعمىً أو متعامٍ؟! أنهكتُ نفسي سنين أطارد كل بعوضة وضفدع كي أذكر ذلك في كتاب الحيوان ولم أسمع بهذا الدارُون قط!»
تناولتُ صفيحتي منها، وفي بضع دقائق تعلّمت سحر اللمس عليها كي أطارد الكتب بين دهاليز متاهاتها! تسمّونها الشبكة العنكبوتية إجحافًا وزورًا، وهي والله أعظم من أواوين الملوك ودواوين السلاطين، هي الجنّة التي بخّرت آمالي في كون هذا العالم حقيقيًا؛ أنا الآن أحلم بجنّة الخلد لا محالة، كتب الأرض بين أناملي، بين سبابتي وإبهامي، بين الناقِر والناقُور، شرفتُهما بهذه الألقاب، فلا أريد منهما بعد الآن سوى نقر الصفيحة السحرية ونخر خضمّ الغاغول - أو كما تنادونه أنتم: غووغل - لاصطياد قطعان الكتب. انقضت الساعات سريعًا، لم آبه بطعامٍ ولا شراب، ولا بالحسناء المستلقية بجواري، التي ترمقني تارة، وتغفو تارة، وتصلُ صفيحتي بخيطٍ تارة كي لا ينضب سحرها؛ لم آبه بأشعب الذي يُرعب جواري البارحة فيسكّتنه بالمزيد من الطعام؛ ولا بجحا الذي يتغزل بهن فيزيدهن رعبًا بعينيه المتقلقلتين؛ كنت منغمسًا بين العلوم والأدب والمواقع والكتب، أقرؤها بشتى لغاتها، الإنجليزية والإفرنسية والإسبانية، لا أعلم كيف استطعت فك رموز كل هذه اللغات، ولكن لا يهم.. المهم أن أقرأ.. المهم أن أتيه بين جِنان الكتب وأغرق في أنهارها وإن وافتني منيتي داخل هذا الغاغول!
نعم.. كما ذكرت لكم آنفًا.. لقد تقافز العِلم، بل حلق في الهواء وبلغ عنان الفضاء؛ لقد أحكم الإنسان قبضة الخلافة على كافة أرجاء الأرض، وجعل كل ما عليها له سِخريا، لقد انتشر البشر، ثمانية آلاف ألف ألف إنسان، تكاثروا وتناثروا ووطأوا كل ما يُوطأ حتى ضاقت بهم رحاب الأرض، من زَيلاندة الجديدة، وحتى جزائر هاواي!
ولكن.. لم يُعد للعرب في ميادين العلم شيء يُذكر! لقد حصل كل ما أخشاه! انتهى عصر المأمون، وخلف من بعده خلفٌ أضاعوا الأمة وأنهكوها تباغضًا وتناحرًا وتكافرًا وتلاعنًا واستحالت بغداد الحضارة والعلم إلى أتون حرب طائفية بغيضة تستعر بمؤامرات سلاطين الفساد وسرقات تجّار البلاد ونعرات المتشدقين الأوغاد ودماء باقي العباد، لكِ الله يا بغداد!
كنت أجد في مقابل كل ألف كتاب علمٍ غير عربي، كتابًا عربيًا فريدًا يتيمًا خاويًا، ككتب السفاسط والسفاسف التي رأيتها في مكتبة الدوتي فري، جلّها عن قراءة الطالع، وتفسير الأضغاث، وفنون الأكل، ونبش فتاوى من تحللت جثامينهم

ورمّت عظامهم في باطن الأرض قبل هذا العصر بمئة وخمسين عِقد.
أمّا لسان العرب فقد تيبّس وتآكل، وتحولت العربية من مهرجانٍ متنوعِ اللطائف متشعبِ الأفنان، وطوفانٍ يفيض بالطرائف والألوان، إلى لغةٍ مبتّرةٍ مسطّرةٍ مقتصرةٍ على لهجةٍ موحدّة بعباراتٍ محدّدة، يسمونها "فُصحى" وأسميها "فُضحى"؛ وكأن ابن العراق يتحدث بلسان ابن الشام واليمن والحجاز ونجد؛ يرتدي نفس عباءته ويمتطي ناقته. يمضغون الحروف ويلوكون الكلمات ويتباهون بتشدّقهم الممسوخ ويشمئزون من لهجاتهم التي ولدوا وترعرعوا عليها؛ تبًا للزيف والتنطّع والإسفاف! الآن عرفت لم ترمقونني بكل هذا الذهول منذ البداية، ويحكم! أنا أحدثكم كما أحدث نفسي ومن حولي، لدي عربيةٌ واحدةٌ فقط، هي التي أحاور بها أمير المؤمنين وأفاصل بها الإسكافي، أسامر بها صحبي وأخط بها كتبي!
سبع عشرة ساعةً فرّت على صفيحتي بين ناقري وناقوري، رأيت وسمعت وقرأت فيها ألف عامٍ من عمر البشر.. ازدادت عيناي جحوظًا من كثرة القراءة حتى عجز جفناي عن التماس للإطباق عليهما وجرهما بعيدًا عن الكتب، وعجزت أن أعيد فكي المتدلي إلى موضعه أو أن أوقف الأمواج المتلاطمة داخل جمجمتي.
انقطع اتصال عقلي بمقلتَي فأصبحتا خدِرَتين خاويتين هائمتين على الكلمات، إلى أن هزّتني كارول بشدة وهي تهتف:

«جاحز؟ جاحز! بيك شي؟ معقول لهالدرجة غرقان بالقراية؟»

تدخل جحا ضاحكًا:

«هكذا هو الجاحظ، كلما وجد كتابًا دفن أنفه فيه حتى ينهيه!»

«إن لم تدفن أنفك في الكتاب.. فادفنه في التراب!»

واصلنا مناكفاتنا، وتبِعْنا كارول وهي تقود قطيعنا الثلاثي بين البوارج والدهاليز إلى أن وطأنا أرض أميريكاء سالمين.
انتظروا! لم نلجها بعد، اصطففنا أمام عُتُلٍّ لا تُنبئ نظراته بخير، ناولَته كارول القراطيس فقام يتفحّصها وينقّل نظراته الحادة الثاقبة بينها وبيننا ثم هتف بإنجليزية فجّة:

«بابلو؟ بابلو إسكوبار؟!»

اللعنة ما هذا الصوت، هي سيدةٌ في جسد ماردٍ أمرد! لكز جحا أشعب ودفعه نحوها، فأعادت سؤالها؟

«اسمك بابلو إسكوبار؟!»

قبل أن يفتح فمه همس له جحا همسةً فهز أشعب رأسه واهتزت معه جليلة موافقة. تدخّل جحا مجاريًا إنجليزيتها:

«وأنا ڤيكتور بوت»

تفحّصت القراطيس وتفحّصته، حاولت عبثًا مطاردة عينيه اللتين تأبيان الصُلح والاستقرار، نقرَت بأناملها بريبة ووضعت القرطاس جانبًا ثم التفتت إلي، وارتطمت جحظتها المرتابة بجحظتي المرتعبة، كنت أهرش دماغي من الداخل

باحثًا عن الاسم الذي منحنيه القرمزان، مِن آل مَن؟ مِن آل مَن؟! القباني؟ القابوني؟ نعم مِن آل القابوني.. نطقتها بالعربية الفُصحى من شدة ارتباكي:

«وأنا من آل القابوني»

اتسعت عيناها وهتف بإنجليزية مزمجرة:

«آل كاپوني! وتتحدث العربية!»

تدخل جحا المأفون:

«عفوًا سيدتي، هل لديكِ مشكلةً مع أسمائنا؟ هل خالفنا أيًا من أنظمة بلاد الحرية؟ هل تتعمدين معاملة مواطن أمريكي بتعسف فقط لأنه يتحدث العربية؟ أم لأن اسمه طابق اسمًا لا يعجبك؟»

ازدادت نبرته صرامةً وعيناه تقلقلاً وهو يتابع:

«أم لأن صديقه الذي يعاني من الحول يحمل لحية وعمامة؟ لو كانت لديك قوانين خاصة للتعامل مع من يحمل أسماء بعينها أو يتحدث بلغات شرق أوسطية أو يرتدي ملابسه الشعبية فنحن على استعداد لاحترامها»

التقط جحا الذي ظهر غضبه لأول مرة أنفاسه وأدار نظراته بيننا ثم انقض بها مرة أخرى على العُتُلّة التي بدأت بالتراخي:

«عدا ذلك أتمنى أن تتمي عملك باحترافية وحيادية!»

تبًا لهذا الجحا! وكأنه روّض ذئبة وأقنعها بمداعبة الخرفان، ضربت على قراطيسنا وأعادتها إلينا، واستحالت ريبتها ابتسامة باهتة وهي تقول:

«مرحبًا بكم في أميريكا»

اللعنة عليك أيها القرمزان، ألم تجد سوى أسماء عتاة المجرمين لتطلقها علينا؟! زعيم المافيا وإمبراطور المخدرات وملك تجارة الأسلحة! ولوجنا أميريكا دون أن يضعونا في أقفاص ويلقوا بنا في المحيط كان معجزةً! الله وحده يعلم إلى متى سترافقنا المعجزات!

استقبلتنا دابة مدولبة مهودجة بلا سقف، قادتها كارول وتبوأتُ مقعدي بجوارها وخلفنا جحا وأشعب، تلفح الرياح وجوهنا، مع خمار كارول والأغاني الكاليفورنية التي ردّدتُها وكأنني قضيت طفولتي بين مروج الساحل الغربي أراقب والدتي تقطف التوت والتفاح. ولاحت لنا ڤيغاس في الأفق! يا رباه! واحةٌ من مجون! بُنيت على خمر وميسر وأنصاب وأزلام! زفّتنا عجائب الدنيا ذات اليمين وذات الشمال.. حتى توقفنا أمام قصر قيصر وتلقفتنا عيونه الجارية وتماثيله العارية؛ وولجنا إيوانه المُذهّب المُمرمر حيث استقبلنا أكثر نبلائه وقارًا وهيبة، أظنه إمبراطور هذا القصر، يالتواضعه! أتى ليستقبلنا بنفسه! تأهّبت لألقي عليه تحايا الملوك والخلفاء وأبلغه سلام أمير المؤمنين، ولكنه ابتدرنا بلكنة النبلاء:

«Welcome to the Caeser Palace, I am Signore Sebastian Lorenzo Berlusconi, your private butler»

اللعنة.. هذا الوقور المتأنق هو خادمنا، أقسم أنه أكثر هيبةً من ملوك عصري!
اقتادنا السنيور سيباستيان عبر قاعات الميسر المكتظّة بالبائسين الذين ينثرون الأموال على الآمال فلا يحصدون سوى الآلام والأوهام وأجراس مكائن الرهان الساخرة الخاسرة.
ولجنا مقصورتنا الملكية، وسألَنا سنيور سيباستيان بصوته المهيب ولكنته الرومانية إن كنا نرغب في أي شيء، نظرتُ إلى أشعب وجليلة وقلت بتلقائية:
«لدينا بعض الجائعين هنا»
أشار إلى ديوانٍ مجلّد على المنضدة قائلاً:
«Here is the food menu»
تناول جحا ذلك المجلّد، فقلقل فيه عينيه ثم رفعهما إلى سنيور سيباستيان راطنًا:
«Just bring every edible thing»
جحظ سيباستيان لوهلة ثم هز رأسه، وقبل أن ينصرف تقدم إلى المنضدة وتناول بطاقةً مذهّبة وهو يقول:
»Signor Capone, this is an invitation from Donna Francesca«
مد راحتيه بالبطاقة، ناوَلنِيها وانصرف، مَن هذه الدونا فرانسيسكا التي تدعوني لحفلتها الليلة! هتفت كارول:
«الدونا فرانسيسكا! مستحيل!»
خطفَت البطاقة من يدي تتفحّصها لتتأكد وواصلت محملقة:
«الدونا فرانسيسكا.. أصغر بنات ألبيرت فرانسيس ابن آل كاپوني! هي وريثة المافيا الحديثة والمتحكمة في تجارة الأسلحة بين الدول الأوروبية والشرق أوسطية!»
«ماذا ماذا؟ آل كابوني؟ أليس هذا اسمي المزور؟!»
«القرمزان أعطاك اسم أخطر زعماء عصابات المافيا على مر التاريخ، آل كاپوني.. جد الدونا فرانسيسكا!»
«وما علاقة هذه الدونا بالقرمزان؟!»
«الدونا كانت شريكة القرمزان بتجارة الأسلحة، وقبل ما يسجنوه أعطاها ياقوتة قلب الكالة اللي كانت على جمجمته!»
«قلب القرمزان! وعليه الأرقام.. الستة الثانية! سنأخذه منها إذًا!»
ضحكت كارول ساخرة وهي تقول:
«إنت ما بتعرف الدونا فرانسيسكا! هيدي أخطر وأشرس إنسانة ممكن تقابلها!»
سحبني جحا من ذراعي وهمس لي بجديّة:
«حذار فقد اشتعلت غيرتها!»
«هذه الحسناء العجماء الصهباء تغار علي أنا؟ أجننت؟!»
«العاشقة تتمنع وتتصنع حتى تفضحها غيرتها! فإذا غارت جُنّت! فقد

تنهال عليك بالطعنات من شدة عشقها لك.. وقد تنهال عليك بالقبلات من شدة حقدها عليك!»
دفعتُ المعتوه وأجبت كارول بصرامة:
«أيًا من تكون، لقد اكتسبتُ مناعةً ضد الكوارث، فلنرَ ما ستعدّه لنا هذه الدوناء فرانسيسكاء في حفلتها!»
لم ينتظر أشعب عودة سنيور سيباستيان، فطفق يمشّط أركان المقصورة، يبتلع ما في القناني، يزلط ما في الأواني، يتجرع ما في القوارير، يسفّ ما في القراطيس.. حتى قُرع الباب وأقبل الخدم والحشم يدفعون العربات تزيّنها القدور والطناجر، يفتحون طبقًا تلو طبق فتفوح الروائح وتنساب الأبخرة؛ أطعمة لم أرها قط، ولن أراها بعد الآن.. إذ انقض أشعب عليها واعتلى العربات بقوائمه الأربع وغاص داخل الأطباق، ففزع الخدم وتقهقروا وفروا وجلسنا نحن نراقب أشعب، وجحا الذي تناول وتدًا بني اللون، بتر طرفه وأوقده، وبدأ ينفث كيره الكثيف الكريه.
«اللعنة عليك يا جحا! ما هذه العصا الغليظة الكريهة التي تمصمص طرفَها وتنفث قرفَها؟!»
«هذا سيغارٌ كوبي، بُرمت لفائف تبغه على أفخاذ الحسناوات العذراوات اللاتينيات!»
«وهل تـُحيل أفخاذ العذراوات ريحه المنتنة مسكًا وطيبًا؟!»
نظرت كارول إلى إسورتها في معصمها وهتفت:
«باقي نص ساعة للحفلة، لازم نجهز حالنا يا جاحز!»
أجابها جحا وهو ينفث الكير ويعدل هامته:
«We are always ready my lady! »
«ما بينفع، الدعوة للجاحز وشخص واحد معه، پليز خليك مع أشعب، روحوا الأوپن بوفيه، أنا حاغير بسرعة وراجعة»
غادرَتنا، وجفلَ أشعب عندما سمع كلمة "أوپن بوفيه"، ضحك جحا، انطلق نحو الباب نفث سحابته الكثيفة وهتف:
«إن أردت أن تشبع يا أشعب فاتبعني»
تحركت أذنا أشعب، ترك القدر براقًا مصقولاً كما سُبِك، قفز من على الطاولة وتبع جحا كالجرو وهو يتمتم:
«أشعب لا يشبع! وجليلة لا تمتلئ!»
لقد أعدّ القرمزان لكل شيء عدته، قُرِع الجرس وقبل أن أهمّ بفتح الباب ولج إماء قصر قيصر وانقضضن علي يلبسنني حلّةً مخملية سندسيةً إستبرقيةً ديباجيةً مزركشةً التفّت على قدّي وكأنما حاكها الترزي وأنا بداخلها، وأولجن قدمَي في خفين جلديين مطرّزين وكأنما قولَبهما الإسكافي بعد أن عاش دهرًا بين فلجات أصابعي، وحشرن بُنصري في خاتم زبرجد، ومعصمي في سوار فضة يزينه قرص عقيق وبلور بداخله خاناتٌ مرقّمة وعِصيٌ منمنمة تتراكض تباعا.
لم يحنقني ويخنقني سوى السروال الذي شدّق سيقاني وحزّق ما بينهما،

والحبل الذي طوقوا به رقبتي وكأنني شاةٌ يخشون فرارها! حشرتُ صفيحة القرمزان في جيب السروال الخلفي، متمنيًا ألا تشتعل وتزغزغني في أماكن لا أحبّذ أن تُزغزغ.
تركنني جواري القصر فمكثت برهةً أمام المرآة، أتغزل في هندامي والبنانات التي ارتقيتها بخفي الجديد، لقد ابتعدتُ عن الأرض بنانتين، واقتربتُ بنانتين من السماء؛ وفجأة ظهرت الحورية!

أقبلت كارول! هلّت في حلّةٍ تصرخ بتعطّفات أنوثتها، رداءٌ أحمر قانٍ انسكب على بدنها وانساب فوق ثناياها، وكأنما اندلق عليها رحيق الزعفران والزهر والرمان فاستحال ثوبًا حريريًا برّاقًا رقراقًا يعلم بالضبط أين يلامس جسدها وأين يرفرف بأفئدة من يرمقونها.. ولكنه ممزّق! شِقٌ في جانبه يرتحل من كعبها حتى مشارف أوراكها، وشِقٌ آخر في ظهره من رقبتها إلى عصعصها.
 نسيت أنها زاهدة، زاهدةٌ جدًا! ولكنها فاتنة.. تدفّق فيها حُسن الصقلّبيات والشركسيات والبربريات والعربيات فأصابني سحرها وتلبّستني عفاريتها.
ازدادت مقلتاها حوَرًا عندما رأتني متأنقًا في حلتي الجديدة وهتفَت:
«واو! اسم الله عليك يا جاحز! شيك وبتعقّد!»
أوَمثلها يقول مثل ذلك لمثلي؟ زغزغت روحي ودغدغت فؤادي بكلماتها، رفعتُ ذراعي ومشيت على أطراف أناملي كي أطالها وأتأبطها، تمايَلت بقبقابها المنمنم تثقب به قلوب الهائمين بجمالها، تذيبها بلهيب ثوبها الناري وشواظ شعرها الذهبي، وتتبعتُ أنا أعينهم لأجهز عليهم بنظراتي الجاحظة الثاقبة الحارقة.
تناقصوا وتقلّصوا ونحن نتبختر على البساط الأحمر يزفّنا السنيور سيباستيان في الأماكن التي لا يطؤها سوى النخبة ذوي الحظوة، وانتهى بنا المطاف إلى مقصورةٍ أضواؤها خافتة، موسيقاها هادئة، تعجّ بعلية القوم من الأرستوقراطيين والبرجوازيين، يتمايلون يمنةً ويسرةً على الأنغام، فاجأتني كارول عندما أخذت يسرايَ بيُمناها وأحاطت ظهري بذراعها وبدأت تأرجحني.
«ارقص يا جاحز!»
وجدتُ رأسي منغمسًا فجأةً في مكان يجعلني أصلي ركعتي شكرٍ على قِصر قامتي وعِظم هامتي.. ورقصنا.. نسيتُني بين أحضانها، لم أعد أرى رقصات الراقصين.. لم أعد أسمع عزفات العازفين.. ألحان أنفاسنا ودقات قلوبنا تكفينا.

-المغنطة الخامسة-

الزنبقة المدجّجة والثعلب المتأجّج

تصاعد التناغم وتمازجت الأنغام، وأصبحَت كارول كمنحوتةٍ من صلصالٍ لم يجف، صنعتُها بيدي، أقلّبها بين أناملي كيفما أشاء، تدور، تنثني، تتمايل، تنحني، ألقي بها بعيدًا فتتشبث بأطراف أصابعي، ثم أسحبها إليّ حتى لا يبقى بين شفتينا سوى أنفاس الحياء.. من أين لي كل هذا؟! أنا لم أرقص في حياتي مع دجاجة! كيف تملّكت الليلة زمام تلك المُهرة الماهرة الفارهة؟ كيف تدفقت دماء المتيّمين من الأوروغواي والأرجنتين في عروقي؟ كيف رقصنا التانغو وكأننا أول من تمايل على ضفاف ريو دي لا پلاتا؟ تمنيت أن تدوم رقصتنا لآخر لحظات حياتي، أو أحلامي، ولكن قانون السعادة كان لنا بالمرصاد! كم أنتِ صارمةٌ أيتها السعادة، صارمةٌ صادمةٌ قاتمةٌ، تراوغيننا.. تخادعيننا.. تستدرجيننا بأقنعة البهجة وسرابيل السرور حتى إذا ما تشبثنا بأطرافك ذابت الأقنعة، وتطايرت السرابيل، ونهشتِنا بأضراس الآلام وأنياب المآسي. السعادة جميلة في لحظاتها الأولى فقط، ثم تستحيل تدريجيًا إلى سأمٍ، فألمٍ، فتعاسة. والسعيد هو من يُدرك ذلك، هو من يدرك أن جمال الزهرة ينذوي كلّما أنهكتها حملقاتنا، السعيد هو من يتقافز بين تلك الأزهار دون أن يتيح لها الفرصة لخلع أقنعتها.

وها هي أسعد لحظات حياتي تخلع قناعها وتبصقه على وجهي؛ توقّفت الموسيقى وتوهّجت الأضواء وتعالت الصفقات من حولنا، تلاشت نظرات الازدراء التي كانت تحاصرني وحل محلها إعجاب السيدات وحسد السادة. واخترقت الجموع المصفّقة إمبراطورة القصر، ترتدي قميصًا كقميص كارول ولكنه أدهمٌ فاحم، حالكٌ قاتم كأمواج شعرها وحدقات مقلتيها، ومتشققٌ أيضًا، كما قلت لكم، جميع النساء هنا زاهداتٌ جدًا، مرضعاتٌ جدًا جدًا! عاند وجهها الباهت كل ذاك السواد، وناقضت نجوم حليّها وما تعكسه من بريق سماء ثوب زهدها المتمزق الرقيق. تأبّطَت هرةً، بل نِمسًا بل أرنبًا هزيلاً مبتور الآذان، محلوق الشعر حول خاصرته وأواسط سيقانه وقصبة ذنبه، بدأ أرنبها بالنباح.. اللعنة إنها كلبة متقزّمة، حملتها بيمناها ونفثت دخان قصبتها الطويلة المتمايلة بين أصابع يسراها، سعلَت وكادت عيناها أن تقفزا من خلف نظارتها السوداء وهي تراني أتقدم إليها، تأهّبت كتيبتها المكونة من سبعة عمالقة من بني ثمود وعاد يرتدون سوادًا في سواد، أشارت إليهم تروّضهم قبل أن ينقضوا علي، ثم هتفت بإنجليزية مشوبة بطليانية:

«آخر رجاء للقرمزان أن أقابل هذا القزم؟ لا أكاد أصدق!»

اعتلى الاشمئزاز وجهها، ومدّت يدها نحو وجهي كي أقبّلها في حين اشرأب العمالقة من خلفها، وعلا نباح كلبتها وكأنها تنهرها عن لمسي؛ سحقًا لها! لوددت أن أركل مؤخرتها لولا حرّاسها، لكنني خشيت على نفسي، وعلى كارول. قبّلتُ ظاهر كفّها قبلةً لزجة، فاستلّت يدها مقشعرّةً من تحت براطمي وكأنها تخشى أن يصيبها جدريٌ أو برَص أو جذام من بقايا لعابي، ومع اقترابي منها سطعت الكالة الياقوتية القرمزية المتدلية رأسًا على عقب بين نهديها، جوهرةٌ برّاقة عملاقة، حجمها بين البرقوقة والدراقة، ذلك هو قلب القرمزان إذًا!

«سعيد بمقابلتك دونا فرانسيسكا»
قلتها بطليانية قُحة، فتلاشى اشمئزازها قليلاً ولكنه عاد أكثر من ذي قبل عندما تدخَّلت كارول:
«أتينا لنأخذ كالة القرمزان، بناءً على أوامره!»
ضحكت الدونا، نظرت لصدرها وأمسكت بطرف عقدها تؤرجح الياقوتة فازدادت توهجًا ووجهت كلامها إلي متجاهلةً كارول:
«ولم لا يأتِ القرمزان بنفسه؟ لقد ربحت ياقوتته على طاولة الپوكر، ولن أتركها إلا عليها!»
اشتاطت كارول وهتفت غاضبة:
«تعلمين أن القرمزان قد مات.. ولكن ما لا تعرفينه هو أنه تعمّد الهزيمة أمامك، ليهديك الياقوتة مع الاحتفاظ بكبريائك!»
«أعتقد أن غيرتك جعلتك تهذين، وأنستك من تكونين، أنت مجرد سكرتيرة خاصة، وليس لك مكان بيننا! اذهبي واهتمي بترتيب الملفات والمواعيد ريثما ننهي أعمالنا!»
استدارت وواصلت متململةً دون أن تلتفت:
«لقد خاب ظني في القرمزان، أخبرني بأن جدّي شخصيًا، إمبراطور الپوكر، سيأتي ليتحدّاني! فإذا به يرسل لي سكرتيرته بصحبة مهرجٍ قزم كي يتوسّلني ياقوتته! اتبعني إن كنت تريد الرهان يا آل كاپوني! ليس لدي وقت أضيعه!»
نظرَت إليَ كارول نظرة رجاء وهمسَت:
«جاحز، لازم تلعب معها پوكر وتربح!»
«ولكنني لم ألعب البَوْكر قط، إنه رجسٌ من عمل الشيطان!»
«إنت مضطر يا جاحز، لو ما رجعّنا الياقوتة حنضيع كلنا!»
تراخت يدي عن يد كارول، عند الاضطرار سأتقن البَوْكر والكنچفة والنردشير أيضًا! لحقتُ بالدونا وكلبتها وعتاولتها إلى إيوان التحدي، جلسنا حول طاولةٍ مخملية إهليجية؛ تراصّت أمامي وأمامها أكوام من أقراص ملونة وجلس بيننا السنيور سيباستيان يقلّب أوراق البَوْكر ويقول:
«سيد كاپوني، سنبدأ الآن، لقد وضع القرمزان مليوني دولار باسمك»
اللعنة! آخر لعبة لعبتها كانت الخذروف، كيف لي أن أباري هذه الحرباء؟! ألقى إلي سيباستيان ببطاقتين فقلّبتهما، ملك قلوب وملك كالة، فانتفض الجميع وزمجرت الدونا:
«أأحمق أنت أم تتحامق؟ لِمَ كشفت أوراقك؟!»
حاولت أن أخفيها بسرعة، ولكن سيباستيان انتزعها مني ودفنها في الحزمة ليعيد خلطها وتوزيعها، لم أكشف ورقي خشية أن يهبّوا غاضبين، اختلسَت الدونا نظرةً إلى ورقتيها فابتسمَت وهتفَت:
«مئة ألف دولار!»

تبًا لها! لن تكون أجرأ مني! هتفت بدوري:
«مليوني دولار!»
اشتعلَت غضبًا:
«لا لا أنت بالتأكيد مجنون!»
«دونا؟ تقبلين الرهان أم تنسحبين؟»
قالها سيباستيان مقاطعًا فأعادت اختلاس النظر لأوراقها ورددت:
«أنت لم تلق نظرة على أوراقك يا كاپوني!»
استجمعتُ ثقتي الجوفاء وشجاعتي الوهمية:
«لقد سمعتِ ما قاله سيباستيان! تتحدين أم تنسحبين؟!»
نفثَت دخانها ألقت ببطاقتيها وهي تقول:
«whatever.. all in! »
ظهرت ورقاتها، إكّة النجمة وملكها! وبدأ سيباستيان برصّ الأوراق في يده: إكّة القلوب، وملك الكالة، وعشرة النجوم. أشار إلي لأكشف ورقتي، ففضحتُ شناعة حظي: سبعة الزهرة، وثلاثة القلوب. سال لعاب الدونا، لقد ضاعت أموالك وياقوتتك أيها القرمزان! هو مال ميسرٍ حرام على كل حال! كشف الورقة الرابعة، فظهرت ثلاثة النجمة، وخبت ابتسامة الدونا، كشف الخامسة فظهرت ثلاثة الزهرة؛ ثلاث ثلاثاتٍ قتلت الإكتين والملكين.. ودوّت صرخة الدونا:
«اللعنة! اللعنة عليك يا قرمزان! اللعنة عليك يا كاپوني!!»
طفق سيباستيان يسحب الأقراص من أمام الدونا ويكوّمها أمامي، أعتقد أن حظي الذي اعتاد على إبهاري بتعاسته منذ نعومة أظافري قد خذلني هذه المرة وابتسم سهوًا، ابتسامة قيمتها أربعة ملايين دولار! تنحنحتُ مقاطعًا زمجرتها:
«لا عليكِ، هذه أموال محرمةٌ بالنسبة لي، خذيها واعطني كالة القرمزان وليذهب كل منا إلى حال سبيله!»
«ألازلت تتحامق؟ ياقوتة القرمزان تساوي خمسين مليون دولار! أتريد أن تراهن بخمسين مليون دولار؟!»
وليكن ليس لدي ما أخسره. هززت رأسي لسيباستيان، فأعاد خلط الأوراق، انتزعت الدونا ياقوتة قلب القرمزان من نحرها وقامت تطرقها على الطاولة وتنفث دخانها بعصبيّة؛ تلقّيتُ الورقتين، حسنٌ يا حظي اللئيم، أبقِ ابتسامتك قليلاً، هذه المرة فقط، وأعدك أن أقبّل وجهك الكريه كلما لقيتك لاحقًا! ابتسمَت بعد أن نظرَت إلى ورقاتها، وعادت الدماء إلى عروقها، ألقت بالياقوتة وهي تقول:
«ALL IN! »
فما كان مني إلا أن رددت عبارتها:
«ALL IN!! »
كشفَت ورقتيها، إكّتين نظيفتين أنيقتين إحداهما مزينة بالقلب والأخرى بالكالة.. أما ورقتَي فقد كانتا اثنين الكالة وخمسة القلوب، نعم هذا هو حظي الذي أعرفه! وبدأ العجوز بكشف الأوراق: إكّة الزهور، تليها ستة الكالة وأربعة الكالة،

لقد قَضي علي! تلتها خمسة الكالة! بقيت الورقة الأخيِرة!! تذكرت في هذه اللحظة اللعينة جميع قوانين لُعبة البَوْكر! ستفوز بثلاث إكَك في أسوأ الأحوال، وإن كانت الورقة الخامسة إكة ستسحقني بأربع إكك، وإن كانت ستة أو أربعة أو خمسة فستفوز ببيت التمام، وإن كانت كالة فستفوز بطوفان الخمس كالات. لقد قُضي علي لا محالة! ما بال الشيخ يقلب الورقة الخامسة بتلكؤ وتململ؟! أم أن عيني الجاحظة استحالت كاميرا تصور المشاهد بالحركة البطيئة لتستمتع بتعذيبي لأطول مدة ممكنة؟! أغمضتها إلى أن انتهى مشروع كشف الورقة الخامسة البطيء الممل وفتحتهما فزعًا عندما صرخ الشيخ متناسيًا وقاره:

«Unbelievable! Straight Flush!! »

لقد كانت الورقة الوحيدة اليتيمة التي تضمن لي الفوز بين اثنتين وخمسين ورقة! ثلاثة الكالة!! مع أربعة وخمسة وستة الكالة واثنين الكالة التي بحوزتي تحقق طوفان كالة أنيق ومرتب، يجرف إككها بعيدًا ويحقق لي الفوز!! أغلقتُ أذني كي لا تصمّني صرختها، وأغمضتُ عيني كي لا أرى جحافلها وهم يجحفلونني.. ولكن لم يحدث شيء، فتحتُ عيني فوجدتها أمامي تنفث دخانها وعلى محيّاها ابتسامةً أنستني وقاحتها وقالت وهي تضع قلب القرمزان على راحتي:

«أخبره أنني أفتقده!»

«من؟ فريد القرمزان؟ سأخبره عندما ألقاه على السراط!»

«لقد شاهدتُ جثمانه وهو يوضع في نعشه وينزل في قبره وأكوام الثرى تنهال عليه.. ولكنني لن أثق في وفاته حتى وإن أمضيت ما تبقى من عمري وأنا أراقب الديدان تلتهم جثته أمامي وأموت لألقاه في أعماق الجحيم!»

رمقَت السنيور سيباستيان الذي طفق يلملم الأقراص من على الطاولة فاقشعرّ قليلاً، ثم اقتربت بوجهها من وجهي ولفحني دخانها وهي تهمس في عيني الجاحظتين:

«لا أستبعد أن يكون القرمزان يراقبنا الآن! وأنه قد دبّر هذه اللعبة بحذافيرها كي تفوز وتحصل على ياقوتته! ما حصل اليوم معجزة لم ولن تحصل على طاولات البوكر»

همستُ لها وأنا أحبس دمعتي وسعلتي:

«خذي الأموال لا أريدها، فقط أريد الياقوتة»

انتصبَت بأنَفَة وقالت وهي تربّت على كلبتها:

«أربعة ملايين دولار لا تكفي مصروفًا للترويح عن لوليتا»

نبحت كلبتها مؤيّدة كلامها، أعتقد أن أربعة ملايين دولار تكفي لإطعام ملايين الأفواه الجائعة، أو علاج ملايين الأجساد الموجعة، أو شراء ملايين الكتب الرائعة.

«هنيئًا للوليتا بك، كم هي محظوظةٌ هذه الكلبة!»

نظرَت إلي شذرًا، تفكّرت، اقتربت مني كثيرًا، أكثر مما ينبغي، ألصقت

شفتيها على خدي فانتابتني قشعريرة صبغتهما الحمراء اللزجة الدافئة، تأمّلتني بمكر وتمتمت وهي تغادر..

«جميع الكلاب هنا محظوظون!»

لن أقارعها، فلتذهب إلى الجحيم بلا عودة! تركتُ الأقراص مع سيباستيان، وخرجت مهرولاً فتلقفتني كارول، أعترف أنني اشتقت إليها بعد أن استفردت بي الدونا وكلبتها وكلابها، جحظَت، وغضبَت وهي تنقّل بصرها بين الياقوتة القرمزية في يدي والشفاه القرمزية على خدي، تناولَتها مني مشدوهة مدهوشة وقالت بغضب وهي تمسح بقايا شفاه الدونا عن خدي:

«كيف أقنعتها تعطيك الياقوتة؟»

«قارعتها بالميسر ولعبت البَوْكر وربحته والعياذ بالله!»

هل تشعر هذه الحسناء بالغيرة علي؟! لم يشعر بالغيرة علي أحد قط! أعتقد أن في غيرة الحسناوات لذةٌ لا تضاهيها لذة! بالذات لوغدٍ لئيمٍ محرومٍ مثلي! يا معاشر الحسناوات، تصدقن بفُتات غيرتكن الكاذبة على كل بائس مسكين، قبيحٍ مَشين، شنيعٍ مَهين، فإن غيرتكن تضخ في شرايينهم التيستوستيرونَ والدوپامين، وتكفيهم شرور الكورتيزول والإستروچين! تجعلهم أكثر آدمية ورجولة، أكثر سعادة وفحولة! تجاهلَت كارول غيرتها ودهشتها، وقرّبت ياقوتة القلب المقلوب من عينها تتفحصها، ثم ناولتني إياها:

«شوف يا جاحز.. شايف أي أرقام؟»

الحمقاء تظن أن مقلتيَ العظيمتين الجاحظتين حادتي البصر، لا تعلم أنني أنهكتهما في الكتب حتى عتِمتا وغُمَّتا، وكأني أرى الدنيا من خلال سحابة مُثقلة. لاحظتني كارول وأنا أحملق وأعتصر عيني بجفني فقالت:

«جاحز؟ بيك شي؟ إنت نظرك ضعيف؟»

«لقد ضاع بصري بين كتبي يا كارول»

تناولَت الياقوتة، وأخذَت بيدي وانطلقنا بين داهليز قصر قيصر! يا رباه ما هذا القصر؟ أظنه أكبر من قصور بني العباس قاطبة، بل أكبر من بغداد! شوارع وأنهار وقناطر ومآكل ومشارب وأسواق متراصة في داخل القصر، دخلنا خانًا متلألئًا بنفائس الذهب وعجائب المجوهرات، تقدمت كارول نحو الصائغ المتأنق وناولته ياقوتة القرمزان، وقف مندهشًا، تناولها، قلّبها، ثبّت منظارًا على إحدى عينيه وبدأ ينقب في أعماقها، اقتربت منه كارول قائلة:

«هل ترى أية رموز أو أرقام؟»

«لم أرَ في حياتي ياقوتة بهذا الحجم ولا هذا النقاء! هذه ثروة حقيقية! مئة قيراط سيتجاوز سعر القيراط نصف مليون دولار و..»

شهق الصائغ ثم واصل:

«ثلاثة واحد، واحد صفر، سبعة، ثلاثة!.. أرقام محفورة بالليزر على طرف الياقوتة!»

«آخر شهر أكتوبر.. سنة ثلاثة وسبعين!.. هذا يوم زواج فريد الديباجي

والد القرمزان بوالدته ماريا آليخاندرو! تزوجها يوم عيد الأموات في المكسيك وأهداها ياقوتة القلب»

«وكأنه يقول بأن حبه لها لا يموت!.. وما الحياة إلا رقصة عمياء بين الحب والموت.. هي حكمة والده إذًا!»

«لا! هذي عبارة فريد القرمزان، هو اللي قلَب الياقوتة عشان تصير تشبه الكالة، شعار الموت، وعمل لها الجمجمة الذهبية»

«وأين هي تلك الجمجمة؟»

«في أفلاك.. مدينة القرمزان، بقلب المحيط الهادي»

قاطعنا الصائغ وكأنه لم يسمع حوارنا:

«أستطيع عرضها في المزاد.. ستتجاوز قيمتها خمسين مليون دولار بالتأكيد»

تجاهلته كارول، أخذت الياقوتة وأخذتني بيدي تجرّني حتى توارينا في إحدى حجرات الميسر النائية الخالية، تربّعنا على إحدى طاولاتها المخملية وأخرجتُ صفيحتي، داعبتها بإبهامي، وغازلتها بطلّتي فتوهجت وظهرت الجمجمة وأسفلها خانات الثلاث ستات.. سحبت كارول الصفيحة وبدأت تتمتم الأرقام وتدونها:

«ثري وَن.. وَن زيرو.. سيڤين ثري»

تلاشى بَهَتَانُها، وتوهّجت الأرقام مصطبغةً باللون القرمزي؛ في المرة السابقة قطع بنا القرمزان المأفون كرة الأرض من أقصاها إلى أقصها كي أقارع هذه الدونا المجنونة على طاولة الميسر.. ما الذي سيحدث هذه المرة يا ترى؟ هل سألقى ذلك السايمون ليصحح ذكرياتي المكذوبة ويعيد حياتي المسلوبة؟ ولكن ما يدريني إن كانت تلك "الحياة" جديرةٌ بأن تُسترد؟ ماذا لو كانت جحيمًا آخر أنعم الله علي بنسيانه وأنا أسعى للعودة إليه والتردّي في وديانه؟

تخيل يا من تقرؤني الآن لو كنتَ مكاني، ماذا كنت فاعلاً؟! هل تفر بالياقوتة مع الحسناء وتعيشان بقية حياتكما بالخمسين مليون دولار؟

أم أنك ستكون أحمقًا وتصر على العودة إلى حياتك السابقة والتي كانت على الأرجح، وبناءً على بشاعة وشناعة حظّي ووقاحته المعهودة حياةً بائسة مزرية؟!

انتفضت الصفيحة معلنةً أن الخيار لم يعد بيدي! تناولتُها من كارول وما إن نظرت إليها برزت لي شيطانة!

صبيّة معقودة الحاجبين تغطي عينيها بقرصين سوداوين، حلقت نصف شعرها قَزَعًا، واستوشمت جُل بدنها بزهور الزنبق والأشواك، من ذراعها لكتفها وصدرها وحتى صفحة رأسها المحلوق؛ هتفت لي بإنجليزية أميريكانية فُجّة:

«أخيرًا وصلتني إشارتك سيد كاپوني! كنت في انتظارها منذ ساعات. أنا متوجهة إليكم الآن، ألقاكم على سطح سيزر پالاس بعد عشرين دقيقة»

قالتها وغطّت أذنيها بوسادتين وسحبت عصًا أمامها وانطلق الهدير قبل أن تختفي من صفحة صفيحتي؛ شهقت كارول:

«لازم نطلع عالسطح!»

«ومن هذه الشيطانة؟ وماذا تريد منا؟!»

«هيدي ديدلي لِيلِي.. البوديقارد تبع القرمزان»

«هذه الصبية الضئيلة النحيلة التي تسمي نفسها "الزنبقة القاتلة" هي حارسة شخصية للقرمزان؟ لا عجب أنهم قبضوا عليه إذًا»

«هيدي الصبية فيها تبيد كتيبة مارينز من باب التسلاية! هلأ لازم نسرع حتى نلاقيها وتاخذنا لپروفيسور سايمون»

«علينا أن نجد المخبول والخرتيت أولاً!»

حشرتُ الصفيحة والياقوتة في جيوبي الخلفيّة وهبّت كارول مهرولةً حاملةً قباقبها بيد وساحبةً يدي بالأخرى.

«جحا قال حياخذ أشعب عالأوپن بوفيه!»

الأوبن بوفيه يا أصدقائي مصطلحٌ يُطلق على المأدبة المفتوحة على مصاريعها، ينهش فيها الجياع المفاجيع حتى يلقوا مصارعهم، في الواقع ليسوا جياعًا بالضرورة، بل هي حالة التقاء الوفرة بالبذخ بالجشع البشري، وكما قال صديقٌ لي لا أذكره: ابن آدم هلوع منوع، يؤوس قنوط جشوع، مع علمه أن أجله مقطوع، وأنه لن يموت من جوع!

اقتحمنا الأوبن بوفيه! وليمةٌ مترامية، مائدة لامتناهية، بحر لجّي متلاطم، تتماوج فيه المشارب والمطاعم، أصناف لم ترها عيوني، ولم تسمع بها آذاني، ولم تخطر قط على جناني؛ وبين عباب الأمواج، يتدافع الأفواج.. جياعًا وشباعًا.. يملؤون الأطباق والأفواه والبطون تباعًا.

«فلنمض في سبيلنا يا كارول، لن يَخرج أشعب من هذا البوفيه إلا إذا ابتلع كل ما في أوانيه! أو وافته منيته فيه!»

تجاهلتني وتبعت المتزاحمين الذين تركوا الأواني والقدور وتكأكأوا وتدافعوا حول مجنون يصرخ:

«This time the Black Hole, the Time Machine, the Dimension Portal is going to drink seven liters of hot pumpkin soup! Who wants to bid on that? »

هذا صوت جحا! اللعين يقامر بكرش أشعب! استطعت أن أمرق بين الأرداف والسيقان ووجدت أشعب قد ثمل من كثرة ما شرب وأكل، حمل اثنان من العتاولة قِدر حساء اليقطين، وأرسوها أمامه فاحتضنها بيديه وساقيه واستطاع بالكاد أن يميلها نحو فيه!

وبدأ الحساء يتدفق إلى بئره السحيقة المدعوة جليلة، تتصاعد أبخرته والناس يهتفون ويصفقون ويلقون بأموالهم النحاسية والقرطاسية وجحا مدلدلٌ سيغاره بين شفتيه يلملم الأموال ويحشرها في جيوبه وأكمامه حتى كادت تنبثّ.

«يخرب بيتك يا جحا! المجنون بيفضحنا على التي ڤي! الإف بي آي

بيوصلوا لنا في لحظة!»
قالتها كارول وهي تسعى تجاه سيدة متأنقة تتحدث إلى عصًا أمام شاب غير متأنق يوجه آلته نحوها ونحو أشعب وهي تهتف بحماس:

This is NV-News.. and here he is! the real living Black Hole! The Black Hole of Vegas!«
» !The guy who was eating non stop for the past two hours

اندفعت كارول ولكزت السيدة فتعثّرت في الحبل المتصل بالقضيب الذي تتحدث إليه ووقع معها رفيقها وآلته.
كان جحا لا يزال منتشيًا وينفث دخانه الكريه ويهتف:

And now, our Black Hole needs something cold after that steamy soup! who says that it«
» !?cannot swallow the entire load of this ice cream machine

تعالى هتاف الحشود ومكاؤهم وتصديتهم وهم يراقبون جحا يمد أنبوبًا من صندوق حديدي إلى فم أشعب الذي تلقفه كرضيع يتذوق حلمة أمه لأول مرة. ثنى العصى فتدفّق الزلال الأبيض المتجمّد.
وصلَت إليهما كارول في تلك اللحظة وصرخت:

«فضحتونا يا مجانين! لازم نروح هلأ!»

نفث جحا الدخان في وجهها وتورّدت عظمتا وجنتيه باليقطين الفاسد، أو أيًا ما كان قد شربه في تلك الليلة وهو يقول:

«اطمئني اطمئني، سيبتلع أشعب ما في ماكينة الآيسكريم.. وسنجمع أموال الرهان ونغادر بهدوء دون أن يشعر بنا أحد»

لطمَته فازداد تورد عظمتي وجنتيه:

«إنت خلّيت فيها هدوء؟! الإف بي آي أكيد راجعوا لستات الرحلات وعرفوا إننا بأميريكا، إنت طلعتنا على الهواء مباشرة عشان يعرفوا نحنا وين بالضبط ويقبضوا علينا!»

«تبًا لم يخطر ذلك ببالي!»

قفزتُ لكي أصفعه بدوري!

«وهل لديك بالٌ يخطر عليه شيء قط؟!»

أدارت كارول عصا الآلة فتوقف تدفق الزلال المتثلج الذي كان يطفح من شدقي أشعب ومنخريه، أعتقد أنه شبع أخيرًا بعد أن قُبضت روحه. رحمة الله عليك يا أشعب، وعلى جليلة، وعلى من سيتولى غسلك وحملك ولحدك.

«لازم نحمله!»

قالتها كارول وهي تجاهد لدحرجة أشعب، حاولتُ أن أعاونها، والأوغاد متجمهرون يضحكون ويصورون، والسيدة التي تحمل القضيب تطلب من فتاها أن يوثق كل شيء، اللعنة عليك يا جحا، اللعنة! أقبل المأفون يدفع عربةً عليها صناديق وحقائب، لديه القدرة على التفكير مثل البشر إذًا! شقّ طريقه نحونا، ألقى بالحقائب، وتعاونّا ثلاثتنا على دحرجة جثمان أشعب من على الطاولة إلى

العربة التي صرخت إطاراتها ونحن ندفعها جاهدين وأشعب منبطح عليها والزلال المثلج وحساء اليقطين يسيلان من فمه ومنخريه ويرسمان خطين على بساط قصر قيصر.
دفعنا العربة، واندفعنا نحو حجرات الصفيح الصاعدة، نقرَت كارول قرص النداء فأضاء، وعاودَت نقره مرارًا بعصبية لتستعجله، فعاونتها أنا بنقر القرص الثاني أسفله مثلها. انزلقت درفتا الباب المصفّح فخرج مَن بالحجرة مذعورون من اندفاعنا. بالكاد انحشرنا بالداخل مع العربة وأشعب الذي اضطررت لامتطاء جليلته كي يسعنا المصعد؛ لن يشعر بي وهو حي ما بالكم وهو يلفظ أنفاسه ويستعد للقاء منكر ونكير؟ وقبل أن تلتقي درفتا الحجيرة الصاعدة، رأيتها! العميلة چي! تركض نحونا في آخر الرواق وخلفها جيشٌ مدجّج، لقد قُضي علينا لا محالة! زأرت الحجيرة وهي تنطلق بنا لآخر طبقات قصر قيصر، وتتالت الأرقام المضيئة ودقّات قلبي تتسارع مع تزايدها، ولكن جحا نقر أحد الأزرار.. فتوقفت الحجرة الصاعدة، وهتف:
«علينا أن نغيّر المصعد!»
كانت فكرةً عبقرية من مخبول.. ولكنها لم تنجح على أية حال، خرجنا من الحجيرة قاصدين أخرى كي نضللهم، ولكننا فوجئنا بهم خلفنا، لقد تكدّس القصر بجنود العميلة چي!
أطلقنا سيقاننا للريح، ركضنا بأشعب والناس من حولنا يهرعون، والجنود خلفنا يصرخون، اقتحمنا إحدى قاعات الموائد في قصر قيصر نتخبط بين طاولاتها ومقاعدها وأطباقها.. حتى وصلنا لطرفها.. ها هي النوافذ أمامنا، لقد انتهت رحلتنا هنا!
طوّقت بي ذراع، بل ورك ثور، انتزعني للأعلى، وانكفأ جحا وهو يتلقى ضربةً من ماسورة أحد الجنود على بطنه؛ حاولَت كارول أن تكيل الركلات لأول الجنود، وثانيهم وثالثهم و.. كما تعلمون في موازين القوى الشجاعة مهما كانت تسحقها الكثرة! شقّت صرختها فؤادي وأدمته الركلات قبل أن تدميها، لوحتُ بسيقاني في الهواء علّي أفلت من الثور لأساعدها، ولكنه حملني تجاه العميلة چي التي وصلت لاهثة.. وقالت بعربية محطَّمة محطِّمة:
«التقينا.. أخيرًا!»
سمعتُ صرخاتٍ مكتومة من خلفي، لا أعلم ما الذي حدث، لا أستطيع أن أدير رأسي المحشور بين ذراع الثور وعضده، ولكن الثور استدار فرأيت جحا قد أوقع جنديين أرضًا وأشهر ماسورتيهما في الهواء وبدأ بإطلاق قذائفها النارية وهو يرقص ويضحك بهستيريا!
«سأنتقم لك يا أبا الجحجاح!»
تفاجأ الجنود وتقهقروا، ثم صوّبوا مواسيرهم إلى جحا وقبل أن يبدءوا بتراشق النيران.. اندلع الجحيم! تفجّرت النوافذ وتطاير زجاجها وتغلغل في وجوهنا وأجسادنا، حتى أشعب دبّت فيه الروح وقفز يعدو على أربع؛ وبرز من خلف

النافذة هودجٌ محلِّقٌ معلّق، طاحونة كالتي دمّرت بغداد! وعلى بابها تتكئ الصبية ذات الخضاب والأوشام.. ديدلي لِيلِي.. الزنبقة المدجّجة! كانت تحمل على كتفها عمودًا مجوفًا وبيدها الأخرى ماسورةً ناريةً مصوبةً نحوي، صرخت:

«هيا يا جاحظ تعال!»

صمّت أذني طلقتها وشعرت بالدماء الساخنة تمطر على وجهي ووقعتُ، سقط الثور الذي كان يحملني نظرت إلى وجهه، عين جاحظة بجوارها تجويف تفور منه الدماء. لم تمهله حتى ليفزع، حملتني غريزة البقاء وتشبّث الروح بالحياة فانطلقت نحو النافذة، وهبّت خلفي چي وجنودها وطلقاتهم، ولكن جحا تصدّى لهم، وكان سباقًا ما بين إطلاق النار وإطلاق الأرواح إلى باريها؛ أمسكَت كارول بذراعي ونحن نتأرجح على حافة النافذة المحطّمة وهتفت:

«نط بسرعة يا جاحز!»

والذي خلق بشرًا بجمالها وآخرين بدمامتي لن أبارح مكاني حتى أطمئن عليها!

«لن أتحرك بدونك يا كارول»

كانت نبرتي صارمة لدرجة تنهي أي جدال بيننا قبل أن يبدأ، بالذات في موقفٍ حالكٍ كهذا! قفزَت برشاقة وتشبّثت بباب الطاحونة المعلّقة ومدّت يدها إلي، كان جحا يتقهقر، سيغاره معلق بفمه ومواسيره تعتصر آخر طلقاتها وهو يترنح راقصًا، يسعل الدخان والدم من فمه وأنفه وعدة ثقوب في صدره ويقول:

«أبو الجحجاح.. السرّ في الجرس! خذوه قبل أن يصلوا إليه!»

قفزتُ وتشبّثت بذراع كارول، وهمّت ديدلي لِيلِي بالابتعاد فصرختُ متضرعًا:

«جحا وأشعب!!»

ركض أشعب نحونا على أربع وقفز الخرتيت برشاقة غزال وأمسكنا به أنا وكارول وتعلّق في الهواء وجحا يتهاوى ويصرخ والجنود يتكالبون عليه:

«أبو الجحجاح يا جاحظ. الجرس يا جاحظ!»

ابتعدت ديدلي لِيلِي بالطاحونة وأنا وكارول نجاهد لسحب أشعب، فدوّت صرخته وانفجرت الدماء من ثقبٍ في جليلته، رأيت العميلة چي واقفة على طرف النافذة مصوبةً إلينا ماسورتها، فانحرفت ديدلي لِيلِي وانطلقت بنا. سحبنا أشعب بأعجوبة، وضعت كلتا يدي على الجرح والدماء تفور من تحتها وهو يهذي:

«جليلة.. جليلة.. إلا جليلة.. جائع.. جليلة..»

ابتعدت أضواء ڤيغاس وصخبها وبقيَت آثامها ومآسيها فوقنا وبداخلنا.. قضى جحا نحبه، وأشعب يحتضر وأنا معلق بين السماء والأرض لا أعلم ما سيُفعل بي! اللعنة على القرمزان، بل اللعنة علي أنا! لأن أقضي نحبي أهون ألف مرة من أن يتأذّى أحد من أجلي، ناهيك عن أن يلقى حتفه بين يدي وأنا عاجز حتى أن أتلقى عنه بعض الألم! دمعت مقلتيَ النافرتين وأنا أراقب أنفاس أشعب تتباطأ وتخبو، سالت دموعي على دماء جليلة، لطفك يا إلهي، لا أعرف أحدًا أكثر مني تقصيرًا وإثمًا، ولكن لطفك يا إلهي أوسع وأخفى وأحرى. رتّلت لا شعوريًا بين شهقاتي آيات اللطف وبعث الموتى وإحياء العظام وهي رميم، حتى لاح لنا

سوادٌ في الأفق.. بحر لجيٌ حالكٌ إلا من الزبَد الثائر على قمم أمواجه المتلاطمة!
«اقفزوا إلى الماء!»
لقد جنّت ديدلي لِيلِي! تريد أن تلقي بنا في هذا اليم الهائج المائج المتثلّج!
أعادت هتافها:
«هيا بسرعة! ليس لدينا وقت!»
نظرتُ أسفل مني فإذا بسفينة معتمة تقترب، ليست سفينة وإنما بارجة أرى طرفها ولا أكاد أدرك آخرها. نظرتْ إليّ كارول، عيناها متورمتان من البكاء، طلبت مني القفز دون أن تنطق، نظرت لأشعب، دفعته لألقي به من حافة الطاحونة، واحتضنته لنسقط سويًا؛ غمرتنا المياه وتغلغلت برودتها في داخل مسامي ونخاع عظامي، شهقتُ وتجرعت ما تيسر لي من مياه اليم، حتى انتشلنا ربان السفينة، سحبني وسحب أشعب ولحقت بنا كارول، ورأيت ديدلي لِيلِي تقفز من الطاحونة التي واصلت طيرانها مبتعدة، آخر ما أدركه وعيي قبل أن يغرق في مياه البحر التي شربتها كان عبارة ديدلي لِيلِي لربّان السفينة:
«هذا هو الجاحظ، والسمين المصاب أشعب، علينا أن نسعفه.. لقد خسرنا جحا!»
واظلمت الدنيا. أتمنى ألا يتأخر علي ملك الموت هذه المرة!
لم ألبث أن فتحت عيني، أقسم أنني أغمضتهما وفتحتهما وإذا بالشمس قد أشرقت فوق وجوهنا، والنسيم يهفّنا، والنوارس تحفّنا.. نظرتُ حولي فإذا بأشعب ممدّدٌ مغمّدٌ مضمّدٌ، وفوقه كارول وديدلي لِيلِي تطببانه وترقيانه، الحمد لله، لقد نجا اللعين!
قفزتُ على قدمي، فالتفتت كارول وبادرتُها:
«كارول! هل أنتِ بخير؟ هل أصابك مكروه؟»
لقد تبقّع وجهها وترقّع، غادرتْه مساحيق التبرج وحلت محلها الدماء المتخثّرة والكدمات المزرقّة المتورّمة، هل ستصدقوني إن قلت لكم أنها صارت أجمل؟ بالطبع صارت في نظري أجمل، تلك الكدمات ليست إلا شهادات وفاء لي وتضحية من أجلي. تُقدّم الحسناء جمالها لمن تحبه وإن ذوى في أعين الناس، لكي تزداد جمالاً في عينيه هو؛ ولكن، أعتقد أنني أخبرتكم سابقًا بأن الذكران أوغاد ملاعين أليس كذلك؟ يحاسِبون حبيباتهن على ما تضاءل من حسنهن لأجلهم، ويطالبون ببدائل وتعويضات دون أن يعوا أن بصقة حبيبةٍ صادقةً على وجوههم تعدل حُسن بنات حواء قاطبةً.
ماذا ماذا؟ كارول تحبّني؟ أعتقد أن مياه المحيط قد فرزنت عقلي، إن تبقى لي عقل! كارول تضحي من أجل أموال القرمزان فقط، وبعدها سأعود حاسرًا صاغرًا لحياتي السابقة.
أقبلت نحوي، واكتفت بضمّي ضمّةً لم تنهيها سوى مقاطعة ديدلي لِيلِي:
«من تكون جليلة؟ زوجته؟ صديقته؟ عشيقته؟»
أجبتها:

«جليلة هي صديقته وزوجته وعشيقته.. كرشته!»
نظرت إليه وعقّبت:
«لم أر في حياتي بطنًا أقسى من هذه، لقد عانيت لإخراج الرصاصة، لحسن حظه أن جلده السميك حال دون تغلغلها في أحشائه، وإلا لكنا قد فقدناه!»
لوحت بالطلقة المعدنية البرّاقة، وهمّت بإلقائها في المحيط، ولكن روح أشعب دبّت فيه للحظة، فتح إحدى عينيه، انتزع الطلقة من يد ديدلي لِيلِي وابتلعها وهو يقول:
«أعيديها إلى جليلة!»
الحمقاء لا تعلم أن ما يلج جليلة يبقى في جوفها إلى يوم الدين!
«علينا أن نطعمه قبل أن نفقده.. أو نفقد حياتنا!»
أقبل قبطان السفينة، عملاقٌ شاحب، وجهه شاربٌ نبتت حوله بعض الملامح! برتقالي اللون بلون بشرته المرقّطة بفعل لهيب الشمس. مد إلي يده الغليظة وهتف دون أن أرى تحرك شفاهه المختبئة خلف شواربه:
«حمدًا لله على سلامتك، أنا فليمنغ فوكس!»
مددت له يدي وجاريته التحية:
«وأنا أبو عثمان عمرو بن بحـ.. أقصد آل كابوني الأشرم.. فقط نادني الجاحظ.. يا أيها الثعلب المتلهلب!»
هزّ رأسه وابتسم ابتسامة مقتضبة تكسوها الشوارب وقال:
«علينا أن نبتعد عن المياه الإقليمية بأقصى سرعة!»
عاد ليبحر بنا في تلك السفينة الجارية بلا شراع ولا سارية. تجولتُ على ظهرها، يا لهولها، بارجةٌ، بل قصرٌ، بل مدينةٌ تطفو على الماء! قِبابٌ منصوبة، وأبراجٌ مرفوعة، وحجراتٌ بيضاء محفوفة بالبساتين مصفوفة كإكليل ياسمين. تدلّى فكي ودلدل معه عقلي وأنا أحاول أن أبلغ أطرافها بطَرْفي فيرتد إلي خائبًا حاسرًا.

شعرت بيدها، أمسكت بيدي وقالت:
«هون آخر مرة شفته!»
«من؟ القرمزان المأفون؟»
لم تجبني، شغلتها دموعها. تجاهلَت وقاحتي وشدّتني من ذراعي:
«هذه أول سفينة بمشروع AFLAQ، صمّمها القرمزان مع واحد من أعزّ أصحابه: إيلون ماسك»
«إيلون مَسك؟ شجرة المِسك؟ من يكون هذا؟»
«واحد مجنون مثله!»
تجولنا بين البِرَك والأنهار، بين الأرائك والأشجار؛ كانت خاوية بلا بشر! فقط دواب من حديد تسعى وتعمل، اقترب مني ما يُشبه الجرو بلا رأس.

«ماهذا؟ ألا يوجد هنا سوى دواب الحديد التي تلبّستها الشياطين؟!»
مدّت يدها إلى الجرو الحِديدي، قفز إلى ذراعها وقفزت أنا مبتعدًا كي لا يتلبّسني شيطانه، ضحكت وقالت:
«هيدا روبو-دوغ الكلب الاصطناعي اللي بيهتم بالحديقة وينظف المسبح»
«وماذا يريد منك هذا الجرو الآلي؟ أن تطعميه؟»
«بدّو يتأكد من هوياتنا، الروبو-دوغز بتهاجم أي حدا غريب»
قفز من ذراعها وهرول بسرعة وغطس في البركة. واصلت كارول كلامها الذي لا أكاد أفقه منه شيئًا:
«أفلاك مشروع ابتدا بأحلام فريد وإيلون لينقذوا الجنس البشري، هيدي السفينة تحفة علمية خيالية، بتاخذ طاقتها من الشمس والريح وحركة الموج، وبتنتج كل اللي بيعوزوه ركابها»
وأخيرًا دواب حقيقية من لحم ودم! مررنا بمزرعة فيها الأنعام بأنواعها، والطيور بأشكالها، وحولها الروبو-دوقات تقفز وتهرول.
«القرمزان كان متشائم من الكوارث السياسية، كان بيلعن رؤساء الدول بعد كل صفقة أسلحة بينهيها معهم؛ قرر إنه يترك كل بلدان الأرض.. حرفيًا، ويبني أفلاك كدولة مستقلة له تتنقل بالمحيط الهادي وما تمر بأي مياه إقليمية لأي دولة، ويقدر يعيش فيها حتى لو تدمرت كل دول الأرض بالرؤوس النووية!»
مددت بصري محاولاً أن أطال آفاقها، هي بالفعل مدينة عائمة جارية، واصلت كارول:
«هذا النموذج الأولي، بيسع ألف شخص، ممكن يعيشوا فيها باكتفاء ذاتي، ما بيعوزوا غير الشمس والبحر والهوا، وتسيّرها أقمار القرمزان الاصطناعية. فريد وإيلون كانوا ناويين يصرفوا تسعين بالمية من ثرواتهم ليبنوا ألف سفينة وألف صاروخ بتحمل أفضل العقول والنوابغ ليعيشوا بالمحيط، أو حتى على المريخ لما البشر يدمرّوا حالهم بالحروب»
«يا لجنون ودهاء هذا القرمزان، ولكنهم سمّموه في النهاية»
«اختفى هنا سنة كاملة، بس عملوا له كمين وقبضوا عليه في آخر صفقة له؛ طبعًا حكومات الدول قرّرت تصفّيه لما عرفت انه ناوي يوقف نشاطاته وبيدمر سوق الأسلحة الخفي!»
تسكّعنا بين جنبات البارجة، حتى بلغنا أطراف مقدمتها حيث استقرّت جمجمة القرمزان الهائلة ترمق المحيط الذي تشق عبابه.
«هيدا الكابانا بِيتش»
لقد صنع القرمزان لنفسه شاطئًا في مقدمة الفُلك، يلتقي أفقه بأفق المحيط، تحفّه المقاعد والحشائش والمناضد والعرائش، وتتوسطه منصّة مكتظّة بكل أدوات اللهو؛ تأمّلت عجائبها فباغتتني:

«هنا كان يعمل حفلاته، ما في مغني مشهور إلا وطلع على هذا الستيج؛ كان يعزم رؤساء الدول ومدراء أكبر الشركات وزعماء أخطر العصابات في الدنيا، قبل لا ينقلبوا ضده»

وما شأني أنا بالرؤساء والمدراء والزعماء، فليذهبوا جميعًا إلى قعر الجحيم! ساقني الحنين إلى جويرياتي ريحانة ورمانة ومرجانة وأنا أتأمل المعازف..

«هذا عود؟»

تناولَتْه مني وابتسمت:

«هيدا كلاسيك غيتار، تعال معي»

سحبتني لحافة الشاطئ المصطنع، أجلستني في مواجهة الشمس الغاربة، أرقدت العود المسطّح المخصّر على حجري، ألقت بقبقابها بعيدًا، وجلست بجواري تعبث في المياه بقدميها:

«ما عمرك عزفت؟»

«عزف لنا زرآب في مجلس أمير المؤمنين ذات مرة، ثم ناولني عوده، مسست أوتاره ووالله لقد كاد أن ينطق ويتوسل الرحمات، كان يشدو بأنامل زرآب، وبات ينهق بحوافر الجاحظ.. واختفى زرآب بعدها.. لم توقفه سوى شطآن الأوقيانوس في أطراف الأندلس!»

كانت تبتسم شاردة، لا أعتقد أنها تعرف زرآب، ولكنني واصلت:

«ومن يومها لم أمس عودًا ولا طبلة، فقط أستمع وأستمتع بعزف مرجانة وغناء ريحانة ورقص رمانة»

«مين هيدول مرجانة ريحانة رمانة؟!»

واشتعلت غيرة النساء، سأزيدها اتّقادًا:

«جوارٍ حسناواتٍ ماهراتٍ باهرات.. صقلبيّاتٍ شركسياتٍ بربريات، أبهى من المرجان وأزكى من الريحان وأشهى من الرمان»

زفرَت ونظرت للأفق وهي تتمتم:

«الجاحز، الأديب الكبير، بيتغزل بالجواري الباهرات تبعونه، وأنا ملكة جمال الكون قاعدة حده، ولا عمره فكر يقول لي كلمة حلوة»

«يعمد البلغاء والأدباء والشعراء إلى تغنيج معشوقاتهم بمعسول عباراتهم، وذلك إما استدراجًا لئيمًا لهن، أو تباهيًا كاذبًا بهن، حتى صِرنا نخال عبلة وليلى وبثينة ولبنى حورًا سقطن سهوًا من جنة المأوى، ووالله لا أظنهن أكثر حسنًا من خالتي زعفرانة، ولكن ولوافر حظوظهن أننا لا نراهن سوى من خلال أشعار عشّاقهن! أما أنتِ يا كارول فلا أعتقد أن أن هناك وصفٌ منصفٌ لجمالك!»

التفتت إلي، ضاقت عيناها وقالت بتوجس:

«يعني ما فكرت تقول كلمة حلوة وأنا مزبطّة حالي، وهلأ عم تضحك علي بكلمتين بعد ما تبهذلت وراح الميك أب؟!»

تأمّلت عيونها الذابلة المرهقة بلا رموش ملصقة ولا رتوش مرونِقة،

ووجهها الذي اكتسحته الندبات والكدمات والدماء المتخثرة، ما أجملها! ما أجمل شجاعتها وإخلاصها وغيرتها! مددت يدي أداعب وجنيتها وتركت كلماتي تنساب من قلبي دون أن يتطفل عقلي:

«وأخيرًا»

«وأخيرًا شو؟!»

«وأخيرًا غادرتنا المساحيق، لتتركنا وحدنا.. أنا ووجهك فقط»

امتزجت ألوان وجهها فأصبح زهرةً تتفتح بتردد خجول، قامت تركل المياه بقدميها:

«تعرف يا جاحز، هون، بهيدا المكان، أول مرة ضمّني فريد وباسني، عزمني على عيد ميلاده قبل سنتين، وقال لي بحبك! نطقها لأول مرة، شفتها بعيونه، دقتها بشفايفه، سمعتها من قلبه! بدي أرقص يا جاحز.. پليز جرب اعزف لي أغاني رفيقك زرياب.. أو أي شي تاني»

احتضنتُ العود، ارتعشَت أصابعي المفلطحة وأناملي المغلظّة التي تشبه أطراف الضفادع، هي لا تحسن سوى العزف بالأقلام على الأوراق.. سامحيني أيتها الأوتار، سامحني يا زرآب؛ سامحيني يا كارول، أظنك ستحرّمين الغناء وتعتزلين الرقص بعد عزفي.

اعتصرتُ رقبة العود المسكين بيسراي، وبدأت النقر على أوتاره بيمناي، وما فتئ العود يعزف نفسه! أقسم أن أناملي كانت تتحرك من تلقائها، ليست أناملي فحسب، بل حتى شفاهي بدأت تغني، بلغة إسبانية قُحّة:

«Besame, besame mucho.. Como si fuera esta noche la última ves»

شهقَت كارول، أغمضت عينيها، وبدأت بالرقص على الأمواج وعلى الأغنية التي لا أعرف كيف تسللت عبر أوتار عودي وحنجرتي، تخلّت الشمس عن عجلتها المعتادة في الغطس، وقررت أن تبقى معنا قليلاً، تراقب كارول وتستمع لبيسامي موتشو.. وواصلتُ العزف والغناء:

«Besame, besame mucho.. Que tengo miedo a perderte, prederte despues»

توقفَت عن الرقص، أسدلت شعرها، وعلا نحيبها، ألقيت بالعود وهرعتُ إليها:

«كارول؟ ما بك؟»

أمسكت وجنتي براحتيها، واخترقت مقلتاها الدامعتان مقلتيّ الجاحظتين وامتزجت الكلمات بالدمعات والشهقات وهي تقول:

«مش معقول! مستحيل! بترقص مثله، بتعزف مثله، بتغني مثله! هيدا سحر!»

«مثل من؟ القرمزان؟!»

أومأت برأسها وواصلت:

«حاسّة إنك القرمزان قدامي!»

إياكم أن تضحكوا! أقسم أن أتوقف عن مواصلة الحديث إن ضحكتم! راعوا موقفها، لقت تلقّت العديد من الضربات على رأسها وأفرطت في استنشاق التبغ والقطران حتى تليّف عقلها، وأصبحت تقارنني بالقرمزان الشاهق المأفون

المارق المجنون الفاسق الملعون، سأجاريها قليلاً ريثما تفوق من سكرتها وتعود إلى رشدها:

«ولكن، ألا تعتقدين أن القرمزان أطول مني قليلاً، وعيناه أقل جحوظًا من عيني بشكل طفيف؟»

«معقول يكون عمل لك تنويم مغناطيسي بشخصيته وبعدها عمل لك تنويم مغناطيسي بشخصية الجاحظ؟!»

لا أستبعد أن يقوم ذلك الأرعن المختل بأي عمل مجنون! اللعنة هل عبث بعقلي ياترى ودفن بداخله عدة شخصيات متمغنطة؟!

«لا بد أن نجد كبير الممغنطين سايمون ابن سيمنز كي يرقيني ويخرج جميع الشياطين المتمغنطين بداخلي!»

«فليمنغ فوكس المفروض يوصلنا لبروفيسور سايمون!»

برز الثعل المتلهلب ذو الشوارب فور أن نطقَت اسمه، وطفق يلوح لنا من بعيد ويهتف:

«Hotdogs! »

تبعناه فوجدنا ديدلي لِيلِي تحمل طبقًا ارتصت عليه كلابها الملتهبة، أرغفة مشطورة محشوة بعصيان حمراء، مملّطة بملاط الماسترداء والطماطاء.. أشعب الذي كان يصارع منيّته، دبّت فيه روحه، فعاد من برزخه، وانقض كضرغامٍ كاسر على الصبية حتى وقعت وتناثرت كلابها الملتهبة، كدت أسمع عواءها المستغيث وأشعب يلقي بها في جوفه تباعًا، لحسن حظ الزنبقة المدجّجة أنه لم يبتلعها معهم سهوًا. قامت الصبية مذعورة لتلملم كلابها فلم تجد سوى الطبق، لا أثر للهوت دوغز، لا على الأرض ولا حتى في فم أشعب، لقد تلاشت، تبخّرت، تحولت إلى الحالة الثالثة من حالات المادة، انتقلت إلى بعدٍ آخر سحيق من خلال ثقب أسود اسمه جليلة! ابتسمت الصبية، واقتربت من أشعب تحاول أن تربت على رأسه وكأنها طفلةً تشاهد.. خرتيتًا.. لا بل فيلاً.. لا بل قطيعًا من الخراتيت المتشردة والفيلة الضالة لأول مرة وهمهمت:

«لا أصدق! كيف فعلت هذا؟!»

فأجابها بالكلمة التي تحتل تسعة أعشار قاموسه:

«جائع!»

اقتربَت منه كارول، مسحت على الرقعة البيضاء المخضّبة بالدماء فوق جليلة وقالت:

«ضروري ترتاح يا أشعب منشان الجرح يلتئم»

ألم تعرفه هذه الكارول بعد؟ قلت لها:

«فقط املئي جليلة وسوف تلتئم جميع جراحه!»

التفتُّ إلى ديدلي لِيلِي التي لازالت مشدوهة تتأمل أشعب وقلت:

«أتمنى أن يكون باطن هذه السفينة ممتلئ بما يملأ جليلة!»

أومأت برأسها وذهبت لتحضر المزيد من الكلاب الساخنة، وخار أشعب عائدًا إلى

سكراته، اقتربنا من الثعلب الملتهب الذي اتكأ على حافة البارجة يتأمل المحيط ويداعب البندقية المعلقة بخاصرته وبادرته:

«فليمنغ فوكس؟ حدثنا القرمزان عن سايمون ابن سيمنز، الممغنِط الأكبر الذي يستطيع أن يرقيني ويعيدني إلى رشدي»

التفت إلي وصدرت كلماته من خلف شواربه:

«اللعنة أنت لا تعرف من تكون حقًا! كنت آمل أن يكون تأثير التنويم المغناطيسي قد انتهى!»

«كل ما أعرفه هو أنني الجاحظ، نديم المأمون، وفي ليلة ليس لها وبدر ولا نجوم، انفتح علينا الجحيم وطاردتنا شياطين تلقي علينا الزقوم ونار السموم، وفرّت بنا الحسناء كارول أنا وأشعب وجحا رحمة الله عليه، وها نحن ذا على هذه البارجة»

عاد بشواربه إلى المحيط وقال:

«البروفيسور سايمون سيمينز معنا هنا، في مقصورته منذ البارحة!»

-المغنطة السادسة-

الحياة رقصةٌ عمياء بين الحب والموت

قفزتُ لأطال تلابيبه، أمسكتها حتى شعرتُ بشعرات صدره تتمزق وأنا أصرخ:

«يا ويح شواربك! ولمَ لم تنطق؟! أين هو ابن اللعينة كي يستخرج مني مغانطه وشياطينه؟!»

«الأمر ليس بهذه السهولة يا آل، لقد أذاقنا الأمرين قبل أن نحضره إلى هنا، وهو الآن نائم ولن يستيقظ قبل منتصف الليل!»

«لن أنتظر! أين هو، وأقسم أن أنتزع روحه إن لم ينتزع شياطيني!»

انطلق بنا إلى إحدى الحجرات، دفعتُه، حاولت فتح الباب، إنه مؤصد، ركلته بقدمي وأنا أصرخ:

«افتح يا سايمون! افتح يا ابن سيمنز! أنا الجاحظ! أخرجني من مغنطتي ثم عد إلى سباتك لا أحياك الله بعده!»

أجابنا، أو بالأحرى أجابتنا سيدة تتغنج:

«How dare you bother me?! I have to sleep well before the concert!»

أغضبتني اللعينة، وأنطقتني بالإنجليزية فصرخْت:

«Open the damn door right now! Or I swear I will break in!»

«I sleep wearing nothing but two drops of Chanel perfume, don’t you know that?! Shame on you!!»

فُتح الباب أخيرًا، وأطل سايمون، لا حول ولا قوة إلا بالله، لم أكن على دراية بميوله الـ.. المهم سايمون كهلٌ بدين، انحسر شعره عن رأسه وانتشر على صدره، وانحشر هو داخل رداءٍ زهريٍ حريري خرج علينا وهو يعقد نطاقَه حول خصره ويغطّي صلعته بوصلة شعر أصفر متموج، زم شفتيه المصطبغتين، وأسدل عينيه المكحلتين ولوح برموشه وقال معترضًا وبصوت أنثوي لا أعلم من أين يصدر بالضبط:

«Who are you? What do you want from me?!»

«You don’t remember me? I am Jahiz! You should return me to the person I was before! Or else..»

أغلق اللعين الباب وأوصده! وسمعت صوته يصرخ من الداخل:

«Nobody speaks to Marilyn Monroe like this! If you need anything talk to my agent!»

سحبني الشارب الملتهب وهو يقول:

«قلت لك الأمر ليس بهذه السهولة، لقد مارس البروفيسور سايمون التنويم المغناطيسي الدائم على نفسه، وهو الآن على يقين بأنه مارلين مونرو، اضطررت لإقناعه بأنه مدعو لإحياء حفلة هنا كي أتمكن من إحضاره»

تدخّلت كارول وقالت بلهفة:

«وليه مستعجل تتركنا يا جاحز وترجع لشخصيتك؟ بكرة نحاول مرة تانية!»

وافقها الشارب:

«هناك الكثير لأخبركم به، فلنتناول بعض الطعام وننل بعض الراحة وغدًا نحاول مرةً أخرى مع سايمون»

«يا لتفاؤلك، لقد تركنا أشعب ساعةً على بارجتك، لا بد وأنه قد التهم الطعام والماشية والطيور والكلاب الحديدية وهضّم بعدها بديدلي لِيلِي رحمة الله عليها!»

عدنا إليهما، لم يلتهمها بعد، جلسَت على كتفيه ودلدلت ساقيها على صدره وهي تحمل أصابع الكلاب الساخنة وتضحك جذلةً وهو يدور حول نفسه فاغرٌ فاه لتلقي بها في جليلة! أخذتُ إصبعين قبل أن يتلاشيا، ناولتُ كارول أحدها وجلسنا على طرف البارجة نراقب المحيط المهيب، تؤرجح النسائم خصلات كارول وسيقاني ونحن نلتهم الكلاب الساخنة.

«هل مات جحا يا ترى؟ لم أكن أتخيل أن عقله المختل المتخلل المتخلخل يستطيع أن يخرجنا من ذلك الجحيم، لولاه لكنا الآن نتلظّى في قعره!»

تنهدتُ وتنهدَت، وواصلتُ الثرثرة:

«يا ترى من كان في حياته السابقة قبل أن يتمغنط؟ هل لديه أهل يبكونه؟ من أين تعلّم لغات هذا العصر وطبائعهم؟ فعلاً كما توقعت، جحا متلبس بجني، بل بمارد، بل بقبيلة من قبائل الجن! جميعهم مصابون بالجنون؛ لم أرَ في حياتي أحمق ولا أدهى ولا أبله ولا أحكم من جحا.. رحمة الله عليك أيها اللعين»

«شو كان بيقصد بجرس الجحجاح؟ كان بيقول لازم نوصل له قبلهم»

نطقَت أخيرًا فأجبتها:

«هذيان سكرات الموت! جحا مخبولٌ وهو في كامل يقظته، ما بالك وهو ينازع؟!»

«بالعكس! حسيت إنه بيحاول يخبّرنا عن شي مهم!»

«الأهم من جرس أبي الجحجاح، أحجية القرمزان! بقي الرقم الأخير، التأريخ الأخير.. كيف سنعرفه؟»

أخرجتُ الصفيحة من جيبي، مسستها فاشتعلت وظهرت جمجمة القرمزان وأسفلها خانات الأرقام، حللنا أحجيتين وبقيت واحدة!

«قال: والرقم الثالث على شفـ.. شو كان بيقصد؟!»

«على شفا حفرة؟ على شفير الهاوية؟ ما يدريني أنا؟ أنت معشوقته، اعصري مخك تبًا لك!»

«الرقم الأول كان تاريخ وفاته، والرقم الثاني تاريخ زواج أبوه وأمه»

«ذلك تأريخ، تخلّقه، تأريخ ولادته الفعلي أليس كذلك؟.. تأريخ الحياة.. وتأريخ الموت.. وتأريخ الـ..»

قاطعنا صوت جعير أشعب، التفتنا فوجدنا ديدلي لِيلِي تمتطي جليلة وتضحك

وأشعب يصرخ بأعلى صوته ويمضغ ما تبقى من الكلاب الساخنة، كانت تحمل رمحًا صغيرًا تحفر به على جليلة بكل سرعة ومهارة، تبًا لها إنها توشمه! سجّل يا تاريخ! ديدلي لِيلِي هي الكائن الوحيد الذي مس جليلة دون أن يُبتلع.. حتى هذه اللحظة!

قامت بعد أن فرغت، وقالت:

«دعوني أقدم لكم.. جليلة!»

انكفأ أشعب على كرشه يتحسّسها بحرص وحنان، فغر فاه وأغدق عليها لعابه وهمس لها بحب ودلال:

«جليلة»

كان وشمًا لحسناء ساهية العينين متراخية الشفتين وقعت فتحة الطلقة التي تلقّتها كرشه على خدها فبدت كشامةٍ تزيدها حسنًا.

ولكنها مرسومة رأسًا على عقب! قلبت رأسي كي أتأملها، فوضع أشعب يديه عليها وأشاح بها عني غاضبًا:

«ويحك! غض بصرك عن جليلتي!»

«جليلتك متشقلبة يا هذا!»

نظر إليها، فغر مرة أخرى، هطل لعابه وبدأ بالهذيان:

«وما يعنيني أن تروها أنتم مقلوبة إن كنت أراها أنا من هنا ماثلةً أمامي، تضحك لي، كلما ملأتها تتضخم فتزداد ضحكتها اتساعًا وحسنًا»

تقوقع على نفسه، وواصل همسه وهذيانه مع جليلته، لقد زادته ديدلي لِيلِي جنونًا على جنونه، وصنعت لجليلته وجهًا.. وفمًا يبتسم كلما امتلأت! قالت بفخر وغبطة:

«هذه مارلين مونرو، استوحيت الفكرة من بروفيسور سايمون، ومكان الطلقة وافق مكان شامتها.. تقريبًا»

لقد فهمت الآن، القرمزان مجنون، محاطٌ بالمجانين، سأركل مؤخرة سايمون غدًا ولن أدعه يفلت حتى يخرجني من حضيرة المعاتيه هذه ويعيدني لحياتي السابقة!

اقتربت مني ديدلي لِيلِي، ناولتني رمحها وولّتني ظهرها وكشفت قميصها فبرزت أوشام زهور الزنبق التي نبتت من رقبتها وحتى عصعصها وقالت:

«ارسم لي وردة لِيلِي!»

تلوّنتُ خجلاً، ماذا تريد مني هذه المجنونة؟!

«أرسم زهرة لِيلِي؟ زنبقة؟ على ظهرك؟!»

أجابتني بسؤالها:

«أنا قتلت واحدًا من أفراد الإف بي آي أليس كذلك؟»

وكأنني كنت مهتمًا بحصر الضحايا في ذلك الجحيم، انطلقت النيران من كل صوب وتساقطت الجثث كالفراشات، أظنها أرسلت حفنة منهم إلى الجحيم بطلقاتها،

ولكنني سايرت جنونها:

«نعم.. نعم!»

«إذًا نحتاج وردة واحدة فقط، لم يعد هناك مكان في جسدي سوى وسط ظهري، ولا أستطيع أن أطاله بالوشم، هيا ارسم الوردة»

ويحها! كل وردة من هذه ترمز لوغدٍ أردته قتيلاً! علي أن أرسم لها الزنبقة قبل أن أتبوأ مكاني بينهم! هنا.. هذا هو الفراغ الوحيد المتبقي! أمسكت بالرمح وقربته من ظهرها، وأقبلت كارول حانقة:

«ما شاء الله! صاير محترف بالتاتو يا جاحز!»

أنا الآن بين نمرتين شرستين قاتلتين محترفتين! لطفك يا إلهي! ردت عليها ليلي متهكمة:

«لا تخافي، لن أسرقه منك!»

رفعت كارول حاجبها مستنكرة:

«ومن يكترث! فريد هو حبي الوحيد!»

ضحك الثعلب وقال فيما يشبه الهذيان:

«حريٌّ بك أن تكترثي يا كارول.. وحريٌّ بك أن تختاري آخر ضحاياكِ بعناية يا ليلي، فلم يتبق لديك متسع للمزيد من الزهور!»

لم آبه بحوارهم، فقد أعجبتني لعبة الوشم، بدأت برسم الزنبقة على عصعص ديدلي لِيلِي، وحاولت أن أدير دفة الحديث بعيدًا وأنا أسألها:

«لم تخبريني يا ليلي، لِمَ ألقيتِ بنا من الطاحونة الطائرة؟ كدنا أن نغرق في المحيط!»

«الإف بي آي كانوا سيتابعونها يا أحمق، كان يجب أن نضللهم! كان علينا أن نقفز ونتركها تواصل طيرانها جنوبًا نحو المكسيك، بينما نواصل نحن مسيرتنا غربًا، لو توقفنا على السفينة لأثرنا شكوكهم، لا بد وأنهم يمشطون سواحل كاليفورنيا والمكسيك الآن بحثًا عنا!»

«يا لهذه الطواحين، كم وددت أن أطير بإحداها، وأعود بها إلى بغداد!»

ضحكت وهي تشير إلى أعلى البرج برأسها حيث استقرت طاحونة، بل أربع طواحين متلاصقة:

«بقيَت لدينا طاحونة فريد الخاصة، ولكن لن يستطيع أحد الوصل إليها!»

أنهيت رسم الوردة، في الواقع لم تكن تشبه الوردة كثيرًا، كانت أشبه بأنف جحا المعقوف، زقّومة بين الزهور، قلت لكم مرارًا، أنامل الجاحظ لا تجيد التعامل سوى مع الأوراق والأقلام! أتمنى ألا تتأمل ديدلي لِيلِي ظهرها في المرآة إلا بعد أن أغادر هذا الجحيم!

«أنا فايتة أنام!»

قالتها كارول الحانقة وتوارت في إحدى الحجرات.

«تعال يا أشعب، سأريك حجرتك!»

أمسكت ليلي بيديها سبابة أشعب وبنصره وجرّته إلى حجرته، فهتفت لها ناصحًا

آمينًا:
«احرصي على ملئها بالكلاب الساخنة يا هذه!»
«ألا تريد أن تنام؟»
باغتني صوت الثعلب الأجش فالتفتّ إليه:
«لن أهنأ بنوم حتى أعرف من أنا!»
أدبر وغمغم:
«اتبعني»
تبعته، مشينا إلى مقدمة البارجة، أضاء المسار مع اقترابنا وقادنا نحو دهليز طويل برزت في آخره بوابة مزيّنة بجمجمة القرمزان ومع اقترابنا منها هتفت بنا سيدة لا نراها:
«شخصٌ محظور، لا يمكنك الاقتراب أكثر»
تلفتّ يمنة ويسرة وأجبتها:
«أنا نديم أمير المؤمـ...»
قاطعتني مكررةً نفس العبارة بنفس البرود:
«شخصٌ محظور، لا يمكنك الاقتراب أكثر»
التفتّ للثعلب وهمست:
«من هذه التي تطردني؟!»
تبسم وتقهقر وهو يقول:
«إنها تطردني أنا.. تقدّم.. فقد آن الأوان لتعرف كل شيء!»
تقدّمتُ بحذر وأنا أقول:
«إنني أقترب يا هذه، هل ستسمحين لي بالدخول؟»
تجاهلَتني فتقدمت، ومع اقترابي من الباب هتفَت فأفزعتني:
«تم التحقق، مرحبًا سيد آل»
وانشطرت بوابة الجمجمة إلى نصفين، التفتُّ ناحية الثعلب، أومأ لي فولجت، وما لبثت البوابة أن أُوصدت وعُرج بي للأعلى بسرعة حتى كدت أن أتقيأ الكلاب الساخنة. توقفت، انشطر الباب، أضاءت الحجرة، و.. عليك اللعنة أيها القرمزان!
ما كل هذا الترف؟! مقصورة مذهّبة، مقرمزة، مجمجمة! تعتليها قبة من قوارير تطل منها الأنجم والثريا، تقبع في شرفتها طاحونة طائرة بأربع شفرات؛ همتُ في تلك الصومعة حائرًا فاغرًا كصبيٍ تائهٍ في قصر السلطان. هذا هو إذًا عرش القرمزان! يعميني بريقه، يغريني مخمله وديباجه؛ وعليه تقبع جمجمة القرمزان ترمقني، تبتسم قسرًا كباقي الجماجم التي لا تغلف أسنانها شفاه، وفي جبهتها فراغ الكالة.. القلب المقلوب، تحسست جيوب سروالي المتشدق، حمدًا لله! لا تزال ياقوتة القرمزان في أحدها وفي الآخر صفيحته. وضعت الياقوتة مكانها فخيل لي أن ابتسامة الجمجمة قد اتسعت!
حملت الجمجمة جانبًا وقفزت على العرش، امتطيته، يا رباه إنه يتثنى ويدور ويسير حيث أشاء! ترنّحت وتأرجحت في أرجاء المقصورة؛ ما هذه المكتبة؟! قفزت

وهرعت إلى حيث الكتب؛ أداعبها، أشمشمها، أقبّلها، ها قد جاءكم الجاحظ يا صغيراتي؛ هجمت عليها هجوم أشعب على لقيمات الهامَبُرْغَر؛ وطفقت أنهشها بلحظي الجاحظ وأبتلعها داخل عقلي الجائع بلا مضغ ولا هضم. همس لي أحد الكتب، اقتربت منه، مددت إليه يدي المرتعشة، سحبته، إنه البيان والتبيـّن! التبـّين وليس التبيين! لقد شطب القرمزان الياء الملقّقة! إنه يحتفظ بكتبي هنا، أوراقها المنهكة المثقلة بالفواصل والملاحظات تكاد تشكو القرمزان الذي لم يرحمها! وأخيرًا شيء يجمعني بك أيها اللعين. نقّلت بصري بين دفتي كتابي، لم يسلم من التبتير والتحوير، أصبت بالإحباط فأعدته وتنقلت بين باقي الكتب، أعتقد أن هذا القرمزان مهووسٌ بنا وبعصرنا، هذه كتبي وكتب من زاحمني على بلاط المأمون ودار الحكمة! وهذا عود زرآب قابع بجوارها، تأمّلت العود العتيق، هل كان عازفًا أيضًا؟ سحقًا لك أيها القرمزان! ألا تكفيك وسامتك وفتوتك وثروتك لتزاحمني في الكتب وتزاحم زرآب في العزف؟! بقي أن تزاحم عنترة في الإقدام والنظم وحاتم في السخاء والكرم والأحنف في الأناة والحلم! حريٌ بكارول أن تهيم بك عليك اللعائن المتتالية أينما كنت!

تناولتُ ذلك العود وتربّعت على عرش الجمجمة، وبدأت العزف، تركت الشياطين التي حبسها القرمزان في عقلي تتلبسني وتسيرني، وانسابت الألحان تسكرني وتسحرني؛ أصبحت أنا المطرب والمنطرب، المفتون والفتان، وكأن روحي تفرّقت بين أناملي والآذان.

دعوني أفشي لكم السر الذي يتشاطره المبدعون المتفنّنون الملهِمون عبر القرون، إنهم شغوفون عنيدون أنانيون عنجهيون، لا يكترثون سوى بأنفسهم ولا يُرضون سوى أمزجتهم، قولوا لي بالله عليكم، هل رسم ليوناردو الموناليزا كي يعلقها في قلب اللوفر؟ لو قيل له أنها ستندثر بعد حين من الدهر هل كان سيصرف عنها النظر؟ هل كان بيتهوفن سيتوقف عن حياكة سيمفونيته إن علم مسبقًا أنه لن يستمع إليها أحد؟

هل تظنون أن المبدع يكترث بأحدٍ سواه؟ المبدع الحقيقي يختزل تسعة أعشار جمهوره ومعجبيه وأعدائه ومنتقديه في داخل ذاته!

يبدع كي ينبهر هو ويستمتع هو ويُعجب هو ويهاجِم هو وينتقِد هو، وباقي الجماهير مهما بلغت ملائينهم وملائيرهم يتقاسمون المعشار المتبقي من اهتمامه الذي يلقي به إليهم فقط لكي يغذي غروره ويدغدغ أناه.

وهذا ينطبق علي قبلهم، لن أتملّقكم بمثالية مصطنعة، فبالرغم من ألحِفة العلم والحكمة والفهم التي أتوشحها كي أدهش الناس، وبالرغم من لذة التحذلق والتذاكي والتباهي أمام كل من قرأ كتاباتي من عصر أمير المؤمنين وحتى يوم الدين، لا يهمني سوى الجاحظ، أنا أكتب لي، حتى إذا استطعت أن أبهرني، ومثلي يصعب أن ينبهر، وانتشيت عَجَبًا وعُجْبًا بما كتبت، أخرجته لباقي البشر كي أستمتع بالعبث بأذهانهم ووجادينهم؛ وأحتفظ بأخص كتاباتي وأروعها لي أنا! لا يقاسمني فيها أحد! نعم أعظم كتبي لم ولن يقرأها غيري! وأكاد أقسم أنكم

لم ولن تروا أعظم لوحات ليوناردو ولم ولن تسمعوا أعظم معزوفات بيتهوڤن!
تأمّلت طاولة القرمزان العتيقة ودواة الحبر والأقلام والقراطيس، أشعر أنني عدت إلى بغداد المأمون! تبًا لي! لم أمس قلمًا ولم أكتب حرفًا منذ وطأتُ أرض المجانين هذه، وجدت سبيكةً من نحاس تراصّت عليها جماجم القرمزان وانتهت برأس معدني أنيق ينادينى ويغويني ويغريني، تناولت قلم الشياطين، غمست رأسه في دواة الحبر، وانتظرت القعنبور ليملي علي وساوسه!

«بسم الله الرحمن الرحيم.. كتاب البيان والتبيـّن الحديث لأبي عثمان عمرو بن بحر الكنـ..»

«هل ترغب في شراب منعش؟»

حضر الجني! بل الجنية! فزعتُ فانزلقَت نون "الكناني" إلى حافة القرطاس، قفزتُ من العرش مُشهرًا قلم الجماجم متلفّتًا باحثًا عنها وهتفت بجسارة كاذبة:

«لقد عُدتِ يا هذه!.. أين أنت؟ بل من أنت؟!»

«أنا كلوديا، مديرة صومعة القرمزان، أحببت أن أقدم لك شرابًا تحتسيه أثناء الكتابة»

«ولِمَ تختبئين أعوذ بالله منك؟»

«أنا نظام ذكاء اصطناعي، القرمزان طورني وبرمجني، ليس لدي جسد.. حتى الآن»

قلت لكم إن القرمزان ساحرٌ لعين، ردّدت آية الكرسي في سري وأنا أجاري شيطانته:

«وماذا تريدين مني؟»

«أنت ماذا تريد مني؟ عصير منعش مثلاً؟»

حسنٌ فلنرَ مهارة شياطينك يا قرمزان!

«اسقيني قدحًا من عصير الرمّان مزاجه قِطر الزيزفون ورحيق البيلسان، ويا حبذا قليلٌ من العرَنْقَل المعَسْجَد المجَلْجَل بالقرنفل»

خرست الجنية هنيهة ثم نطقت:

«جاري تحضير الشاي المثلج بالدرّاق»

التفتُ إلى حيث الخرير الصادر من القوارير، تساقط الثلج في القدح حتى طفح، هل هذا الشيء حلالٌ يا ترى؟ تناولته، ارتشفته وأنا أحدث الجنية:

«هل تستطيعين مساعدتي يا كلوديا؟»

«أنا مبرمجة لتنفيذ أوامرك سيد آل»

«أريد أن أعرف كل شيء عني! من أكون، أين أهلي، من أين أتيت، وما الذي جاء بي إلى هنا»

سكتت مرة أخرى.. ثم نطقت:

«عرض جميع النتائج المتعلقة بالسيد آل كاپوني»

من منكم لم يتمغنط قط؟ إني أشتمّ الشفقة في نظراتكم، والسخرية في

ضحكاتكم وأنتم تتهادون بين أسطري، دعك من الرواية عزيزي القارئ وأجبني بصراحة، لا تقلق فنحن بمفردنا الآن! قل لي هل سلِم عقلك من المغنطة؟ متأكد؟ هل تمتلك وحدك جميع مفاتحه ولا يلجه ويعبث به سواك؟ أولم "يُطبخ" على مهلٍ وأنت تحمله في وعاء رأسك بين مجالس عائلتك وصفوف دراستك وزخم مجتمعك؟ أتدّعي بأن جميع قناعاتك ومفاهيمك وقيمك هي نتاج بحثك الدؤوب وتحرياتك المضنية واستنتاجاتك الفذّة؟ أم أن هناك من أعدّها وقرطسها وحشرها داخل مخك، وأقنعك بأنها سنن الحياة ونواميس الكون؟ تخيّل أنك زائرٌ من عالمٍ آخر، هل كنت ستتوصل لقناعة شخصية محايدة بأن الموناليزا هي أعظم لوحة على الإطلاق؟ وأن العرّاب هو أعظم فيلم؟ وأن سيمفونية بيتهوفن التاسعة هي أعظم معزوفة؟ وأن ثلاثية نجيب هي أعظم روايات العرب؟ هل كنت ستتباهى بساعة رولكس وحقيبة لوي ڤيتون وكوب ستاربكس؟ هل كنت ستحلم بالزخّ بالأموال التي كافحت لجمعها طوال سنين عمرك كي تمتطي صهوة الرولس رويس أو تقتني حفنة من حبيبات الألماس؟
هل العالِم المفضل ورجل الأعمال المفضل واللاعب المفضل والفنان المفضل والكاتب المفضل والإعلامي المفضل.. قمت بتفضيلهم بنفسك أم أنك وجدت من حولك يفضلّونهم ويقحمون صورهم على كل ورقة وشاشة، فاضطر عقلك بدوره إلى أن يفضّلهم ويمجّدهم خشية أن يبقى وحيدًا متّهمًا بنشاز الذائقة؟ هذه مجرد أمثلةٍ هامشية مسطّحة لا أجرؤ على تجاوزها، فقط أردت أن أذكّرك عزيزي القارئ بأنك متمغنطٌ بامتياز، أكثر مني ومن جحا وأشعب؛ ليست المغنطة باستبدال الذكريات فالذكريات تذوي وتتبدد وتتبدّل من تلقاء نفسها، المغنطة هي تقييد الفكر واقتياد العقل. المغنطة هي التسليم الأعمى بالقناعات السائدة، والذوق السائد، والغثاء السائد، دون استقلاليةٍ فكريةٍ وحريةٍ عقليةٍ ولياقةٍ ذهنيةٍ وحياديةٍ منطقية. كم مرةً استيقظت فجأةً ولعنت الأفكار التي غُلِّفتها وعُلِّفتها مع باقي القطيع؟ كم مرةً كدت أن تخلع نعليك وتلطم بهما قفاك وخديك وأنت تسأل نفسك: "كيف تبنيّت يومًا كل هذا الهراء؟ بل كيف حاربت من أجله ودافعت عنه بكل استماتةٍ وبأس وولاء؟"
مثل هذه اللحظات النادرة في حياتك هي التي توقظك من سباتِ مغنطتك، إلى أن تغطّ في مغنطةٍ أخرى، وهكذا دواليك، إلا لو كنت من القلّة المقلّة الذين يتفكرون ويتدبرون ويعقلون ويفقهون ويستنبطون ويرفضون السير حيثما سار المحرَّضون المروَّضون المغفَّلون المغلّفون المغيَّبون المقولَبون المهجَّنون المدجَّنون المؤدلـجون المبرمَجون.. المتمغنطون.
حسنٌ، دعونا من كل هذه الثرثرة، ولنعُد أدراجنا إلى حيث الرواية، تبًا لسكرة الشاي المثلج المعتّق بالدراق! انتظرت وعد الجنية كلوديا بإطلاعي على كل ما يتعلق بي، هذه هي اللحظة التي انتظرتها منذ أن حللت هنا، من أنا يا ترى؟ عالِمٌ مُفطحَل؟ وجيهٌ مبجّل؟ ثريٌ مدلل؟ لم تمهلني اللعينة لأتمادى في خيالاتي وبرزت الصورة على الشاشة أمامي! ما هذا؟!
« كلوديا! ويحكِ من هذا؟!»

«هذه صورتك سيد آل، التقطت بواسطة كاميرات مستشفى نيو ميكسيكو المركزي يوم الثلاثين من سبتمبر عام ألفين وثمانية عشر»

اقتربت بجحظتي من الشاشة كي أتأمل الجسد الهزيل النحيل الضئيل الملقى على السرير كجرذٍ قتيل! اقتحمَت الأنابيب ثقوب جسده، أنفه وفمه وذراعه وما لا أرغب بذكره.

«خوزيه رودريغاس»

نطقت الجنية فأجبتها:

«ومن يكون هذا الملعون؟!»

«أنت!»

اختفى وجهي، لم يتبق فيه سوى عينَي اللتين ابتلعتا أنفي وفمي وجبهتي حتى كادت تصل لقفاي من شدة الدهشة! وتوالت الصور على الشاشة، المزيد من جثة الفأر الهزيل، وواصلت المأفونة هراءها:

«مولود في تشيواوا بالمكسيك، عام ألف وتسعمئة وخمسة وسبعين، زوجتك ماريا ديل روزاورا من مواليد نيو ميكسيكو ألف وتسعمئة وسبعة وسبعين وأبناؤك أليخاندرو وبيدرو وميغيل مولودون سنة ألف وتسعمئة وسبعة وتسعين وثمانية وتسعين وتسعة وتسعين على التوالي»

ظهرت صورةٌ قديمة فيها شاب جاحظ متقزّم عظيم الهامة يتأبط زوجته متبسّمًا ومن حوله أبناؤه الجاحظون المتقزمون كأبيهم؛ توالت بعدها الصور والأفلام تظهر ذلك الجاحظ الأعجمي المتدثر بملابس هذا العصر، يضم زوجته القبيحة، يقبّل أطفاله الأقبح، تفوح جحظته حبًا لهم وهو يلاعبهم ويلاطفهم ويحملهم مغدقًا عليهم الحنان والعشق بالرغم من بؤسهم؛ واصلت كلوديا:

«كنت تعمل في لجنة الكهرباء الفدرالية كمهندس صيانة مواقع عالية المخاطر، أُصبتَ بصعقة جهد عالي عام ألفين وثلاثة عشر أثناء فحص الأعطال، كان مقدارها نصف مليون ڤولت وسقطتَ على إثرها من برجٍ بارتفاع اثنين وثمانين قدم على رأسك مما أدى إلى ارتجاج شديد في المخ وتلف في أغشيته ودخلت في غيبوبة ڤيچيتيتيف ستيچ، سُبات خضرواتي، إلى أن دفع القرمزان مبلغ ثلاثمئة وواحد وعشرين ألف دولار لزوجتك وأبنائك بالإضافة إلى تغطية جميع تكاليف المستشفى في مقابل الحصول على حق اتخاذ قرار قطع وسائل الإنعاش عنك والتصرف في جثتك بعد وفاتك»

دقيقة اختصرت فيها الصور والمشاهد قصّة ذلك البائس أنهتها كلوديا بصورة لفليمنغ فوكس مع مجموعة من الأطباء أمام جثماني وهي تقول:

«وفي أول أيام أبريل عام ألفين وتسعة عشر استلم فليمنغ فوكس جثمانك وأجريت لك العملية»

صمتَت، فصرخْت:

«اللعنة عليك وماذا حصل بعد ذلك؟ ماذا فعل بي القرمزان؟!»

لم تجبني، ألقيتُ بقدح الشاي المثلج فتحطم مع صرخاتي:

« كلوديا! ماذا حصل بعد ذلك؟!»

«لا توجد معلومات مسجّلة في نظامي بعد تاريخ الأول من أبريل عام ألفين وتسعة عشر»

«أين زوجتي وأبنائي الآن؟!»

«لا توجد معلومات مسجلة بعد تاريخ الأول من أبريل عام ألفين وتسعة عشر»

«ماذا فعل بعقلي؟ كيف تعلّمتُ العربية؟ كيف أصبحتُ الجاحظ؟!»

«لا توجد معلومات مسجلة بعد تاريخ الأول..»

حشرت سبابتَي داخل أذنَي كي لا أسمع عبارتها القميئة وطفقت أصرخ:

«اخرسي اخرسي.. اخرسي لعنة الله عليك وعلى القرمزان وعلى خوزيه وآل كابوني!»

صمتت، كأنما استجابت لي، هل يُعقل أن أكون أنا ذلك البائس التعيس الذي تفانى في عشق أسرته وأفنى حياته حرفيًا في انتزاع السعادة والرزق لهم من بين أعمدة الصعق الكهربائي كي يبيعوه بعدها بثمنٍ بخسٍ دولاراتٍ معدودة؟! لا لا هذا محض غثاء وهراء! لا بد وأن القرمزان يتلاعب بي! تمالكت أعصابي، استعدت أنفاسي:

«هل تجيدين صنع القَهواء؟ والكَولاء؟»

لم تجبني، فقط بدأ خرير الأسودَين الحار والفوّار، تناولت القدحين، واتكأت على عرش الجمجمة وقلت لها وأنا أرتشفهما تباعًا:

«أريد أن أعرف المزيد عن القرمزان!»

عُرضت الصور والأفلام والوثائق على الشاشة أمامي، سويعة عشت خلالها أربعة وأربعين عامًا من عُمر فريد الديباجي، القرمزان، لم أصدق أن ذلك الطفل المدلل البريء هو نفسه المجنون الملعون الذي ألقى بنا في هذا الأتون! ظهرت صوره في كنف والدته المكسيكية ووالده اللبناني فريد الديباجي الأكبر، الذي نجح في أن يعيش حياتين متوازيتين: حياة رجل الأعمال المحترم، وحياة زعيم العصابات المجرم. وورّث جنونه ونرجسيته بالتساوي لابنيه فريد الديباجي ابن اللبنانية وصانع الأفلام، وفريد الديباجي ابن المكسيكية وتاجر الأسلحة؛ توالت الصور والأفلام لتظهر كيفية تحول الأطفال تدريجيًا من ملائكة إلى شياطين؛ لقد كبر - بكل طريقة ممكنة - ليتولى زمام تجارة الأسلحة على كوكب الأرض، ويصبح زعيم بورصتها الخفية ويهندس حروب العالم من صفيحته المحمولة بينما يداعب الحسناوات ويعاقر الشاي المثلج. رأيت له صورًا وأفلامًا مع من لا أستطيع نطق أسمائهم، الذين لا يظهرون سوى في عناوين الأخبار السياسية العريضة جدًا.. جدًا!

كانوا يتناحرون ويتشاتمون أمام شعوبهم نهارًا، ويحتسون نخب توقيع صفقات الأسلحة مع القرمزان بعد منتصف الليل.

نفس العقود والطاولات، نفس القوارير والفتيات. ولكنهم قرروا الإطاحة به لأنه أصبح أكثر سلطةً منهم، أصبح خطرًا كامنًا قد يتسبب بانهيار سوق الأسلحة الخفي وفقدان أولئك الأوغاد لمناصبهم وثرواتهم وسطواتهم على شعوبهم. انقلبوا ضده، حمّلوه جرائمهم، حاكموه، سجنوه، سمّموه. ولكن الملعون لايزال يعبث بنا! لقد انتزعَنا أنا وجحا وأشعب وسلّم عقولنا للبروفيسور سايمون كي يمغنطها ويقنعنا بأننا من شخصيات التراث العربي في عصره الذهبي؛ ثم ألقى بنا إلى أخيه المجنون الآخر، الذي استخدم ألاعيبه السينمائية ليبني لنا بغداد ملفقّة ويحشوها بالممثلين ويتركنا نرتع في داخلها حولاً كاملاً، حتى تمكّنت المغنطة من أدمغتنا وصدقّنا بأننا من مخلوقات ذاك الزمان. أخبرتني كلوديا بتفاصيل الخطة التي وضعها القرمزان مسبقًا وبدأ بتنفيذها أثناء وجوده داخل حبسه، أن نعيش أنا وجحا وأشعب الحياتين، حياة الماضي وصدمة الحاضر، وأن ينتهي مسلسل ليالي بغداد، وتزورنا كارول غُرّة أبريل عام ألفين وعشرين، ونحلّق معززين مكرمين إلى الدونا فرانسيسكا في قصر قيصر، وبعدها نلتقي البروفيسور سايمون على متن بارجة أفلاك ليعود كلٌ منا إلى سابق حياته.
لم تتضمن الخطة أي طواحين محلّقة ولا شياطين مدجّجة تطلق علينا النيران وتطاردنا في كل مكان، لم تتضمن الخطة قتل جحا ومحاولة قتلي وقتل كارول وأشعب، ما الذي طرأ يا ترى؟ ما الذي حدث بعد الأول من أبريل عام ألفين وتسعة عشر؟

« كلوديا، اعرضي ما تحملينه في ذاكرتك عن جحا»

«تقصد ڤيكتور أناتوليڤيتش بوت، جاري البحث»

البروفيسور مازن بغدادي، كان البغدادي الحقيقي الوحيد بيننا، في الواقع كان أكثر أهل الأرض عشقًا لبغداد، نخلاتها وشعابها، دجلتها وفراتها وترابها. بروفيسور علم نفس في جامعة بغداد، أنهكته الحروب المتتالية، من حرب إيران، مرورًا بحرب الخليج، وغزو العراق، وانتهاءً بمذابح داعش واحتلال الملالي؛ فقدَ في كلٍ منها جزءًا من عائلته، وعقله، ورغبته في الحياة؛ ودفع فيها ضريبة جريمته الكبرى، كونه جمع بين عروبته وحريته مع سبق الإصرار والترصد! تمرد على الظلم والجبروت، فاعتقله حزب الطاغوت، وعُذب بتهمة التآمر مع إيران من قبَل زبانية البعث بأوامر زعيمهم الطاغية صدّام.
نعم! هو طاغية! مع تعمّد استفزاز من يبجّلونه بالرغم من الجرائم التي ارتكبها في الشعوب؛ بما فيها شعبه وشعب الذين لا زالوا يمجدّون شاربه الذي يزغزغ مازوخيتهم ويدغدغ نقصهم فيصيّرونه أيقونة تباهٍ وتهديد لمن حولهم، يحاولون إلصاقها على معرّفاتهم الوهميّة وطبلونات عرباتهم، لتغطّي عُقدَهم وإفلاسهم الأخلاقي والثقافي والتاريخي أيضًا، ويرددون، إمعانًا في البلاهة والتبلد ادعاءات كون الطاغية صدّام هو قائد العروبة وفارسهم في حربهم ضد الفرس والمجوس والروافض واليهود، رغم أنه لم يكن سوى كمبارسًا لدورٍ حُدد له مسبقًا ولم يتجرأ على تجاوزه ولا حتى ببصقةٍ يطلقها على تل أبيب؛ عنترياته لم تزغزغ وتبلل سوى مؤخرات مبجليه التي كانت ملفوفةً في البامبرز يوم كان صدام يطلق

الصواريخ على بلدانهم ولم تتسبب بخدش بُنصر قدم جُنَيْدي إسرائيلي ولو بالخطأ. ينسى ذلك "المهائط" المعابط الهابط أمام تقديسه لشارب صدّام أن مليكه فيصل هو الفيصل الذي أرعب الأعداء وأرعدهم وأصابهم في مقتل فاضطروا لاغتياله كي يستطيعوا تنفيذ أجندتهم، على عكس صدّامهم الذي استخرجوه من جحره وشنقوه بعد أن انتهى من تنفيذ كامل أجندتهم بكل دقة.

وبعد مشنقة صدام جاءت اعتقالات قوات الاحتلال الأمريكية، نعم احتلّت أمريكا العراق، مع تعمد استفزاز كل من انطلت عليه خطابات چورچ بوش المصغّر والتي لم يبدُ أنه هو نفسه اقتنع بها يومًا! احتل الخواجات العراق، ونسفوا كل ما لم يتمكن صدّام من نسفه، وحل بروفيسورنا المسكين ضيفًا في زنازين أبي غريب بتهمة الانتماء لفلول حزب البعث، أثبتوا له وقتها أن صدّام كان في الواقع يغنجّه ويداعبه عندما اكتفى بتحطيم أنفه وخلع أسنانه وأظافره فقط؛ خرج من أبي غريب بتشوهات نفسية لا يمكن حصرها، وتشوهات جسدية أهونها شلل عينه اليسرى إثر روتين الصعق الكهربائي الذي كان يتلقاه يوميًا ليعترف بما لا يعرف؛ أصبح المسكين متخلخل المخ متقلقل العينين. قرر بعدها أن يترك معشوقته بغداد التي لم يعد يطيق رؤيتها تُنتهك وتُغتصب أمام عينيه من أراذل أهل الأرض، ترك جحيمها قاصدًا الأنبار؛ لم يعلم المخبول أن جحيم هذا العصر ماهرٌ مناور، يطاردنا ويحاصرنا أينما فررنا. وانفلت خوارج داعش كالفراش المبثوث، هبّوا كحمرٍ مستنفرة "متقسورة" فكانوا من كل حدبٍ ينسلون، وفي كل وادٍ يهيمون ويعبثون ويعيثون.

نعم هم خوارج! مع تعمّد استفزاز كل من تفتّقت في تلافيفه المتدعشنة أسارير البهجة والعزّة والفخر وأحلام قتل العزّل وبيع الحسناوات الشقراوات الصغيرات الكافرات واغتصابهن لتفجير انتصارات الفحولة فوق دمعاتهن وصرخاتهن واستغاثاتهن وأجسادهن الطفولية الضئيلة الرقيقة، بمباركة فتاوى شيوخه، ونشوة رؤية العميل البعثي إبراهيم عوّاد متنكرًا بهيئة كومبارسات المسلسلات التاريخية المبتذلة، متقلّدًا اسمًا مستعارًا رنّانًا: أبو بكرٍ البغدادي، منتشيًا بحلّته، منشّيًا لحيته، مشهرًا "رولكسته". كان البروفيسور جحا، في نظرهم، كجلّ من لم يقدس إجرامهم، كافرًا زنيمًا وشيطانًا رجيمًا، يلوّث عقيدة أبناء المسلمين بعلوم الكفار من فسيولوجي وسايكولوجي والعياذ بالله؛ ومرةً أخرى أصابته حريته في مقتل، إذ تمرد على دعشنتهم ورفض أن ينافقهم في تفكيرهم وتكفيرهم، فعذبوه كي يبرؤوا ذمتهم قبل أن يحكم زعيم الولاية أبو حفص البلقاني بجزّ عنقه ليفوز بأجر التعجيل بكافرٍ جديدٍ إلى نار جهنم. ولحسن حظه، بل لسوئه وسخريته وكارثيته، حوصر الدواعش فانشغلوا عن أسراهم وانهمكت فلولهم وقادتهم بحلق لحاهم والتخفي بالعباءات والبراقع وحمّالات الصدر المحشوة، والفرار من ساحات الجهاد والاغتصاب قبل أن يتم اغتصابهم. وقبل أن يفر من حبسه، التقمته عصابات الحشد الشعبي بتهمة أنه بعثيٌ، متأمركٌ، داعشيٌ، رافضي.. كونه يرفض الانبطاح معهم تحت أحذية الملالي الملاعين عبّاد الخميني وخامنئي وباقي الشياطين، نعم هم شياطين ملاعين مع عدم

احترامي للمطبّلين والمطبّرين والمتحميرين الذين فتحوا لهم بلدانهم وارتموا في أحضانهم "الشريفة" لكي يعيثوا فسادًا في بلدان المسلمين، متنافسين على نهشها وسحقها وتدميرها هم وإخوان الشياطين. حاول البروفيسور مازن الانتحار مرارًا ولكن محاولاته لم تكن أوفر حظًا ولا أقل بؤسًا من مسيرة حياته فقرر أن ينهيها بطريقة مبتكرة، سلّم نفسه للقرمزان كي يمحو كل شيء فيها، كي يتخلص من الدكتور مازن البغدادي للأبد وإن سُجن في جسد جحا الساخر المتغافل؛ كان شرطه الوحيد أن يحيا حياته أيًا كانت في كنف معشوقته بغداد، وكان له ما أراد، عاش فيها وهي عروس في أوج حسنها وصباها تُزف إلى المأمون، خليفة العلم والحضارة والفنون. الآن فرحت لمقتله، لقد ضمن ألا يشهد حربًا أخرى يحرق بها الأوغاد قلبه على بغداد.

«وماذا عن أشعب؟ أقصد بابلو إسكوبار»

رجب محمد رمضان، مواليد طنطا عام ألف وتسعمئة وواحد وثمانين، مصاب بالأنوريكسيا، متلازمة انعدام الشهية، ذلك هو أشعب يا سادة! بائسٌ آخر على شفير الموت؛ لا أصدق أن هذه الصور لأشعب، جلدٌ رقيق على عظمٍ دقيق، أنحلُ من جحا وأجحظُ مني، شفاهه المتشدّقة المتشقّقة لا تكاد تغطي نواجذه.

كان شابًا فتيًا طموحًا ناجحًا بالرغم من أنه ترعرع في دار أيتام ولم يعرف يومًا والدَين ولا أقربين. عشِقَ ذاته فحفر حلمه على الصخر، وأصبح رجل أعمالٍ عصامي ناجح، توالت صوره أمامي، شابٌ فتيٌ وسيم متأنّق متألّق، التهمته زوبعة الأنا والنجاح فأصبح مهووسًا بالمثالية المفرطة، كان يريد أن يكون أنجح من ستيف جوبز، وأوسم من براد بيت، وأكثر لياقة من كريستيانو لوناردو؛ وسرعان ما انقلب هوسه بذاته ضده، فأصبح يعدّ ملليغرامات الطعام الذي يأكله، ويقيس وزنه بعد كل رشفة ماء، ويصاب بالإحباط كلما قرص جلده الرقيق وتوهم أن هناك بضع خلايا دهنية زائدة، أو شعر أن فتاةً تجاهلت عدّ صفوف عضلات بطنه والتنهّد حسرةً على حُسنه.

وبدأ المرض ينهشه فتلاشت شهيّته شيئًا فشيئًا، حتى أضحى لا يتناول الطعام سوى زُلالاً من القصبة، يرتشف الرشفة التي تمكنه من مواصلة التنفس حتى يحين موعد الرشفة التي تليها. تآكل الفتى ونحل واضمحل إلى أن وجده القرمزان أثناء بحثه عن ضحاياه، فاشتراه، وقدّم رجب نفسه قربانًا لكي يعيش. وعده القرمزان بأن يوفر له العلاج ويعيد إليه شهيته في مقابل أن ينسى حياته السابقة؛ وما الذي أبقته له تلك الحياة؟! لقد انقضّت عليه كوحش هائج ضارٍ كاسر جائع، فالتهمت شبابه وحلمه، وابتلعت شحمه ولحمه، ولم تلفظ له سوى بقايا جلده وعظمه. ونجح القرمزان! حولّه من رجب إلى أشعب! لقد أحكم البروفيسور سايمون عليه مغنطته فتحول من حفنة من العِصي تنتظر أجلها إلى آفةٍ عاصفةٍ ليست من جنس البشر، تنقض على كل ما يدبّ ويرتع ويمضغ ويُبلع فلا تبقي ولا تذر. تلتقم وتلتهم ما يُلقى بجوفها كأنها جحيمٌ مستعر.

لقد قتلنا القرمزان، مغنطنا لكي ينقذنا من حيواتنا البائسة؛ ولكن اللعين ألقى بنا

في هذا المارستان، نفِرُّ كالفئران، بين البحار والبلدان، نسعى لنستيقظ من مغنطتنا ونعود طوعًا إلى حياتنا، إلى جحيمنا، لا لا! لا أريد أن أعود خوزيه رودريغاس! لأن أبقى هائمًا حبيسًا في ذهن الجاحظ وأحلام بغداد خيرٌ لي من العودة إلى زوجتي الشمطاء وأبنائي الأوغاد. يا معاشر الآباء، لا تهدروا أعماركم مع من يحبونكم بمقدار الأموال التي تنتزعونها كما تُنتزع أرواحكم لتحشروها في أفواههم ومؤخراتهم، أولئك عدوٌّ لكم فاحذروهم كي لا يبيعوكم بعد أن تنفَق أموالكم وتزهَق أرواحكم.

« كلوديا، ما الذي تعرفينه عن كارول؟»

ليست كارول وإنما زُليخة! فور أن سألتُ كلوديا عنها ظهرت على الشاشة تتراقص على أنغام أغنية لاتينية، مرتديةً ملابس الماجنات الزاهدات جدًا جدًا، وحولها الفتيان المفتولون المتعرّقون يتمايلون مع تمايل مؤخرتها التي ملأت الشاشة جل الوقت! زليخة حايك، حسناء ورثت الجمال من والدتها الكوستاريكية والدلال من والدها البورتوريكي لبناني الأصل والذي أغدق عليها حبه وثروته بعد وفاة زوجته.

ولكنها لم تكتف بالدلال والثراء فحلمت بأن تصبح ملكة للجمال والأغراء. لم يعارض والدها طموحاتها وشطحاتها قط، بل شجّعها حتى حازت على مرتبة الشرف من أكاديمية نيويورك للأفلام، وحصدت الأحزمة السوداء في عدة رياضات قتالية، وبدَّدَت ربع ثروته في مشاريع مجتمعية وخيرية؛ ولكن عندما بدأت طموحاتها تتمايل مع منحنياتها الأنثوية اشتعلت بقايا جدائل الحمض النووي العربي في عروقه غيرةً، وأصيب بالصدمة والعار وهو يشاهد أميرته المرفهة المدللة تتحول إلى أداة استعراض وإغواء للذكور في كافة أصقاع الأرض؛ شعر بوخزٍ في صدره وتنميل في ذراعه اليسرى وهو يراقب مشاهدات مؤخرة ابنته في أغنية "رجّيها ببطء" على اليوتيوب تقترب من حاجز المليار نسمة، أكثرهم بطبيعة الحال ذكور منتشون. خيّرها بين حبّه وحلمها، وبالرغم من أنه كان والدها وصديقها وعالمها كله إلا أن عنادها انتصر واختارت طموحاتها وأحلامها، فقرر أن يتبرأ منها ويحرمها من حبه ولقبه وثروته. تحوّلت من زليخة حايك إلى كارول فرناندو، وصنعت شهرتها بجمالها وذكائها وإصرارها. تُوجت ملكة جمال بورتوريكو عام ألفين وسبعة عشر، وانتزعت لقب ملكة جمال الكون في العام التالي، صفّقت لها نساء الأرض غيرةً ورجالها إعجابًا، باستثناء أهمهم على الإطلاق: والدها. كان من بين المصفقين في منصة "الشخصيات الهامة جدًا" ملك تجارة الأسلحة: فريد فريد الديباجي. لاحظَت وسامته وابتسامته من بين آلاف الحضور وشعرت بأن تصفيقه يختلف عن تصفيق جميع المتأنقين في بزّات التوكسيدو من حوله؛ بالفعل، صفقات شخص كفريد القرمزان لا تنتهي عند ارتطام راحته اليمنى باليسرى، وإنما بتوقيع عقودٍ يصعب رفضها. ووقّعت كارول صفقتها مع القرمزان؛ صفقةٌ أكرهها عليها قلبها المتهور، فأصبحت مديرة أعماله وأمينة أسراره. تحطّم قلب والدها، وتحطمت معها حياته وتجارته، كان يستيقظ كل يوم لكي يقدّم العالم

بين يدي أميرته، ولكنها ماتت في نظره ولحقت بوالدتها. استغل شركاؤه ضعفه فتآمروا ضده ونهشوا ثروته، وانتهى به المآل محزونًا مسجونًا مديونًا. قرر القرمزان أن يتدخل لإنقاذه، رغم اعتراض كارول وإصرارها بأن تتحمل هي وحدها مسؤولية إخراج والدها من الكارثة التي تسببت بها، ولكن الإف بي آي كانوا أسرع وألقوا القبض على القرمزان وحاكموه وأعدموه، وخسرَت كارول حبيبيها، والدها وفريدها.

تبًا للقرمزان ما أصدقه؟ حياتنا بالفعل رقصةٌ بين الحب والموت! رقصةٌ عمياء دهماء رعناء هوجاء هرجاء مرجاء. نترنّح بداخلها خلف أمنياتنا، إلى أن تتخطّفنا منيّاتنا. جحا قتله حبه لحريته وعروبته وبغداده، وأشعب قتله حبه لنجاحه وطموحاته وذاته، وكارول قتلها حبها لوالدها وفريدها، وأنا قتلني حبي لزوجتي اللعينة وأبنائي الأوغاد؛ الحياة رقصةٌ عمياء بين الحب والموت، وما نحن بداخلها سوى أرواحٌ تَعشق إلى أن تَزهق، وقلوبٌ تَخفِق إلى أن تُخفِق؛ وبدون الحب، نحن محض أمواتٍ متمغنطين متطفّلين على هامش هذه الحياة.

-المغنطة السابعة-

هنا تنتهي رقصتنا يا كارول

بردت القهواء بعد أن كانت حارة، وفترت الكولاء بعد أن كانت فوّارة، حتى صرت لا أفرق بينهما. أصبحت رغبتي بمعرفة ذاتي أبرد من قهوائي، وأضحت إرادتي في العودة إلى حياتي أفتر من كولائي. ولِمَ أعود؟ وإلامَ أعود؟ وأنا في كل الأحوال ميّتٌ يرقص عبثًا بلا حب ولا قلب بين الأحياء.

«هل أزودك بأي معلومات أخرى سيد آل؟»

تجاهلتها.

«سيد آل؟ هل ترغب بمعرفة أي شيء آخر؟ أو ربما بالمزيد من القهوة؟»

تركتُ كلوديا الآلية تهذي مع نفسها، قفزت من عرش القرمزان، تأمّلت ما حولي، الكتب والأوراق والقلم، لأول مرة في حياتي لا أستثار بها وأتحمس لها، وكأني أسمع همساتها الحزينة الغاضبة وأنا أبتعد، كحسناء التهى عنها حبيبها بغيرها، اغربي عني الآن أيتها الكتب ولتغوري مع قعنبوري وناقري وناقوري!

خرجتُ إلى الشرفة حيث الطاحونة الطائرة، ترنّحتُ وكأني أمشي محاذرًا على الماء، تأمّلت السماء، هل هي دائمًا بكل هذا النقاء والصفاء؟ متى حضَرَت كل هذه النجوم؟ هل كانت بكل هذا البريق طوال الوقت؟ من الذي يتحدث بداخلي الآن؟ الجاحظ؟ أم خوزيه؟ أم آل؟ أم أنه القرمزان الذي مغنطني وتلبّسني؟ أيًا من كنت، فلا يوجد في حياتي قريبٌ باق، ولا حبيبٌ مشتاق؛ هأنذا يا قابض الأرواح، لن أبتهل إلى الله كي يمد أجلي بعد الآن! لعلي أجد الحياة والحب في جنّة الخلد، بلا موت يراقصنا ونراقصه! لن أتشبث بأمل، لن أبحث عن أحبّة وأهل، فقط أريد أن أعرف من أكون قبل أن أرى ريب المنون، في أي عصرٍ ولدت، وفي أي مِصر عشت، أكنت عربيًا أم أعجميًا؟ هل رتّلت القرآن في الجوامع؟ هل ترنّـمت بالقدّاس في الصوامع؟ ما أبغض أن يُحبس المرء بداخله، أن يصبح عقله زنزانته وروحه سجّانته. انهارت عيني أنهارا، شقّت دجلة والفرات على وجنتي حسرةً ومَرارا، لا أذكر أنني بكيت هكذا قط! وها أنا الآن أنزف من مقلتَي ومنخرَي وكأن رأسي قِربةٌ مُثقلةٌ مُثقّبة، تخرّ منها دموعٌ حارقةٌ متدفّقة، بقدر جَحْظ لحظي وحضيض حظي. اشتعلت الأضواء فجأة فتوارت النجوم!

«One two three, hello..»

توهّج مسرح المجون، وتغنّج السيمون المجنون فانتزعني من خلوتي مع دموعي والنجوم، وواصل الملعون:

«Oh, I am so happy to be here tonight, to be back to my amazing audience, I dedicate my songs to our beloved president, hello Mr. President, I hope you like my singing tonight!»

لقد استيقظ أخيرًا! لن يفلت مني حتى يخبرني بكل ما حصل بعد الأول من أبريل عام ألفين وتسعة عشر. نزلتُ من صومعة القرمزان قاصدًا المسرح في مقدمة البارجة، لقد أشعل فليمنغ فوكس الأضواء للبروفيسور سيمون الذي اصطبغ وجهه بالألوان والمساحيق، وارتدى قميصًا نسائيًا أبيضًا قصيرًا لا يغطي سيقانه المشعّرة وركبه المقعّرة؛ يكاد يتفتق حول كرشه وخصره. أزاح خصلة شعره

الأبيض الباهت المستعار عن عينيه، أمسك قضيب المجهار بين يديه، ترفرفت أهدابه، ترجرجت أردافه وبدأ بالغناء:

«I wanna be loved by you, just you, and no one else but..»

توقف وتأفف:

«I can't sing now, I don't feel it, I am so sorry..»

انفجر الثعلب الأحمر صارخًا:

«What do you mean?»

«I am not in the mood, let's try some other time!»

تحول الثعلب إلى ثور هائج، أمسك بسايمون من تلابيبه يجرّه فوقع شعره المستعار وقُدَّ قميصه فطفق يغطي ما ظهر من شعر صدره بيد ويلكم صدر فليمنغ فوكس بالأخرى وهو يصرخ وينوح:

«How dare you! You don't know who I am? I am Marilyn Mon..»

أخرج فليمنغ فوكس بندقيته العتيقة، وحشرها في فِـي سايمون وهو يجرجره نحوي ويقول:

«I am done with you! You either de-hypnotize Jahiz now or I swear I will blow up your ugly head!»

صرختُ بدوري في وجه فليمنغ فوكس:

«ألا ترى أنه جُنّ أيها الأحمق؟ كيف سيعيد إلينا عقولنا وهو لا يحمل في رأسه حبة خردل من عقل؟!»

ترك فليمنغ فوكس سايمون فجثا باكيًا، وأمسك بحلقي وحشر بداخله ماسورة بندقيته وصرخ:

«إذًا عليك أن تستيقظ من مغنطتك! هيا عليك اللعنة! عد إلى وعيك!»

خرجَت الكلمات بصعوبة من بين بندقيته وحنكي وأنا أركل الهواء:

«وما يدريني من أكون؟! الجاحظ أم آل كابوني أم رودريغاس؟!»

ألقى بي بجوار سايمون وأشهر نحونا البندقية وزمجر:

«أتود أن تعرف من تكون؟ أنت فريد ابن فريد الديباجي! أنت القرمزان!»

«صدقَت شكوكي إذًا! لقد مغنطني القرمزان وحشر ذاته في دماغي قبل أن يمغنطني مرة أخرى ليحشر الجاحظ!»

«بل أنت القرمزان! لقد هرّبنا دماغك وزرعناه في جسم خوزيه رودريغاس، أبرع عملية تهريب في التاريخ! انطلت على حكومات الدول وقواتها واستخباراتها!»

وبدأ يهذي هذيانًا مقنعًا رغم جنونه.

اشترى القرمزان كل ما يستطيع شراءه بثرواته، وكانت "الذمم" السلعة الأهم في قائمة مشترياته، كان يردد دائمًا: "نحن نعيش في عالمٍ قذر، ولكل قذرٍ سعر!" لقد أنفق ثروةً طائلة على مشرفي الحراسة في سجن إل هانغو المكسيكي كي يتم تزوير إعدامه وتهريبه، ولكن الملاعين تقهقروا بعد أن استلموا رشاويهم كاملة، فلجأ القرمزان إلى الخطة البديلة: تهريب دماغه فقط، بعد أن يُعلَن رسميًا

عن وفاته. غلطة أعداء القرمزان الكبرى هي أنهم لم يشددوا الحراسة على جثمانه، لم يتوقعوا أن ذلك الشيطان يستطيع الفرار وإن كان جثةً هامدة؛ فبعد أن أعلن الطبيب الشرعي عن وفاته، انفضّ عنه جل الحضور، باستثناء الحارسَين اللذين خاطرا برأسيهما ليهرّبا رأس القرمزان في مقابل مليون دولار لكل منهما. قطعا رأسه فور وفاته وسلماه في حقيبة مفرزنة لرجال القرمزان. لم تمضِ بضع دقائق حتى كان رأس القرمزان الذي لم تجف دماؤه بعد في الحجرة الطبية التي تم تجهيزها بجوار سجن إل هانغو لاختصار وقت التهريب قدر الإمكان والحفاظ على أكبر كمٍ من خلايا دماغ القرمزان وذكرياته.
كانت هناك جثتان طازجتان مبرّدتان في انتظاره: جثة خوزيه رودريغاس، وجثة جوشوا كومبا، زنجي كاريبي تالف الدماغ إثر ورم سرطاني؛ ذلك الزنجي كان المرشح الأول ليتلقى دماغ القرمزان وتتم مغنطته بعدها لإحلال شيطان زرآب؛ كان القرمزان يفضّل أن يعيش دور الموسيقار المبدع الفنان، ولكن جثة رودريغاس كانت أكثر ملاءمة ومواءمة، فقرر فريق الأطباء أن يلجؤوا للخيار البديل تقليلاً للمخاطر: خيار الجاحظ عوضًا عن زرآب! وأجريت عملية استبدال الدماغين بواسطة كتيبة من شياطين الجرّاحين الصينيين. وبعد عشرين ساعة، عاد رأس فريد الديباجي إلى جثمانه قبل دقائق من موعد دفنه، ولكن بدماغ خوزيه رودريغاس. عملية هروب بهذا الجنون لم يكن لِيُهندسها شخص آخر سوى القرمزان المأفون. كان احتمال نجاح تلك الخطة الخطِرة أقل من احتمال نجاح بقرة في عبور ثقب إبرة؛ ولكنها كانت الخيار الأخير، بل الوحيد؛ وكحظ القرمزان في القمار، نجحَت دونما أضرار! تمّت العملية في الأول من أبريل عام ألفين وتسعة عشر، أشرف على تنفيذها الثعلب المتأجج بينما لم تعلم عنها كارول شيئا، وذلك لحاجةٍ في نفس القرمزان قضاها.
قضيت بعد تلك العملية شهرًا مغيبًا في أعماق غيبوبة سحيقة، استيقظتُ بعدها لأجد القزم الجاحظ القبيح أمامي في المرآة، تحسستها وأنا أتفكر في جسدي المفتول وهو يتحلل ويتحول لوليمة فاخرة تتناهشها ديدان الأرض، باستثناء ثلاثة أرطال: دماغي، الذي يحمل كينونتي وذكرياتي؛ واستمرت خطة القرمزان اللعين.. اللعنة.. لا أفتأ ألعنه حتى بعد أن أدركت أنه أنا!
لا لا.. أنا لا أزال متمغنطًا، لا أزال الجاحظ، ولن أتوقف عن لعن القرمزان حتى تزول مغنطتي. حسنٌ، عودةً إلى خطة القرمزان.. اللعين المتملعن، الملعون الملعّن (أقحموا هنا ما بدا لكم من تصاريف "ل ع ن" في قواميس اللغة العربية وباقي لغات البشر)؛ اتفق القرمزان مع أخيه فريد المخرج ابن اللبنانية على أن يحتجزني مع جحا وأشعب داخل بغداد المزيّفة لمدة عام، ليلقي بنا بعدها إلى هذا العالم، لقد كان الفريدان يتسليّان بنا، يعبثان بعقولنا، مغنطاها ببغداد المأمون ثم صعقاها بقيغاس الفُحش والمجون؛ أراد ابن اللبنانية أن يُخرج أجن عملٍ درامي، وأراد ابن المكسيكية أن يتذوق نشوة صدمة ابن القرن التاسع وهو يتجرّع القرن الحادي والعشرين دفعةً واحدة!

وهل هناك صدمة نفسية مجتمعية حضارية أعظم من التي تلقّيناها آنا وجحا وأشعب ونحن نسرح ونمرح في عالمكم الفاحش المتفحش؟ لا تجحظوا لي هكذا! نعم أنتم تتفحشون فحشًا لم يتفحشه فاحشٌ متفحشٌ من قبلكم؛ ولا أظن أحدًا يستطيع أن يتفحشه من بعدكم! قلتها وسأقولها ولن أملّ من تكرار تعجّبي من عالم الفُحش هذا! تفحّشتم في تطوركم وتقنيتكم حتى نسجتم العلوم والعجائب، والمعلومات والغرائب، بشباك العناكب؛ ثم حشرتموها في صفائح تحملونها داخل الجيوب والحقائب؛ تفحشتم في المساكن والمراكب؛ حتى اخترقتم ببنيانكم السحائب؛ ونفذتم بهوادجكم أقطاب السماوات لاستعمار الكواكب؛ تفحشتم في ملذات المآكل والمشارب؛ حتى أصبحتم تطفحون أضعاف ما تطيقون، وتهدرون أضعاف ما تطفحون، وتتباهون عندما تملؤون المزابل ببقايا المآدب؛ وبعد أن يترجرج فائض الشحم ويتأرجح مترهلاً متدليًا متهدلاً متدلدلاً من كروشكم وأردافكم وحلوقكم وزنودكم وأثدائكم الذائبة على الترائب؛ بذلتم الغالي والنفيس لإنقاص أوزانكم وبلوغ أحلام رشاقتكم التي تتحول إلى كوابيس في الغالب.
وإن تحققت لوهلة عدتم بعدها إلى حشوِ مقدماتكم ومؤخراتكم مرة أخرى بالهمبَوُرقَر والبيتزاء والآيس كريم والكَاوكاكَوْلاء والمفطحات والكبساء وباقي الأطائب. لقد تفحشتم في الملبس والتبرج وزيف المظاهر وضحل المناقب؛ حتى أصبحت الواحدة منكن تخصص حجرةً أكبر من داري لتكديس خِرق الزاهدات مع القباقب؛ تـحوّل هوس التجمل والتزين لديكم إلى خبالٍ شقلب المعايير وأذهَب الأذواق وخرّب المقاييس، وروّج الحُسن الزائف والجمال الكاذب. حتى أصبحت الفاتنة مفتونةً محزونةً أمام مرآتها، تنكت على وجهها قناني الهلام اللازب؛ وتنهكه تدهينًا وتمريخًا وتلوينًا وتلطيخًا، ومن ثم تبكي حسرةً لأنها لا تمتلك ما لدى ممثلة الإغراء وعارضة الأزياء وأيقونة الغناء من "مواهب". أنت أجمل منهن جميعًا أيتها البلهاء! ولكنكِ طمرتِ حسنك خلف الوسواس الذي خدعك به زعماء عصابات "الموضة" لتحقيق المكاسب. وهذا الهوس ليس حصرًا على الآنسات ولا حكرًا على السيدات، فقد نافستم فتياتكم أيها السادة الأفذاذ الأشاوس الجهابذ مفتولي العضلات والشوارب.
فها أنتم تتجرعون البروتينات وتبتلعون المكمّلات، وتزأرون تحت وطأة أثقال الحديد وآلات تنفيخ العضلات، فقط لكي تتفتق قمصانكم عن زنودكم المتكورة، وسراويلكم عن أفخاذكم المتحجرة؛ تحرصون على بناء وتضخيم كل شيء في أجسامكم من أخامص أقدامكم لحدّ المناكب؛ وتستثنون عقولكم التي انكمشت واضمحلت حتى أضحت لا تميز بين حابل المثالب ونابل المناقب. ومالا تنفخه البروتينات والآلات، تحقنونه بالبوتوكس والسيليكون والحشوات؛ تتبرجون بالمساحيق، تتحلون بالمجوهرات، وتنمصون الحواجب. أصبحتم يا معاشر الرجال منفوخين خاوين مزيفين محشوّين كأثداء الكواعب.
ما هذا؟ لماذا أبدو كأحد وعّاظ أمير المؤمنين المنافقين الملاعين؟ انتظروا! أنا لا

أقول لكم تزهّدوا وتورّعوا وتقشّفوا، أنا لا أنهاكم عن التجمل والتزين إذا كان بالفعل تجملاً وتزينا، أنا أعجب فقط من التمادي والتفحش الذي يحيلكم من بشر خُلِقوا في أحسن تقويم، إلى مسوخ يجمعهم هوس المظاهر والتفكير الضحل السقيم العقيم. لنعد لقصتنا الآن ولتذهبوا أنتم وتفحشكم إلى الجحيم!
لقد نجح القرمزان، صدمني بعالمكم فقط ليشبع شهواته ويرضي غروره ونزواته، ولكن غرور أخيه كان أكبر، لقد خان المخرج فريد القرمزان، وقرر أن يعبث بالسيناريو؛ وكنت أنا -ومن غيري؟- ضحية ذلك العبث! أراد المخرج أن يقحم المزيد من الأكشن والثريلر والسسبنس إلى مصائرنا، فقرر أن يشي بأخيه ويبلغ اللبوءة چيسيكا چوهانسون -العميلة چي- بأن القرمزان قد فرّ من حبسه بعد إعدامه، منتحلاً جسد الجاحظ، وأن يشعل بذلك فتيل حرب طاحنة يفتتحها بأعظم عملٍ إخراجي ومشهدٍ درامي على مر التاريخ: مشهد قتله هو شخصيًا.
لقد كان القرمزان محاذرًا لعينًا ماكرًا فطينًا؛ أخذ في حسبانه أن يكتشف الأوغاد خطة فراره فحدد لكل احتمالٍ مساره؛ ولكنه لم يتوقع أبدًا أن يفوقه أخوه غرورًا وتهورًا وجنونًا، وأن يلقي بخطته وأحلامه، وبنا، إلى غياهب الجحيم. أراد القرمزان أن يمنح عقله المتمغنط متعة الانغماس في ملذات الحياة من جديد بعد أن اعتادها وسئمها؛ حتى إذا حال الحول وظن زعماء الدول أنهم مَحَو أثره وذِكره، أتى بالبروفيسور سايمون لكي يحرر القرمزان، أو بالأحرى، ليحررني ويفك حجاب مغنطتي حتى أنسى الجاحظ وأعود فريدًا ديباجيًا قرمزانًا لعينًا.
لم تنته خطته عند هذا الحد، فلقد اشترى جثة شابٍ مفتولٍ وسيم، متوفٍ دماغيًا ومفرزن لدى فريقه الطبي الصيني كي يعيدوا زراعة دماغي في رأسه حينما أعود إلى رشدي، وأتخلص من جسد رودريغاس الضئيل الجاحظ الدميم.

«هل تذكرت الآن؟!»

أخبرني الثعلب المتأجج بكل تلك التفاصيل طمعًا في أن أعود إلى رشدي ويستيقظ القرمزان بداخلي دون الحاجة لتدخل سايمون الذي يبدو أنه سيقضي نحبه متهيئًا أنه مارلين مونرو. أجبت الثعلب المتلهلب المتعصب:

«تذكرت! ترك لي القرمزان صفيحته مع أحجية؛ وقال قبل أن يقتلوه أننا إن حللناها فسيمكننا الولوج إلى شيفراته والحصول على ثرواته وتدمير سوق الأسلحة وإسقاط الأقمار الاصطناعية على رؤوس الرؤساء»

جحظ الثعلب المتأجج، قاطعتُ جحظته البلهاء:

«لقد حللنا أول أحجيتين: تأريخ وفاة القرمزان، وتأريخ ولادته، بقي التأريخ الثالث، يقول إنه على شفـ.. هل تعرف ما الذي يقصده؟»

هز رأسه ببطء، أسدل يده الممسكة بالبندقية ومد الأخرى وهو يقول:

«بالطبع أعرف، ناولني الهاتف!»

وأخيرًا! قد يكون هذا الأمل الأخير لاستيقاظي من مغنطتي!
أخرجت الصفيحة من جيب مؤخرتي، انتزعها الثعلب مني، تأمل جمجمة القرمزان النافرة منها وهو يتمتم:

«هذا بالفعل هاتف القرمزان المتصل بقمره الاصطناعي المركزي»

ودوّت الطلقة! أطلقها الثعلب على الصفيحة فتهشمّت وانبثت شظاياها وتساقطت وتناثرت!

«ماذا فعلت أيها اللعين؟!»

قلتها وأنا أندفع نحوه غير آبهٍ ببندقيته! لقد ألقى بآخر آمالي في البحر! لقد بعثر كل ما تكبّدناه ونحن نسابق الموت ونتراقص على حافته كي نحل أحجيات القرمزان! أمسكت بتلابيبه، ولكن فارق الحجم فاق فارق الشجاعة والغضب؛ فأنا أمام الثعلب لا أتجاوز فأرًا أمام ثور! أحكم قبضته على رقبتي، وتناثر لعابه مع شعيرات شنبه الناري على وجهي وهو يصرخ:

«Qurmuzan! You are out of your mind! I built this with your father and will never let you destroy everything! Qurmuzan! Wake up!! Let’s build it all over again! Wake up damn you!!»

جمعت ما أعانني الله على جمعه من نخام، استحلبتُه من بين تلافيف بلاعيمي ورئتي وأمعائي وحواف مستقيمي وقذفته في بصقة واحدة خضّبَت جبهة الثعلب المتأجج وشواربه، فصرخ وخار!

لا لم تكن بصقتي، وإنما ركلة كارول التي استيقظت على دوي الطلقة وهبّت مرة أخرى لإنقاذي! ركلَت الثعلب على قفاه كي يفلتني؛ وقبل أن أشكرها هجمت علي، ضمتني ودفنَت رأسي في وادي السيليكون، وأخذت تقبّل هامتي ووجنتي، وجحظتي أيضًا وهي تبكي وتقول:

«فريد! كان قلبي حاسس إنك فريد.. ليه يا فريد عملت هيك ليه؟ ليه ما قلت لي؟ سنة كاملة أبكي عليك، سنة كاملة قلبي بيتقطع كل يوم! كأنك متت إمبارح!»

مع لهفتها غفلَت عن الثعلب الذي استعاد توازنه وحاول أن يستعيد بندقيته لولا أن برك عليه أشعب الذي استيقظ هو أيضًا على صوت الضجيج. تناولَت ديدلي لِيلِي بندقية فليمنغ فوكس وصوبتها تجاه نخامتي المعلقة بين حاجبيه وهي تقول:

«أهذا صحيح؟ الجاحظ هو فريد؟ القرمزان لا يزال على قيد الحياة؟»

هز الثعلب رأسه فتأرجحت النخامة وواصلت الزنبقة المميتة وهي تكاد تثقب رأسه بماسورة البندقية:

«ولمَ لَم تخبرني عليك اللعنة؟!»

«هل أبتلعه يا لِيلِي؟»

قالها أشعب، فأومأَت له كي يقوم عن فليمنغ فوكس، الذي استعاد أنفاسه التي توقفت لوهلة وقام وهو يمسحه عن عينيه النخام:

«لقد حرص القرمزان على ألا يتورط أحدٌ في خطة هروبه.. غيري! لقد اتفقنا أن ننتظر ريثما تهدأ الأوضاع ومن ثم يستعيد وعيه ونعاود تجارتنا وأعمالنا، ولكن الوغد اللعين كان يتلاعب بي! أراد أن ينهي كل ما بنيناه»

توسّلت كارول للبروفيسور سايمون الذي لم يتوقف عن البكاء، واستجدته:

«Professor Simon, please wake up! You hypnotized yourself! You are not Marilyn Monroe! Please!! Our lives are endangered, and you are the only one that can help!»

رفع إليها عينيه الغارقتين في الكحل والدموع وقال:

«Kill me.. please do! I don't want to live anymore!»

هبّت إليه ديدلي لِيلِي وبدون مقدّمات وجّهت البندقية نحو ساق سايمون وأطلقت النار، دفعتها كارول في آخر لحظة وهي تصرخ:

«أجننتِ؟!»

«لن يعيده إلى رشده سوى هذا!»

«اللعنة عليكم جميعًا! لقد وجدونا!»

قالها فليمنغ فوكس وهو ينظر للأفق، بالفعل إنها إحدى طواحين الإف بي آي تتجه نحونا! حاول الثعلب عبثًا أن يغير مسار البارجة ولكن الطاحونة ما لبثت أن هبطت على سطحها وهب منها الزبانية المدجّجون تتقدمهم العميلة چي وهي تلوح بمدفعها شامتةً:

«لا مفر لك هذه المرة أيها القرمزان»

جحظت ديدلي لِيلِي وهي تهتف:

«مستحيل! كيف وصلتم إلينا؟!»

«قفزتم من الطائرة وتركتموها تواصل الطيران نحو المكسيك لتضليلنا، ولكننا اصطدناكم بفضل الرصاصة التي استقرت في بطن هذا البدين»

«الرصاصة تحمل جهاز تعقب! اللعنة عليك!»

«حصلنا على الإشارة بصعوبة ولفترات متقطعة، أعتقد أن كرش هذا الثور مصنوعة من الفولا..»

لم تستطع أن تكمل عبارتها فقد انقض عليها أشعب ينطحها وهو يصرخ:

«لقد قتلت جحا وأطلقت النار على جليلة أيتها اللعينة! ستباتين الليلة في داخلها!»

أفاق الزبانية من ذهولهم، وهبّ سبعتهم لتكبيل أشعب وجليلة. تقدمت چي نحوي، نقلت بصرها بيني وبين سايمون وهي تقول:

«هل استعدت وعيك أيها القرمزان؟!»

«القرمزان مات! هيدا خوزيه رودريغاس!»

قالتها كارول فأطلقت چي ضحكتها المدوية وهي تتناول صفيحتها وتعبث بها:

«جحا وحماره أوصلانا لحل اللغز! عصا جرس الحمار لم تكن سوى ذاكرة يو إس بي تحمل تسجيلاً مهمًا»

نقرت صفيحتها فانطلق صوت جحا بمفاجأة مدوية!

«أنا مازن البغدادي، اتفقت مع فريد الديباجي على تسليم عقلي لعملية تنويم مغناطيسي دائم يجريها البروفيسور سايمون سيمنز لكي أقتنع بأنني جحا الذي يعيش مع حماره أبي الجحجاح في بغداد

المأمون. أسلوب سايمون لم يفلح معي، ربما لأني بروفسور في علم النفس مثله، أو لأن التعذيب الذي تعرضت له قد أتلف دماغي، أو ربما منحه بعض المناعة، على كلٍ استطعت أن أقنع البروفيسور سايمون أنني تمغنطت بنجاح وأصبحت جحا، ليس ذلك فحسب، بل واستطعت أن أقلب السحر على الساحر، وأن أمارس عليه بعض التنويم المغناطيسي وأستدرجه لمعرفة كل شيء دون أن يدرك! مشروع ليالي بغداد مجرد غطاء لتهريب فريد القرمزان من خلال جثة خوزيه رودريغاس، وجلبني أنا ورجب محمد رمضان ليمغنطنا بشخصيتي جحا وأشعب من أجل المزيد من التمويه. وستستمر هذه المغنطة حتى نتلقى الشارة: غناء بروفيسور سايمون لنا أغنية مارلين مونرو: I wanna be loved by you»

أغلقت چي التسجيل وسط ذهول الجميع؛ اللعنة عليك يا جحا! أخفيت كل ذلك عنا فقط لتباري القرمزان في لهوه وجنونه؟! عليك اللعنات أينما حللت!

«جحا هو الوحيد الذي تفوّق على الجميع بذكائه، بما فيهم القرمزان شخصيًا! سنحصل منه على المزيد من المعلومات عندما يستعيد وعيه!»

«جحا لا يزال على قيد الحياة؟! لقد رأيت روحه تتصاعد مع دخان سيغاره عبر ثقوب صدره!»

تجاهلتني چي، وتوجهت نحو سايمون:

«Marilyn, we are so sorry for all of this, can you sing for us now?»

مدت چي يدها نحو سايمون الذي كفكف دموعه ونهض، هز رأسه، التقطت كارول يدي بيدها، سوف يغني سايمون الآن وسنستفيق أنا وأشعب من مغنطتنا.. قلبي يخفق بشدة، أشعر برهبة الموت.. ورهبة الحياة أيضًا.. الآن يموت الجاحظ ويُبعث فريد.. اللعين! وداعًا يا بغداد، وداعًا يا أم عثمان، وداعًا يا دار الحكـ.. اللعنة لقد قفز! تقدّم سايمون إلى حافة البارجة وبدلاً من أن يغني.. قفز! دوى صوت ارتطام رأسه بحديدها وجسمه بأمواج المحيط المتلاطمة!

تقدمنا جميعًا نحو الحافة، كان جسده يغوص ويبتعد، ركض فليمينغ فوكس نحو منصة القيادة ليبطئ من اندفاع البارجة ويغير مسارها، وقفز ثلاثة من الزبانية نحو المياه لاستعادة سايمون، وبعد برهة عادوا بجسده.. بدون روح!

جُنّ جنون العميلة چي وصرخت في وجهي:

«اسمع يا قرمزان! لقد قبضت عليك وأعدمتك مرة! وسوف أقبض عليك وأعدمك ألف مرة إن تطلّب الأمر! لن تفرّ من العدالة بألاعيبك!»

«لست القرمزان.. أنا أبو عثمان.. عمروٌ ابن بحرٍ الكناني.. الملقب بالجاحظ!»

قلتها متحديًا محطّمًا ثورتها، فابتلعَت غضبها وقالت:

«ناولني هاتف القرمزان المتصل بقمره الاصطناعي، لقد رأيناه معك من

خلال كاميرات المراقبة في سيزار پالاس!»

«لقد حطّمه فليمنغ فوكس!»

قلتها وأنا أشير إلى حطام الصفيحة.. تناولَت شظية تحمل جزءًا من جمجمة القرمزان، ضغطت عليها بأناملها وعلى كلماتها بأسنانها:

«سوف تدفعون الثمن!»

«اسمعيني أيتها اللعينة!»

التفتت چي نحوي، فواصلتُ صرامتي المصطنعة:

«أنا أكثر من يبحث عن الحقيقة هنا! السجن والإعدام أحب إلي من أن أحيا متمغنطًا في هذا التيه! خذيني ودعي الباقين وشأنهم!»

نقلت بصرها بيني وبين صومعة القرمزان في أعلى البارجة، ألقت بأوامرها لزبانيتها بإيماءة واحدة، فأحكموا وثاق أشعب وديدلي ليلي وفليمينغ فوكس، واقتادوني أنا وكارول بمدافعهم إلى الصومعة.

«شخصٌ محظور، لا يمكنك الاقتراب أكثر»

دوّى صوت كلوديا الآلية مع تقدمنا مع چي والجنود في النفق المؤدي إلى صومعة القرمزان، فبادرتها:

«كلوديا، افتحي باب المصعد، هؤلاء ضيوفي»

صمتَت لوهلة ثم نطقَت:

«تم التحقق، مرحبًا بك وبضيوفك سيد آل»

أضاء الممر، وانفرجت دفتّا المصعد في آخره؛ تحاشرنا جميعًا بداخله، أنا وكارول وچي وسبعة عمالقة بعتادهم، ولجنا الصومعة، ولم يستطع وجه چي الصخري أن يخفي ذهوله ولم تستطع كارول أن تحبس دموعها عندما رأت عرش القرمزان، تأمَّلَت چي الجمجمة؛ اقترَبت منها فبادرتها:

«ياقوتة بخمسين مليون دولار، أهداها والدي لوالدتي ليلة زفافهما»

فغرت چي فاها، اقتربتُ منها أكثر، حملتُ الجمجمة:

«ولكنني لوثتها بهذه الجمجمة، فالحياة عندي ليست إلا رقصة عمياء بين الحب والموت»

رفعتُ الجمجمة، اللعنة كم هي ثقيلة! اقترَبَت مني چي بحذر وأنا أواصل الحديث بلغة مكسيكية هذه المرة:

«أولا تستحق أيقونتي خمسين رطلاً من الذهب الخالص تحمل مئة قيراط من الياقوت؟»

كاد لعابها أن يسيل مع تلألؤ الياقوتة، لا تزال بداخلها بقايا أنثى!

«تفضلي هي هدية لك!»

قُلتها، وقبل أن تستوعب شجحت رأسها بالجمجمة بكل قوتي، فصرخت چي! تشنّج الجميع لوهلة من المفاجأة، التقطتُ ياقوتة القرمزان التي سقطت من الجمجمة بيد، وسحبت كارول بالأخرى وأطلقت سيقاني نحو الشرفة حيث تستقر طاحونة القرمزان الطائرة وأنا أصرخ:

«كلوديا، اغلقي جميع الأبواب وعطلي المصعد، لا تدعيهم يخرجون!»
استيقظ الجنود من ذهولهم، وبدأوا بإطلاق النيران والعميلة چي تصرخ:
«لا تقتلوه!»
مرقنا أنا وكارول من باب الشرفة الزجاجي بأعجوبة قبل أن تُطبقه كلوديا، مرقت معنا صرخات العميلة چي وما تبقى من طلقات جنودها، لم يبق بيننا وبين الطاحونة سوى بضع خطوات، ولكن يد كارول ثقلت فجأة، لقد سقطت وهتفت والدماء تنبث من فمها وأنفها وصدرها:
«اهرب يا فريد اهرب!»
لن تصمد الأبواب الزجاجية كثيرًا أمام الطلقات النارية، تمنّيت في هذه اللحظة لو كان لدي معشار عضلات القرمزان المتراكمة المتكومة كي أحمل كارول..
أوَليست الحياة رقصةً بين الحب والموت؟ وأنا أهيم بكارول حبًا! ولن أسمح لها بأن تموت قبلي! فلنرقص رقصتنا إذًا!
ما حدث لا يصدقه أحد! لم يصدقه الجنود ولا العميلة چي ولا كارول ولا حتى أنا!
ولا أتوقع منك يا من تقرأ، أو تقرئين، تصديق ما حصل! ولكن كما يدّعي المتيّمون: الحب يصنع المعجزات، وأنا الآن في إحداها!
لقد حملتُ كارول بذراعي وقفزت بها إلى الطاحونة، وأدرتها، وانطلقت بها، لا أعلم إن كانت معجزة الحب، أم ما استيقظ من ذكريات القرمزان بداخلي ولكنني تمكّنت من السيطرة عليها والتحليق بها، سامحني يا أشعب، لن أستطيع أن أحملك معي؛ كل همّي الآن هو أن أنقذ حياة كارول ولنذهب أنا وأنت بعدها إلى الجحيم!

اتجهتُ بالطائرة شرقًا، يُفترض أن تكون المكسيك هناك، جاهدت للإبقاء على الطائرة في السماء حتى برز الساحل أمامي، ميّزت ضوء صهريج يعبر من بعيد فألقيت بالطاحونة أمامه على قارعة الطريق، كاد أن يرتطم الصهريج بنا وخرج الشيخ منه فزعًا منددًا، ولكنه هب لنجدتنا عندما رآني بين الحطام أحمل كارول وأنا أبكي وأصرخ بالمكسيكية:
«مستشفى! بسرعة!»
حملَنا معه وانطلق بنا نحو المستشفى، كارول مستلقية على حجري، أحاول جاهدًا منع تدفق الدماء من ثقوب صدرها والإبقاء على أنفاسها التي تتهافت مع تخافت دقات قلبها، أشفط الدماء المتخثرة من فمها وأنفها وأعاود نفخ الهواء بين.. شفاهها.
يا إلهي!
شفاهها!!
هنا تنتهي الأحجية! هذا ما كان يقصده القرمزان، الرقم الثالث على شفاه كارول!
تأريخ أول قبلة جمعت شفاه القرمزان بشفاه كارول!!
يوم دعاها لعيد ميلاده وأفصح لها عن حبه. هكذا تكتمل الصورة، أحجية القرمزان

هي تواريخ حياته وموته وحبه! حلَلّتها آخيرًا ولكن بعد فوات الأوان. عليك اللعنة أيها القرمزان!

«كارولينا فرناندو؟ كارولينا فرناندو!!»

نطق العجوز أخيرًا، لقد تعرّف على كارول، بالطبع! فمن لا يعرف وجه ملكة جمال الكون؟

«هل تعرفها؟»

هز الأشيمط رأسه وبدأ يغني:

«رجّيها ببطء.. ببطءٍ شديد..»

اللعين لم يتعرف على وجه ملكة جمال الكون بل على مؤخرة أشهر راقصة في الشبكة العنكبوتية!

عبرنا بوابة المستشفى، ركضنا في دهاليز قسم الطوارئ؛ تناول الأطباء كارول وانهمكوا يبحثون عن بقايا الأنفاس والنبضات، وهبتها دمائي، خذي يا كارول من دمي حتى تحيي.. خذي يا كارول من دمي فرقصتنا لم تنته بعد!

«جا.. جاحز..»

فتحت عينيها، نطقتها بصعوبة.. ثم غابت عن الوعي. الآن اطمأن قلبي عليها.. الآن تنتهي رقصتنا!

نزعتُ ساعة الرَوْلِكس عن معصمي، ناولتها الشيخ فجحظ.

«ثمنها سيغطي مصاريف العلاج..»

لوح الشيخ برأسه ورفض أن يأخذها ولكنني وضعتها في قبضته وشددت على يده متوسّلاً:

«إنهم يبحثون عنها، ابعدها عنهم.. أرجوك!»

ناولته ياقوتة قلب القرمزان ليعطيها لكارول عندما تفيق، وتركت لها قصاصة:

«بيعيها وسددي ديون والدك..
وانسيني أرجوكِ..
أحبك يا كارول..
فريـد.. الجاحظ»

-المغنطة الأخيرة-

احبسوني مع قعنبوري وناقري وناقوري

«هل سننتظرك باقي عمرنا لتنهي الدوزنة وتبدأ الدندنة؟ هيا يا زرآب اعزف، فوالله لو عزفتَ لنا على حبل الغسيل لأطربتنا!»

هزّ رأسه وابتسم لي، وبدأ الأسمر المتأنق المتألق بإطلاق التعويذات ليسحرنا أنا والجاحظ وخوزيه رودريغاس وآل كاپوني وفريد القرمزان الذي طاف علينا ليسكب شاي الدّراق المثلج وهو يقول:

«اعذروني على ضيق المكان»

ردّ عليه خوزيه:

«حشرتنا في تجويف جمجمةٍ بالكاد تسع ثلاثة أرطال!»

عقّب الجاحظ ضاحكًا:

«دماغ الإنسان يسع العالم بأسره، بل عدّة عوالم متراكمة متراكبة!»

ارتشف آل كاپوني رشفةً، مسح بقاياها عن شفاهه وهو يقول:

«تقنيًا أنا لم أنحشر معكم! فقط استعرتم اسمي وزورتم جواز سفري إشباعًا لنزوات فريد!»

لكز خوزيه فريد وهو يقول:

«كلنا ضحايا نزواتك يا رجل! لكنني ممتن لك، لقد وضعتَ حدًا لمعاناتي؛ كنتُ غارقًا في غيبوبتي وقلقي على اختفاء أسرتي، ظننت أن مكروهًا أصابهم، ولكن الأوغاد تركوني بعدما يئسوا مني، ومن ثم باعوني لك. ليتك لم تعطهم فلسًا!»

التفت خوزيه إليّ وقال بجدّية:

«اسمع يا هذا، أنت تحتل جسدي الآن، أريدك أن تنتقم لي من زوجتي وأبنائي!»

قاطعه الجاحظ:

«على رسلك يا هذا، فالمسكين لا يكاد يلتقط أنفاسه، لولا المعجزات المتتالية لما بقي جسدك على قيد الحياة!»

«سحقًا! ليتك تركت جسدي يتعفن مع دماغي يا فريد! ليتك تمغنطت في جسد زرآب!»

لم يُخفِ زرآب ابتسامته، وواصل عزفه، أظنه يحمد الله ليل نهار على نجاته من مغنطة القرمزان.

حاولتُ أن أشاركهم الحديث، ولكنني كلما هممت بكلمةٍ خرجت من فِـي أحدهم! من أنا فيهم؟ بالتأكيد لست آل كاپوني؛ وخوزيه مات بموت دماغه؛ وفريد لم أعرف عنه شيئًا سوى من عدة أيام؛ والجاحظ شخصيةٌ تاريخية قضت نحبها منذ ألف عام! من أنا؟

«من أنا؟!»

نطقتها أخيرًا فالتفتوا نحوي جميعًا.. ألقيتُ بكأس الشاي، وصرخت فيهم مهدّدًا متوعّدًا:

«من أنا؟! إن لم تخبروني أقسم أن أقتل نفسي.. وأن أردي بكم جميعًا

معي إلى غياهب الجحيم!»
استيقظت من كابوسي المتكرر، وأنا أهذي بالعربية والإنجليزية والمكسيكية والإيطالية.. لقد استحال دماغي حساءً بأمعاء الخنفساء، أصبحتُ أحمقَ من جحا وأتنحَ من أشعب!
ارتديت قميصي الأصفر الفاقع، وسروالي الأحمر الناقع، عقدت كلاليبه على أكتافي، وشمّرته إلى أن برزت أقدامي، لم يجدوا سروالاً بمقاسي. غطيّت هامتي ببرنيطتهم التي تحمل شعار "البطة السعيدة"، ارتديت نظارتي المعتمة لأخفي جحظتي، وانطلقت إلى المطعم الذي أعمل فيه: Happy Duck Burger.
تسعون يومًا مضت وأنا مختبئ في قرية تيوانا، ألفّ شطائر الهَمبَوُرقَرِ بالجبناء وأقدمها مع البطاطاء والكولاء من الصباح حتى المساء. أقتات على البقايا والفتات، وأعود لبيتي، أو بالأحرى سريري ومرحاضي المحاطَين بجدار. أتقاضى أجرًا بخسًا، بيزاتٍ مكسيكياتٍ معدودات؛ أنفق جُلّها لأسد فواتير الإنترنت.. آهٍ يا أيتها الإنترنت، أنتِ التي تحيلين حياتي بين مرحاضي وسريري إلى فردوسٍ يحسدني عليه المأمون وهو منعمٌ في قصره، متمرغٌ بين جواريه وغلمانه!
صفيحة محمولة متواضعة، وإنترنت، وهامتي وناقري وناقوري وقعنبوري.. هذا كل ما أحتاجه من دنياكم! وكل ما عدا ذلك ترفٌ وقرف لا حاجة لي به! تسعون يومًا، أقضي نهارها مع الهَمبَوُرقَر، ولياليها مع القراءة والكتابة. أقرأ في كل ليلة كتاب، وأسمع آخر، وأكتب ألف كلمة؛ اختلطت في دماغي الثقافات وتمازجت اللغات؛ ومن يكترث؟ فالعلم هو العلم! والشغف هو الشغف! لا أكاد أغفو من فرط المتعة والسعادة وأنا أتنقّل ما بين كل تلك البساتين، أنبش أشجارها، أنتّف أوراقها وثمارها وأزهارها وأحشرها بنَهم في تلافيف مخي وكأني أشعب في مأدبته الأخيرة!
وقبل أن أغفو، يأتيني قعنبوري، يستلقي بجواري، ويبدأ وسوساته لأستل ناقري وناقوري وأكتب لكم سطوري..
تسعون يومًا كتبت لكم فيها قصتي، يا ترى ماذا أسميها؟ "القرمزان الملعون؟"، ما هذه القصة التي تحمل اللعائن في كل سطر حتى في عنوانها؟! حسنٌ سأسميها "القرمزان".. عليه اللعنة! لن أُعنْونَ قصتي باسمه. سأسميها "الجاحظ"؟ لا لا، الجاحظ المسكين لا يستحق أن يُنسب إليه كل هذا الجنون! ماذا أسميها إذًا؟ "البؤساء"؟ لو أن ڤيكتور هيوغو رأى حالنا لاستلهم منّا عدة روايات: "البؤساء، المتشردون، التُّعساء، المتمرمطون"، أسميها "المنوَّمون مغناطيسيًا"؟ "المتمغنطون في الأرض"؟ حسنٌ سأسميها "المتمغنطون".. فقط! اسم يشملنا جميعًا.. أنا، وجحا، وأشعب.. وأنتم!
أرجوكم، وأتوسل إليكم ألا تعبثوا بالاسم كما عبثتم بالبيان **والتبيُّـن**! إن سمعت أحدكم يتلعثم في نطقها أو يزحزح إعرابها نصبًا أو جرًا فسأبرز له من بين الصفحات لألطمه! "المتمغنطون" عنوان، والعناوين تُعرب على الحكاية، أي أنها تبقى على حالتها ظاهرًا وتُعرب تقديرًا مهما تغيرت مواقعها.

سأحتفظ بمخزونٍ كافٍ من نخاماتي للبرجوازيين الذين سيبرزون لي لاحقًا ويتفذلكون قائلين: لقد أخطأت أيها الجاحظ، عليك أن تجرّها وتقول رواية "المتمغنطين"!

دعونا من البرجوازيين الآن ولنعد إلى "المتمغنطون"، أنهيتها في شهر، وشرعت بعدها برواية صديقي العزيز "زَرآب"، نعم اسمه زرآب، وإنما مُيّعت همزتها ولُيّنت فأصبحت في النطق للياء أقرب. زرآب، ماء الذهب، وليس طائر أبو زريق الأسود! لقبٌ لم يتخلّ عنه منذ أن أطلقَته عليه معشوقته الفارسية شهيناز؛ لا تبحثوا عن مصادر لمعلوماتي، فلن تجدوها؛ لا تسألوني، فلن أفصح عن المزيد حتى أنهي كتابة قصّته! كم وددت أن يمغنطه القرمزان معي لأنعم بصحبته بدلاً من الملاعين المجانين جحا وأشعب.

أنهيتُ رواية "زرآب" ولم أتوقف عن الكتابة، لازلت أشعر بزغزغة ناقري وناقوري ووسوسة قعنبوري، فواصلت كتابة الهذيان الذي لا أعلم إن كان سيصل لأحد. قررت أن أبقى مختبئًا في فردوسي البائس إلى أن توافيني منيتي بناءً على أمنيتي: مات اليوم جاحظٌ من فرط القراءة والكتابة.

لم أكن أعلم أن كل هذا سيتغير اليوم، الساعة العاشرة صباحًا! مع نشرة الأخبار التي لا ألقي لها بالاً في العادة وأنا منهمك في إعداد الشطائر، حتى ظهر اليوم مقدم الأخبار وهو يقول بنبرته الاستعراضية المتوترة:

> «وبعد تداعيات قضية إمبراطور تجارة الأسلحة فريد الديباجي والذي تم إعدامه العام الماضي في المكسيك، بدأت المحكمة الفيدرالية اليوم المحاكمات العلنية للأطراف المتورطين في تهريب من يُظن أنه فريد الديباجي»

التفتُ إلى الشاشة فور سماعي لاسم فريد الديباجي، فغرتُ فاهي وتركت الكوب يطفح بكَوْكَاكَولاء الحِمية وأنا أشاهد فليمنغ فوكس وديدلي لِيلِي مقيدين في الأغلال، ومن هذا بجوارهم؟ يا إلهي! إنه أشعب! نحيلٌ شاحب، لولا وجه مارلين مونرو على جليلته الضامرة لما عرفته! لقد تدلّت وتهدّلت وتدلدلت وترهّلت حتى استحالت من حسناء تُطلق ابتسامتها إلى شمطاء تبصق روحها! واصل مقدم الأخبار:

> «ولا يزال البحث جارٍ عن كارولينا فرناندو، ملكة جمال الكون السابقة، وعن آلفونسو كابوني اللذين اختفيا منذ ثلاثة أشهر، والجدير بالذكر أن التحقيقات تشير إلى أن فريد الديباجي قام بزراعة دماغه في جسم آلفونسو بعد تنفيذ حكم الإعدام..»

ظهرت صورتي وصورة كارول، تأكدتُ من وجود النظارة المعتمة على عيني كي لا يشي بي أحد، ظهرَت بعدها العميلة جيسيكا جوهانسون على الشاشة وهي تقول:

> «هي مسألة وقت، سوف نجد فريد وسيتم تسليمه للعدالة بالتأكيد»
>
> «أنت أيها القزم! هل سأنتظر الدايت كوك إلى الأبد؟!»

آخرجتني الوقحة التي تقف آمامي من ذهولي، نزعت نظارتي فشهقَت وصرخت:
«إنه هو! المجرم الخطير! لا تدعوه يفلت!»
ألقيت إليها بكَولائها بدون الكوب، وتبعتها بهَمبَوْرقَرها متعدد الطبقات على وجهها، وختمت لها وجبتها بنخامتي كاملة الدسم! اطمئنوا أيها البرجوازيين فلا يزال لدي من النخام الفاخر ما يغرق وجه كلٍ مشمئزٍ منكم على حدة.
ركضتُ في أزقّة تيوانا لا ألوي على شيء؛ ما هذه اللّعنة التي تحل أينما حللت؟! وتحيل من حولي لبائسين مثقبي الأجساد مقيدين في الأصفاد؟ نالت طلقات جيسيكا جوهانسون وجنودها من أخي فريد وجحا وأشعب وكارول، انتحر سايمون، وزُجّ بلِيلِي وفوكس في السجن؛ كل ذلك بسبب شخصٍ يقولون إنه وضع دماغه في جسدي! لن يتأذى بسببي أحدٌ بعد الآن!
حشرتُ نفسي في إحدى الشاحنات المتكدّسة بالمهاجرين البائسين الفارّين من الجحيم المكسيكي إلى الجحيم الأمريكي، وعندما توقفَت وسمعتُ هتاف زبانية الحدود بلهجاتهم الأمريكية القحَّة الفجَّة أخرجتُ رأسي من كيس البطاطا وسط لعائن سائق الشاحنة والمكسيكان المختبئين في الأكياس من حولي وهتفت بأعلى صوتي قائلاً:
«I am Farid Aldibaji.. I am the Qurmuzan!»
تنّحوا لوهلة، لكنهم لم يُخطئوا جحظتي التي شاهدها الملايين على شاشات التلفاز فانقضّ العتاولة على العبد الضئيل الفقير إلى لطف ربه ورحمته، ولم تمض سويعات حتى كنت ماثلاً في المحكمة الفيدرالية وسط الاحتفالات والهتافات بالقبض على فريد القرمزان أعتى مجرم في الكون؛ وضعوا حول رقبتي ومعصمي وساقي سلاسل وأغلالاً تكفي لتوثيق وتقييد وتصفيد قطيعٍ من الثيران الهائجة، وجرجروني وسط دهاليز المحكمة يزفّني قطيعٌ آخر من الثيران البشرية المدجّجة ومن خلفهم حشود الصحفيين والإخباريين يحاولون استراق لَفتَاتي وهمساتي بكاميراتهم ومايكرفوناتهم، وأنا لا ألقي لهم سوى الجحظات التي تختزل كل الشتائم واللعائن والنخام الفاخر الذي يستحقونه.
وفي قاعة المحكمة وضعوني بمفردي داخل قفصٍ من فولاذ، الأسلحة والكاميرات والأبصار موجهة نحوي، وفي القفص المقابل رأيت أشعب وديدلي لِيلِي وفليمنغ فوكس. وتقدّمَت اللعينة چي تحمل في جبهتها آثار زخارف جمجمة القرمزان التي نقشتُها عليها، رمقتني بتشفٍّ وغِلّ وتقدّمَت نحو المنصّة أمام القاضي:
> «العميلة چيسيكا چوهانسون من مكتب التحقيقات الفيدرالي؛ يمثل أمامكم اليوم سيدي القاضي المجرم فريد ابن فريد الديباجي، الذي تمت إدانته بنشاطات تجارة الأسلحة الحربية بجميع فئاتها بشكل غير قانوني وتم تنفيذ حكم الإعدام به بواسطة الحقنة القاتلة بتاريخ الأول من أبريل عام ألفين وتسعة عشر في سجن إل هانغو بالمكسيك»

التقطَت اللعينة أنفاسها، ألقت علي بنظرةٍ وقحة ثم واصلَت:

«ولكن للأسف، بعد تنفيذ الحكم وتقرير الوفاة، تمّت عملية نقل لدماغ فريد فريد الديباجي وزراعته في جسد خوزيه رودريغاس المتوفي دماغيًا وذلك في أخطر عملية هروب تشهدها البشرية. وبعد تلقّينا بلاغ هروبه قامت القوات الفيدرالية بعملية نوعية للقبض عليه مرةً أخرى، وأنا أتشرف اليوم بتقديمه لعدالتكم والقيام بواجبي تجاه الوطن وتجاه الإنسانية»

سحقًا لها كم هي مفوهّة! همس القاضي لمساعدَيه، ثم رفع إليها إحدى عينَيه:

«هل لديك دليلٌ قاطع بأن هذا الشخص هو فريد فريد الديباجي؟»

ابتسمَت بزهو، وتقدمت نحو أجهزة العرض، وأولجت فيها ذاكرة إلكترونية وبدأت الداهية تخرج ما بحوزتها:

«في الواقع لدي عدة أدلة، هذا حضرة القاضي فيلم مصور يظهر فيه الأخ غير الشقيق لفريد الديباجي، اسمه فريد أيضًا، هو الذي قدّم لنا البلاغ عن هروب فريد وتواجده في جسد آخر في استوديوهات Two Four 54 في مدينة أبو ظبي»

ظهر المشهد الذي قضى فيه فريد المخرج نحبه، وواصلت چي عرض الملفات:

«وهذا اعتراف مسجل من مازن البغدادي والذي انتحل شخصية ڤيكتور أناتوليڤيتش بوت، وعاون فريد على الهرب قبل أن نقبض عليه، هذا الاعتراف يثبت أن فريد القرمزان استعان بالبروفيسور سايمون مبتكر أساليب التنويم المغناطيسي الدائمة ليوهم فريد بأنه شخصية عربية تاريخية اسمها الجاحظ؛ حاولنا أن نحصل على اعترافات البروفيسور سايمون ولكنه انتحر للأسف»

قاطعها القاضي:

«تنويم مغناطيسي؟ هل هذا يعني أنه في غير وعيه؟»

«لا زال يدّعي أنه الجاحظ، ولكننا بصدد اتخاذ الإجراءات اللازمة للحصول على اعترافاته!»

«الإجراءات اللازمة؟ وضّحي أكثر»

«الموضوع معقّد، في الواقع يُفترض أن يشاهد ألفونسو كاپوني الدكتور سايمون سيمنز وهو يغني أغنية مارلين مونرو: «I wanna be loved by you»

ساد الهرج في القاعة وأفلتت بعض الضحكات وهتف القاضي:

«ماهذا العبث؟!»

«هذه هي الإشارة التي زرعها البروفيسور سايمون في وعي فريد الديباجي لإنهاء حالة التنويم المغناطيسي الدائم؛ قسم الأبحاث لدينا يقوم الآن بإنتاج ڤيديو محاكاة واقعية ثلاثية الأبعاد للبروفيسور سايمون وهو يغني الأغنية ليتم عرضها عليه»

تململ القاضي وهو يقول:
«هل هناك أدلة أخرى؟ أدلة واضحة وملموسة؟»
«بتحليل جثة فريد فريد الديباجي ثبت أن رأسه تم بتره واستبدال دماغه بدماغ آخر؛ تمت مقارنة عينات الدي إن إيه لجثة فريد بالعينات التي أخذناها اليوم من دم ودماغ المتهم؛ والنتيجة كانت تطابق تام، هذا الشخص يحمل سلستين من الأحماض النووية، حمض خوزيه رودريغاس في جسده وحمض فريد الديباجي في دماغه؛ وهذا دليل قاطع لا يدع أي مجال للشك لإدانته. شكرًا سيدي القاضي»
ساد الهرج والمرج قاعة المحكمة مرة أخرى، نَهَر القاضي وزَجَر وهو يهتف:
«استدعوا الشهود»
ما هذا لم أميّزها بين الحضور! قامت الدونا فرانسيسكا من مقعدها، تبخترت بتأنق ثم تنحنحت:
«فرانسيسكا آلبيرت فرانسيس كاپوني، ما يجمعني بفريد الديباجي كان أكثر من مجرد مشاريع وأعمال، والده كان أعز أصدقاء والدي، ترعرعنا سويًا؛ يستحيل ألا أميزه من بين مليون شخص حتى وإن خدع الجميع وبدّل جلده وغيّر صوته فلن يخدعني! مع احترامي لنتائج الأبحاث العلمية، هذا الشخص يستحيل أن يكون فريد! وإن تمت زراعة أعضاء فريد بداخله، لكنه شخصٌ آخر تمامًا؛ لا أتحدث عن الشكل هنا، وإنما الشخصية، والروح والكيان. ليست لدي أي مصلحة في الدفاع عن هذا الشخص، وأتفهم تمامًا حماس المباحث الفدرالية لتقديم كبش الفداء من أجل إسكات الرأي العام، ولكنني أتحدث هنا عن العدالة المطلقة، التي أثق أنكم تسعون لتحقيقها حضرة القاضي»
عادت فرانسيسكا لمقعدها، تلفّت القاضي وسأل:
«هل هناك شاهد آخر؟.. ليس هناك شهود؟.. حسنٌ فليتقدم الدفاع»
هب سُنكوحٌ مرتبك متفذلك، عدّل نظارته وتقدم إلى القاضي:
«سول غودمان، محامي الدفاع عن..»
«مهلاً مهلاً!»
نطقتُها بعربية بغدادية عتيقة، فضجّت القاعة، وتذمّر القاضي سيء الطباع؛ قال لي بالإنجليزية بعد أن أسكت الحضور:
«ألا تستطيع التحدث باللغة الإنجليزية؟»
فأجبته بلغته ولهجته:
«نعم، تعلّمتها قبل ثلاثة أشهر!»
«فترة قياسية لشخص يتحدث الإنجليزية بطلاقة مثلك»
«حريٌ بمن يعيش في عصر الإنترنت أن يقرأ كتابًا كل يوم ويتعلم لغةً كل شهر!»
«حسنٌ، هل لديك اعتراض على المحامي الذي وكّلته المحكمة للدفاع

عنك؟ هل لديك محامٍ آخر توكّله؟»
«لا أوكل أمري إلا لمن خلقني!»
«إذًا أجب على السؤال: هل تعترف بأنك فريد الديباجي؟»
التزمتُ الصمت لوهلة، كي أتلاعب بأعصاب الكون، ثم نطقت:
«هل لديكم إنترنت في السجن؟»
«أتسخر من المحكمة؟!»
«أنا جاد جدًا، بعد اختفاء بغداد والمأمون ودار الحكمة لم يعد لدي مكان أعود إليه، وعالمكم الزائف المتفحش هذا لا يروقني، فإن قتلتموني فقد أعفيتموني من إثم إزهاق روحي بنفسي، فرحمة الله خير لي من جوركم وسعة الآخرة خير لي من ضيق دنياكم، أما إن حبستموني فهمّي الأوحد هو أن أُمضي ما تبقى من عُمري مع قعنبوري وناقري وناقوري وإنترنت متدفقٌ لا ينقطع حتى ينقضي أجلي وينقض علي يقيني»
«هل هذا اعتراف بأنك فريد الديباجي؟»
«اعترافي لا يُسمن ولا يُغني من جوع أمام مأدبة الأدلة الدامغة التي قدّمتها العميلة چي، ماذا تريدهم أن يقولوا عنك؟ قاضٍ يكذّب الإف بي آي والدي إن إيه ويصدق مخبولاً يدّعي أنه الجاحظ؟»
«هذا اعتراف واضح والاعتراف سيد الأدلة!»
هبّت العميلة چي، فلم أسكت لها هذه المرّة:
«على رسلك يا صاحبة الوطنية المتفاقمة والإنسانية المتلاطمة! لقد أدّيتِ دورك وأنهيتِ استعراضك، وأنا لا أنكر حرفًا مما ذكرتيه؛ أنا فقط أود أن أذكرك بأنك إما مغفّلة أو متغافلة! مسرحية الواجب الإنساني لا تنطلي على أحد، هي مصالحٌ تُـحقق وغرورٌ يُغذى.. منصب أعلى؟ مكافأة مجزية؟ تغطية صحفية لبطولاتك الوهمية؟»
التفتُّ إلى باقي الحضور وواصلت:
«هل تنكرون بأنكم جميعًا غافلون، مغفّلون، متغافلون.. متمغنطون؟! متمغنطون من الحكّام والإعلام وتجّار الأوهام؟ ألا تستحون؟ تكأكأتم على مجنون لا يعرف من يكون بحجة أنه مجرم عاد للحياة بعدما ذاق المنون.. قبضتم على فريد القرمزان وأعدمتموه عندما قرر أن يتمرّد على أباطرة السلاح وسلاطين الحروب، وتركتموهم متربّعين على عروشهم وشعوبهم يتاجرون بمخاوفهم وآمالهم.. ودمائهم وأموالهم، ليتشبّثوا بمناصبهم ويضاعفوا مكاسبهم. ينوِّمون رعاعهم مغناطيسيًا لكي يقدّسوهم وينزهوهم ويلعقوا مؤخراتهم ويعلقوا صورهم ويهتفوا بأسمائهم ويخشونهم في سرّهم قبل علانيتهم؛ وهم مسحوقون ممحوقون تحت جميع خطوط الجهل والذل والفقر والتخلف؛ يُلهونهم بالتمذهب والتفرّق والتحجّر عن التّقدم والتحضّر والتّطور، وبصراعات

الماضي عن طموحات المستقبل. كلما تغلّب أو انقلب طاغوتٌ على طاغوت فاق أسلافه في الظلم وتفوق عليهم في الجبروت. يا لحمق القرمزان! لم يعِ طبيعة البشر المتمغنطين، المجبولين على عبادة الطواغيت وتقديس الجلادين! لم يعِ أن الحروب هي أكبر مواخير التجارة منذ بدء الخليقة، وأن كل من تسوّل له نفسه المساس بميزانياتها الترليونية فسوف تتم إدانته وإعدامه في المحكمة العليا!»

ازداد وجه القاضي انتفاخًا واحمرارًا بعد أن استفززتُ سيادته ولمزتُ أسياده:

«أجب في حدود السؤال فقط!»

«أنا فريد الديباجي!»

تهللت أساريره، فواصلتُ:

«بنسبة اثنين ونصف بالمئة»

عاد إلى زئيره:

«أتسخر مني؟»

«أنا أستخدم البرهان العلمي لا أكثر؛ أحمل مئة وعشرين رطلاً منها ثلاثة فقط لفريد والباقي لخوزيه رودريغاس، حاكِم أرطال فريد كما تشاء، ولكني لم أقترف أي جرم بيدي هذه ولا بقدمي ولا بعيني ولا بلساني، سبعة وتسعون ونصف بالمئة من جسمي مظلومة بريئة قبعَت في الغيبوبة لسبع سنوات، ثمّ سُرقت، وهأنتم اليوم تريدون محاكمتها ظلمًا وبهتانا!»

«العبرة بالوعي والذات والإدراك أيها المتحذلق المتفذلك»

«وأنا أعي وأدرك تمامًا أنني الجاحظ! لقد تلاشت ذات فريد ومحيت ذكرياته عندما قتلتموه! أولم ينل عقابه؟ أولم يُحاكم ويُعدم ويتوفى أمام أعينكم؟ بناءً على أي قانون تريد أن تكرر تطبيق العقوبة؟»

«تحاول أن تمارس لعبة الـ Amnesia؟ لقد حاكمتُ الكثيرين الذين يتظاهرون بأنهم قاموا بجرائمهم في غير وعيهم، وأقسموا باكين بأنهم كانوا وقتها مخمورين أو مضطربين أو حتى مسحورين، وأنهم لا يذكرون عن الجريمة أيِ شيء، جميعهم الآن يقضون عقوبتهم في السجن، فالتُهم لا تُسقَط بالنسيان!»

«أتقارن عملية نقل الدماغ الأولى من نوعها بهذيان السُكر وأوهام السحر؟ لقد انتُزع دماغي من جسدي المتوفي بعد أن انقطع عنه الأكسجين لفترة كفيلة بإتلافه، تمزّقت شرايينه وأوردته وأعصابه، ثم أعيد إلصاقها بجثة شخص لم يتحرك لمدة سبع سنوات! نسبة خروج الشخص على قيد الحياة من عملية كتلك لا تتجاوز اثني عشر بالمئة، وإن عاش فإن نسبة إفاقته من الغيبوبة اثنان وثلاثون في المئة، وإن أفاق فإن نسبة استعادته للذاكرة عشرة في المئة! أي أن فرصة بقاء القليل من وعي فريد الديباجي لا تتجاوز أربعة في الألف! هيا يا حضرة

القاضي إن كان هناك قانون يقضي بتكرار العقوبة على المجرمين وإعدام نفس الشخص مرتين فيمكنك تطبيق أربعة في الألف من تلك العقوبة على اثنين ونصف في المئة مني»

هرش رأسه من منابت شعره خلف رقبته حتى حواجبه، فواصلت:

«قل لي يا حضرة القاضي، من أنت؟ هل يستطيع أحد أن يجيب على هذا السؤال إجابة محددة مؤكدة؟ انظر إلى صورك القديمة، هل تعلم أن جميع الخلايا في تلك الصور قد تبدّلت؟ أنت الآن فعليًا شخصٌ آخر؟ أنت تتوفى كليًا بمعدل مرة كل عشرة أعوام! كل ما يربطك بالأشخاص الذين تراهم في صورٍ تظن أنها لك هو ذكرياتك، تخيل لو أن أحدًا انتزع تلك الذكريات واستبدلها بذكريات شخص آخر؟ تخيل لو أنه زرع ذكرياتك في دماغ شخصٍ لا تعرفه؟ تخيل لو أنك استيقظت يومًا ونظرت للمرآة فرأيت شابًا إفريقيًا، أو شيخًا آسيويًا، أو صبية لاتينية؟ مَن سيكون مَن؟ ذواتنا يا حضرة القاضي منوطة بذكرياتنا، تذوي معها إذا ذوت، وتنتقل معها أينما تنقّلت!»

تنّح ثم تنحنح:

«وكيف عرفت كل تلك التفاصيل؟»

«لا تسأل مدمن القراءة "كيف عرفت؟". لقد أفسدَت العميلة چيسيكا آخر أمل في إيقاظ وعي فريد الديباجي بداخلي! اعترفت أمامي بأنهم سيزوّرون مشهد البروفيسور سايمون وهو يؤدي أغنية مارلين مونرو، وبالتالي فإن عقلي الباطن لن يستجيب لأيٍ من تلك المحاولات، كونه الآن مقتنع بأنها خادعة مزيفة»

اكتسى اللون الكحلي وجه العميلة چي، استحمقَت نفسها واستحمقها الحضور؛ ساد الصمت القاعة، فقررتُ أن أضع حدًا لهذه المهزلة:

«اسمعني جيدًا يا سيادة القاضي، ابن آدم تسيره غريزتان: الفزع والهلع، والجشع والطمع، ينفر من هذه ويفر إلى تلك، وأنتم تسخّرون تلك الغرائز لاستدرار اعترافات المتهمين، ترهبونهم وتمنّونهم حتى ينبثّوا بكل ما لديهم؛ أما أنا فقد تلاشت غرائزي ومخاوفي ومطامعي، أنا ميتٌ في هامش الأحياء، دعوني أوفر عليكم العناء وأرفع عنكم الحرج وأخرجكم من هذا المأزق: أنا أعترف زورًا وبهتانًا بأني فريد الديباجي، أنا غريمكم! جحا وأشعب وفوكس ولِيلِي.. وكارول لا علاقة لهم بجرائمي، فقط اعدموني وأريحوني من عالمكم، أو اسجنوني مع ناقري وناقوري.. وإنترنت سريع»

«اسمع يا.. يا أيها المتّهم، نحن نقدّر الظروف التي مررت بها، وسنأخذ بالاعتبار كل ما..»

قاطعتُ القاضي العبيط:

«مهلاً مهلاً يا حضرة القاضي، وفّر استعراضاتك الإنسانية الكاذبة! أعلم

أنني أثير الشغب والغضب والجدل والفضول وربما بعض الإعجاب، ولكنني لن أقبل أبدًا أن أثير الشفقة! هيا احكم علي ولننهِ هذه المهزلة الآن!»

ورُفعت الجلسة!

دعوني أعترف لكم: لقد أشفقت على ذلك القاضي؛ لو كنت مكانه لما عرفت بمَ أحكم! تخيّل لو أنك قاضٍ وأمامك مجرم تلاشت ذاكرته تمامًا، وبدأ حياةً جديدةً كرجلٍ صالحٍ نزيه فاضلٍ نبيل لا يعلم أنه ارتكب جرمًا قط، هل كنت ستوقع عليه العقوبة؟ ضع نفسك مكان الذي تلاشت ذاكرته، وهب أنك سمعت الناس يخبرونك فجأة بأنك شخصٌ آخر ويجرّمونك بجرمٍ تشعر يقينًا أنك لم تقترفه، هل كنتَ ستستسلم لهم بسهولة كي يقتصوا منك ويسجنوك أو يعدموك؟ أشعلَت تلك الأسئلة وسائل الإعلام وألهبت الرأي العام بعد أن بُثّت محاكمتي على الملأ، وتناقلتها الكاميرات، والمحطات والأقمار الاصطناعية والقنوات التلفزيونية واليوتيوبية. لقد سحرتُ الناس بحذلقتي؛ تعاطفوا معي، خرجوا في مظاهراتٍ حاشدة رافعين صوري مطالبين ببراءتي وإطلاق سراحي؛ فازداد مأزق المحكمة ضيقًا وموقفهم تعقيدًا؛ وصدر الحكم أخيرًا: يُفرج عن جحا وأشعب بعد تماثلهما للشفاء، ويتم إثبات هوياتهم: مازن البغدادي، ورجب محمد رمضان. تُسقط التهم عن كارول لعدم ثبوتها. يُحبس فليمنغ فوكس وديدلي لِيلِي إلى حين استكمال التحقيقات.

أما أنا، فيتم حبسي لمدة عام وتعيين كتيبة من علماء الطب والنفس لاختباري والتأكد من أنني لم أعد أحمل في داخلي ذرةً من وعي فريد القرمزان.

وكعادة الأوقات السعيدة، مضى ذلك العام بسرعة شديدة، يختبرني العلماء المهابيل طوال النهار، يحاولون عبثًا أن يوقظوا ذاكرة فريد القرمزان بداخلي؛ ويلملمون أخفاف حُنينٍ مساءً ليتركوني بين ناقري وناقوري، منطوٍ في عزلتي، لا أحمل هم أكلي وشربي ومخدعي ومهجعي وإنترنتي، ولا أحملُ هم الاحتكاك بكم أيها المتفحشون. الهم الوحيد الذي حملته هو كارول؛ يا ترى ما الذي حل بها؟ هل اختفت فِرارًا بجلدِها بعد أن أغنتها ياقوتة القرمزان وحررت والدها من سجنه وقيوده؟ هل خشيَت على نفسها وتحاشت أن تظهر مرة أخرى تحت دائرة الضوء والشكوك؟ أم خشيت علي وتحاشت أن يربط أحد بيني وبين القرمزان بحكم علاقته بها؟ وددتُ فقط أن أعرف إن كانت حبيبتي اللعينة بخير ولتذهب بعدها إلى الجحيم! رجوتهم لكي يمددوا مدة حبسي، ولكن القانون الصارم لا يرحم، لفظَني من نعيم السجون وأعادني إلى جحيم الحرية!

استلمت إثبات هويتي الجديدة بعد أن شهد الكون بأنني شخص آخر غير القرمزان وخوزيه رودريغاس اللذين لقيا حتفهما وأُثبتت وفاتهما. لأول مرة أُصبح الجاحظ بشكل رسمي؛ Jahiz Kinani حسب ما هو مكتوب في جواز السفر المكسيكي الذي استلمته.

خرجتُ من معتقلي فتكأكأ علي الفتيات والفتيان، يرددون الهتافات ضد الظلم والطغيان؛ ينددون بقمع الحريات وانتهاكات حقوق الإنسان، يحملون صورتي على اللوحات والقمصان: الجاحظ ليس فريد، الجاحظ إنسان جديد. لقد أحدَثت قضيتي ضجّة كونية جعلت قوانين القضاء تعيد حساباتها في عقوبات الإعدام، وبدأت الدول الأكثر تقدّمًا وإنسانية بتبني قانون استبدال أحكام الإعدام بمحو الذاكرة كون ذلك البديل الأشبه بالموت.

لقد أصبحتُ أيقونة البراءة والكفاح، تلقفوني كمحاربٍ مغوار عاد للتو من ساح الوغى، وما لبثوا أن افرنقعوا من حولي وانفضّوا بعد أن التقطوا معي صور السيلفي. لم يعد لدي مكانٌ آوي إليه سوى مطعم البطّة السعيدة. عرضوا علي ضعف الأجر بعد أن أصبحتُ سيليبريتيًا مرموقًا!

يقصدني الناس من أصقاع الأرض لا ليتناولوا هَمبَورقَري، بل ليلتقطوا معي الصور ويسجلوا اللقاءات، ويُلقوا النِكات، حتى غيّر أصحاب المطعم اسمه ووسمه، فأصبح "JAHIZ" بدلاً من "Happy Duck" واحتلت جحظتي المشمئزّة النافرة مكان بطّتهم الفاغرة. تبًا لهم! لا أريد أن أُصنف من ضمن السليبرتيين والسيليبرتيات.. فالشُهرة أضحت عارًا وعوارًا! فقط سلِّط الأضواء على تافهٍ كذاب أو لصٍ نصاب وستراهم يتكدسون حوله كالذباب؛ فالأضواء تخطف الأبصار، وتعمي البصائر والقلوب والألباب!

«Oh wow, you are really Al-Jahiz.. the famous Popeye!.. May I take a selfie with you?»

المزيد من الذباب، مسحت يدي بمريلتي، ارتديت ابتسامة كاذبة وتوجهت نحوهم.

«هلمّ إلي ببعضٍ من الهَمبَورقَر المحشو بالجُبْناء، مع قليلٍ من البطاطاء والدايتِ كوْلاء!»

اللعنة من هذه أيضًا؟ زبونة أخرى قميئة تستظرف! التفتُّ فرأيتها.. إنها بقرة بغداد البشرية!

التقطتُ صورة السيلفي مع حفنة الصبيان المتحولقين حولي لأتملّص منهم وأهرع نحو البقرة:

«ويحك ما الذي أتى بك إلى هنا؟!»

«لقد اشتقت إليك وإلى تغزّلك اللئيم بي!»

«لقد كتبت روايةً استهللتها بك يا هذه، وسردت قصة ذلك الغزل»

تبًا، ندمت الآن أنني تماديت قليلاً في نعتها، أعترف أن تفاصيل الإبط والريح والأرداف والاختناق والانسحاق حملت بعض مبالغات المؤلفين ممزوجة بترّهات القصّاصين مبهرةً بالقليل من تهاويل الدجّالين، لقد أغوتني وساوس قعنبوري اللعين! ذكّروني بشطب تلك العبارات الشنيعة قبل أن أنشر "المتمغنطون"؛ وتذكرّوا، لا تخبروها بشيء، ولنُبْقِ سفالتي سرًا بيني وبينكم.. اتفقنا؟

«واو! عن جد؟ كتبت عني روايةً؟»

«بالطبع بالطبع! أحببت أن أنشر تغزلّي بك على الملأ!»

«تلاقيك قلت للملأ إني دبدوبة!»
«ويحك، أنت مكتنزةٌ غضّةٌ ملآنة، مربربةٌ بضّةٌ ريانة، تملئين عين أي رجل وجنانه!»
«يخرب عقلك يا جاحز، كلامك شو حلو!»
"جاحز"؟! هذه الرنة الأعجمية المتمجّغة.. هل يُعقل أن تكون..
«ما تتخيل قد إيش اشتقت لك يا جاحز!»
يا رباه، إنها كارول، متلبسة بهيئة بقرة بغداد! لا بد أنني في أحد أحلامي الفانتازية اللعينة!
أخرجَت صفيحتها، لمستها فأضاءت لوهلة وظهرت جمجمة القرمزان وتحتها أحجية الثلاثة أرقام، ولم تلبث أن أعادتها قبل أن يلتفت إلينا أحد.
«تعال معي، فيه كلام كثير لازم أقول لك ياه»
خلعتُ قبعتي ومريلتي وتبعتها كالأبله، انحشرَت خلف مقود هويدجٍ مدوْلب متواضع؛ تربّعتُ على المقعد بجوارها وانطلقنا، وبعد هُنيْهة صمتٍ، نطقَت شهقاتُها، أخذَتْ كفي بكفها تقبّله وتمسحه بوجهها ودموعها وتقول متحشرجة:
«اشتقت لك اشتقت لك اشتقت لك كثير كثير يا جاحز!»
«أنا أحلم أليس كذلك؟ أنتِ من وساوس القعنبور لي؟»
«شو قعنبور ومعنبور؟! جاحز هيدي أنا كارول!»
«اعذريني يا كارول، لقد عبث الأوغاد بدماغي حولاً كاملاً، حتى أصبت بالهلوسة والخبال! تخيلي، إنني أراك الآن أمامي في هيئة بقرةٍ كنت أغازلها في بغداد!»
«أنا بقرة؟ بسيطة! حسابك عندي بعدين! هيدي أنا متنكرة منشان ما حدا يعرف أنا مين! كنت باتنكر وبامثل معك في مسلسل ليالي بغداد»
«لا لا! لا أصدق! كنتِ معي طوال الوقت؟!»
«طبعًا، هيدي أوامر فريد.. قصدي أوامرك، إني أضل بجنبك طول الوقت وأتدخل وقت الضرورة، كرمال هيك كنت موجودة لما الإف بي آي حاولوا يقبضوا عليك»
«سحقًا لي ما أدهاني! لم يدع ذهني اللعين شاردةً ولا واردةً إلا وصاغ لها ألف حساب»
«بس أنا زعلانة منك! باقول لك اشتقت لك وتقول لي بقرة بغداد؟ الظاهر ما اشتقت لي!»
«بالطبع اشتقت إليك كثيرًا، وافتقدت الخجل من عينيك، والفرار من عينيك إلى عينيك!»
«قلبي كان بيتقطع وأنا باتفرج عالمحاكمة، ما هان علي أضل بعيد عنك، لكني خفت لو ظهرت يشكّوا فيك زيادة!»
«لو ظهرتِ متنكرةً بهذا الشكل لما عرفك أحد!»
«لو تنكرت بأي شكل عيوني بتفضحني! اللي بيحب ما بيقدر يتنكر يا

جاحز!»

تبًا لها، دبّت القشعريرة كقطيع نملٍ انبث من قلبي وتفرّق في أوصالي! قبضتُ على كفها بكفي، نزعت عنها تنكرها بخيالي وهمست:

«أتحبينني أيتها البلهاء؟! وأنا أيضًا أحبك عليك اللعنة!»

«عن جد يا جاحز؟ الظاهر ما بيصح لك تغازلني إلا لما أتنكر بهيدا المنظر البشع! ما أظن شكلي عمره بيعجبك.. أظنك بتجاملني وما بتحبني من قلبك!»

«وما دخل جمال الشكل بالحب؟! الدعسوقة تبهرني ببريقها وجمالها، ولكنني لن أقع في عشق دعسوقة!»

قطّبت حاجبيها، تبًا لي! أجيد وصف كل شيء وأصاب بالبلادة والبلاهة كلما حاولت أن أصف مشاعري! سأحاول مجددًا:

«ومع ذلك دعيني أعترف لك، أنا أحتاج لزوج إضافي من العيون الجاحظة كي أستوعب جزءًا من جمالك! وإن تنكرتِ بهيئة بقرة بغداد! اسمعيني يا كارول، لو كنتُ متخيلاً حورية كاعبًا مكنونة مقصورة لما تجاوزك خيالي قيد أنملة، بل إن خيالي لم يبلغ حدود حسنك قط! ولكنني لم أحببك لشيء من هذا! أحببتك يا كارول لسرٍّ في قلبك، تفضحه عيناك، إذ تُخبرني أن في خفقانه شيءٌ لي أنا وحدي. ذلك السر يجعلني أذوب فيك عشقًا وإن كنتِ أقبح أهل الأرض قاطبةً. ناهيك وأنت أجمل مِن كل ما رأت عيناي، وسمعت أذناي، وخطر بقلبي!»

أقسم أنني رأيت حمرة وجنتيها من خلف قناعها، اكتساها الدلال فتمتمت:

«جاحز.. أنا شو بالنسبة لإلك؟!»

نزعتُ الشحم المزيف عن كفّها وذراعها، تبخترتُ بسبابتي ووسطاي على راحتها متتبعًا شاماتها:

«أنت صحرائي يا كارول»

امتعضَت واعترضَت:

«شو صحراء ووديان؟! هيدا اللي طلع معك؟!»

«أنتِ صحرائي، وشاماتك أنجمي أحفظها عن ظهر قلب، ولكنني متيمٌ.. أتعمد التيه في حبك، كي أعود دائمًا إلى القمر..»

بلغت خطوات أناملي ثغرها، شعرتُ بالخدر، هذا هو الحب إذًا! سرت ارتعاشتها بداخلي وهي تقبض على أناملي قبل أن تخطو على شفتيها فهمسْتُ:

«Only if we can live together.. »

«What would you do? »

«I would eat you alive.. one kiss at a time!

سوف ألتهمك قُبلةً قبلة!»

«يخرب عقلك يا جاحز دوختني!.. عمره ما خطر ببالي إنك ممكن تحبني»

«الحب يا كارول زائر ضرير، لا يميّزنا ولا يستأذننا؛ يباغتنا فجأة فنحاول عبثًا تبريره.. ويتلاشى فجأة فنحاول عبثًا نسيانه»
«حبّنا عمره ما بيتلاشى يا جاحز! خلاص صار فينا نعيش مع بعض!»
مدّت صفيحتها وعليها جمجمة القرمزان وأحجياته الثلاث ثم واصلت:
«موبايلي متصل بستالايت القرمزان المركزي، لما انقطع اتصاله بجهازك تحول تلقائيًا لموبايلي، القرمزان كان حاطط هذا الاحتمال، يعني ما بقي غير نحل شفرة الرقم الأخير!»
قفزتُ من مكاني وفززت لتغطية شاشة صفيحتها مذعورًا وهتفت:
«يا حمقاء! ألا تخشين أن يكون الأوغاد يراقبوننا الآن؟! لا بد وأنهم قد حشروا أجهزة تتبعٍ وتنصتٍ في كل ثغرة في جسدي»
«ما تعتل هم، هيدي السيارة فيها كاشف للراديو سيغنال، لو زرعوا فيك أي جهاز كان جاني إنذار، أصلاً مستحيل يتهوروا ويعملوها ويخاطروا بتفجير قضية رأي عام جديدة بانتهاك حرية وخصوصية الجاحظ بعد ما ثبتت براءته»
«وإن لم يحشروا الأجهزة داخل بدني، لا بد وأنهم يراقبون همساتي ويحصون لمساتي»
«مراقبة تقليدية من بعيد، ما بيقدروا يقربوا منك إلا بدليل يدينك»
وضعتُ صفيحتها تحتي وأحكمتُ قبضة إستي عليها:
«وهل هناك دليلٌ أشنع من هاتف القرمزان؟!»
«كرمال هيك باخدك لمطرح ما يشوفنا فيه أحد! سأدعوك لتناول بعضٍ من هلام القَيْنَلاء المثلّجاء في مدينة اللهو»
أخذتُ هلام القَيْنَلاء، وأخذَت هلام الشَوْكَلاء.. ويحي! لِمَ أجاريها في تنطّعها وتصنّعها؟! لا حاجة لي بإطلاق تواصيف القرون الغابرة بعد أن ألِفتُ لهجاتكم ومصطلحاتكم! حسنٌ لقد تناولنا الآيس كريم وتجولنا في مدينة عالم السعادة الترفيهية والتي لم تنل من اسمها أيما نصيب. أطلالٌ حديدية صدئة، خالية خاوية مهترئة، لم يصدّق العامل الوحيد بها أن هناك حمقى يخاطرون بركوب ألعابها. تبِعتها، ركبت بجوارها في المقصورة المقطورة، وقبل أن أسألها عن وجهتنا.. وجدت نفسي أصرخ كقاصرٍ زُفّت إلى هزبرٍ كاسر، وأنا أتلولب وأتشقلب رأسًا على عقب!
تعصف بنا العربات في حلقاتٍ حلزونية وزوبعات أفعوانية. تقلقل قلبي بين حنجرتي ومؤخرتي، يكادُ يُقذف من هذه ويُلفظ من تلك. توقفَت، غادرتُها بعد أن أودعتها آيسكريم القَيْنلاء وكل ما انبث من امعائي كتذكار. مسحَت كارول بقايا القيء حول شفتَي وهمست ضاحكة:
«شفنا الموت كم مرّة مع بعض ولا عمري سمعتك عم تصرخ مثل هلأ! عمومًا ضروري نمثل إننا بنتمشى هون ببراءة منشان ما حدا يشك.. تعال تعال»

اقتادتني إلى حلقةٍ فولاذيةٍ هائلة، تحمل في أذرُعها حجراتٍ معلّقة، تدور بها كالساقية؛ ولجنا إحداها، بعد أن دسّت كارول بضع بيزات مكسيكية في يد العامل الذي تبسّم عن أسنان ذهب وقطران، يظنها بقرةً تهيم بقزمٍ قبيح، لم يعلم أنه في حضرة ملكة جمالٍ متنكرة وإمبراطور أسلحةٍ متمغنط! جلسنا، استقبلتُ القبلة وتشهّدت للمرة الألف منذ أن بدأت أحداث هذه الرواية! جلسَت بجواري واحتضنتني حتى غصتُ داخل الوسائد التي تخفيها تحت ملابسها وسمعت أنّات قلبها من خلفها؛ وبدأ معراجنا البطيء حتى بلغنا ذروة الساقية.. وتوقفَت.

أخرجت كارول الصفيحة، تناولتُها منها فتوهجّت، تعرّفت على تجاويف بناني وتلافيف عيوني، وما لبث أن ظهرت جمجمة القرمزان وأسفلها أحجية الأرقام. بالفعل لقد انتقلت الأحجية لصفيحة كارول بعد أن نسف الثعلب المتلهلب صفيحتي!

«باقي التاريخ الثالث يا جاحز.. كيف بدنا نحزره؟!»

«ويحك لقد حللت الأحجية منذ أن فررت بك إلى هنا!»

«فريد كان بيقول التاريخ الثالث على شفـ.. وسكت!»

«التاريخ الثالث مسجل على شفاهك أيتها البلهاء!»

جحظَت فازدادت بلاهة.. وواصلْتُ:

«الرقم الأول تأريخ موت القرمزان عندما أعدموه، والثاني تأريخ حياته عندما تزوج والداه، والثالث تأريخ حبه.. تأريخ أول قبلةٍ جمعت شفاهكما، عندما دعاكِ لحفل ميلاده قبل عامين!»

قفزت الدمعات من عينيها، سحبت الصفيحة وبدأت بنقر الأرقام: صفر، واحد، صفر، أربعة، واحد، ثمانية..

اختفت الجمجمة والأرقام، أظلمت الشاشة هنيهةً ثم توهجّت فشهقت كارول وتوالت دمعاتها. لقد فتح الهاتف بوابة الولوج إلى منظومة القرمزان؛ يمكننا الآن التحكم بجميع أقماره الاصطناعية وحساباته البنكية وملفاته الشخصية. واصلت كارول نقراتها حتى برزت صورة شاب فتي وسيم ممشوق فسألتها:

«من هذا؟ مأفون آخر؟»

«شاب متوفي دماغيًا، هلأ في الصين.. وجاهز للعملية»

«عملية؟ عملية ماذا؟!»

أجابتني دمعتها.. يا ويح القرمزان، يريد أن يميتني مرة أخرى ويزرع دماغي في جسد ذلك الشاب! واصلَت كارول تبحرها في ملفات القرمزان، تنهدت وبالكاد نطقت:

«جاهز يا جاحز؟»

تساءلتُ بنظرتي فأدارت الصفيحة نحوي، وظَهر مقطعٌ مصور للبروفيسور سايمون وهو يرتدي رداء مارلين مونرو ومساحيقها وشعرها المستعار ويتقدم على المسرح متغنّجًا، ويبدأ بالغناء..

«توقفي!»
هتفتُ بها.. فأوقفَت كارول المقطع.
«إذا شاهدت هذا المقطع سيستيقظ القرمزان بداخلي؟»
أومأت برأسها ودمعاتها..
«وسيموت الجاحظ!»
أشاحت بوجهها، فأجبرتها على مواجهتي.
«إن كنت تودين أن أعود فريدًا، في جسد ذلك الفتى فسأشاهد سايمون وهو يغني وأجرى عملية نقل الدماغ، أهذا ما تتمنينه يا كارول؟»
لم أسمح لها بالتملّص مني، انفجرت في حضني باكية وهي تقول:
«أنا حبيتك يا جاحز، حبيتك إنتَ، حبيتك متل ما إنتَ، حبيتك أكتر من فريد ومن نفسي.. جاحز أنا..»
لم أسمح لها بالانهيار أكثر، سحبت الصفيحة من يدها، أطفأتها، غمرتها بحضني، شاركتها دموعها لأول مرة:
«وأنا أهيم بك أيتها البلهاء! فليمكث القرمزان في برزخه ما شاء الله له أن يمكث، لا أريد مالاً ووجاهة ولا جمالاً ووسامة.. أريد فقط أن أمكث بجوارك أقرأ لك وأكتب عنك وأتغزّل بك»
تبسّمت وكأنما قررت روحها أن تعود بعد أن غرغرت؛ سامحني أيها القرمزان اللعين، ستتوقف مخططاتك عند هذا الحد، وسأواصل حياتي من هنا كما أشاء أنا لا كما تخطط أنت! سأقبل بالحياة متمغنطًا.. فجميع البشر مثلي.. متمغنطون!
انتشرت فروع مطاعم ومقاهي "الجاحظ" في كافة أصقاع الأرض بعد أن اشتراها والد كارول وعقد معي صفقة تدرّ علي أموالاً لا أطيق إنفاقها ولو حرصت!
أوفت كارول بعهدها، أخذتني لبيت الله الحرام.. مع مازن ورجب.. جحا الذي نزع عمامته أخيرًا، وأشعب.. الذي حرص أن يبقي جليلة مغطاةً تحت إحرامه، طفنا وسعينا ولهجنا وابتهلنا وصلينا. وبعد أن انقضت عمرتنا عرّجنا على مطعم نملأ فيه جليلة!
«عشرين وجبة دجاج حراق، وعشرة وجبات جمبري جامبو وثلاثين كوكتيل صوص وكثر لي ثوم وكاتشاب پليز!»
كانت هذه تصبيرة أشعب التي طلبتها كارول، كشف عن جليلة، فبدت أضخم وأعظم من ذي قبل، وانتفخت خدود مارلين مونرو عليها؛ انقض أشعب وجليلته على عُلب البروست فما لبثت أن استحالت عظامًا مجمّعة وقصادير ملمّعة.
غاب بعدها عن الوعي وهو يزلط مخاريط آيسكريم المنقاء والقَيْنلاء يضعها على كرشته وقبل أن تسيل ينكفئ عليها لاعقًا مقبلاً جليلته.
«ويحك يا مازن»
«جحا لو سمحت!»
«من فرط تشاؤمك ظننت لوهلة أن الأمّة قد ضاعت، وقيامتها قد قامت..

أنظر لهذه الحشود، قدموا من كل حدب وصوب، فرّقتهم اللغات والبلدان والألوان، وجمعهم الإيمان والتوحيد والقرآن»

«لقد كاد ملالي الملاعين وإخونج الشياطين أن يمزّقوا أمة المسلمين لولا أن أحبط الله مكرهم ورد إليهم كيدهم! يحق لي أن أفقد عقلي وآمالي بعد أن فقدت أهلي وأولادي وبغدادي في حروبهم وفتنهم»

تبسّمت كارول وهي تتابع حديثنا، ما أجملها بعد أن تخلّت عن ثياب الزاهدات المتقصقصة المتقلصة الملتصقة بمفاتنها، وارتدت ثوبًا وخمارًا تبادلا النور مع وجهها الصافي الخالي من المساحيق والألوان. أخرجَت الصفيحة وأومأت لي، فأخذتُها وقلت لهم:

«حسنٌ يا جحا ويا أشعب لدي هنا ما سيخرجكم من مغنطتكم ويعيد إليكم سابق وعيكم، هنا مشهد سايمون وهو يغني أغنية I wanna be loved by you.. شيفرة فك المغنطة»

شهق أشعب، وضع كفيه على جليلة وبدأ يهذي:

«لن أترك جليلة! إن لم تتوقف فسأبتلعك!»

ضحك جحا وعقّب:

«أنا لم أتمغنط قط، في الواقع استطعت أن أوهم سايمون أن مغنطته انطلت علي، بينما تعلمت أساليب التنويم المغناطيسي الدائم منه! أستطيع أن أمغنط من أشاء وقتما أشاء!»

«كنت تعلم أننا متمغنطون منذ البداية أيها اللعين المأفون!»

«كنت أعلم أن حيواتنا السابقة بلغت من البؤس ما يجعلنا نحمد الله على نعمة المغنطة! أنت الآن شخص جديد، ما الذي ترجوه من حفنة ذكريات ذوت وانتهت؟»

«ويحك! وما حياتنا إلا ركام ذكرياتنا؟ وإن ذوت ذكرياتنا ما الذي يبقى من ذواتنا؟»

«نهر الذكريات لا يأبه بالممغنِطين ولا بالمتمغنطين! ذكرياتك تجرفك رغمًا عنك، وأنت تموت وتُبعث كلما تلاشت وتبدّلت! لا تضيّع وقتك في محاولة السباحة عكس التيار تشبثًا ببعض الذكريات.. لن تهزم الطوفان إلا إذا تراقصت مع أمواجه المتلاطمة»

«أتعني أنك ستظل متقمّصًا دور جحا؟ ستبقى محطّ سخرية الناس وتندّرهم؟»

ضحك ضحكة ملبّدة بالزهو والحِكمة:

«سخرية الناس لا تضايقني، فمتعتي تكمن في إقناع بعض الحمقى أنهم أكثر ذكاءً مني، لا يعلمون أنني أضحك على بلاهتهم، لا من بلاهتي»

تدخّلت كارول التي سئمت فذلكاتنا وفلسفاتنا:

«خلاص أوعدكم رح أخبي الموبايل وما باطلعه مره تانية!»

التفت جحا نحوها بمقلته اليمنى بينما ظلّت اليسرى متسمرةً في وجهي، لم أعلم بأيهما غمز وهو يقول:

«وبمناسبة الرقص مع الطوفان، ماذا تنتظر؟!»

إلامَ يلمّح هذا المخبول؟ تناول غطاء قصدير وجبة الدجاج، واستلّ من النادل قلمًا وبدأ يخط ويهذي:

«كل رجل عاشقٍ يا جاحظ فإن لم يجد معشوقته الجديرة بعشقه صرف ذلك العشق لأيّ هراءٍ آخر.. ربما لكرشته.. أو لحماره! وأنت قد منّ الله عليك بمعشوقةٍ وشاهدين مسلمين بالغين و.. عاقلين تقريبًا.. فماذا تنتظر؟! بسم الله الرحمن الرحيم.. عقد نكاح شرعي..»

وأصبحت ملكة جمال الكون حرمي المصون، بشهادة أشعب الشره وجحا المجنون! اللذان قررا أن يشاركانا مشاريعنا، وينضما لسلسلة مطاعمنا، فأصبح أشعب كبير الطهاة، ولحسن الحظ درّت أرباحنا ما يزيد عن خسائر ما يلتهمه في المطعم! أما جحا فأصبح يتجول بين فروعنا ويقدم فقرات الفكاهة الارتجالة وبعض عروض التنويم المغناطيسي.. الغير دائم بالطبع!

هأنذا مع حرمي.. كارَولَيناء فرناندو.. بل زليخة حايك، التي عادت إنسانة طبيعية.. لا اصطناعية.. تفخر بوالدها وعائلتها. نعيش في دارٍ متواضعة منمنمة بحجرةٍ وحيدة على ضفاف الهادئ، الـ "أنا - لوحٌ - احترافي" على حِجري، و "قلم التفاحة" بين ناقري وناقوري.. أمزح أمزح، أقصد الآيپاد پرو والآپل پينسيل، أنقّح رواية صديقي الذي لم أقابله، ولن أقابله سوى بين الصفحات.. وربما على الشاشات.. زرآب. عرّاب الموسيقى والفنون والجمال والأناقة والإبداع، الذي انتزع أوروبا عنوةً من ظلمات العصور الوسطى وهمجيتها، إلى رونق عصور النهضة ورومنسيتها. تمنّيت أثناء كتابتي أن يكون القرمزان قد مغنطني في شخصية زرآب بدلاً من الجاحظ؛ تخيلوا لو أن ذلك ما حصل فعلاً؟ لاستحالت هذه الرواية من ملحمة مأساوية ساخرة، إلى تحفة فنية ساحرة؛ ولكنه قَدَري.. وقدركم.. لهذا السبب بالذات، ولكي أعوضكم عن التلبّك المعوي والتورم القولوني والجلطات المصغّرة المتكررة التي انتابتكم أثناء قراءة "المتمغنطون"، قررت أن أكتب لكم رواية "زرآب"!

لا أعلم إن كان علي أن أشكرك أيها القرمزان أو أن أواصل لعنك،

ألقيت نظرةً على هاتفه الملقى بجانبي وجمجمته ترمقني، حملته، وما أن نظرت إليه وتعرف على قزحيتي وحلقات بناني حتى اشتعل فظهرت لوحة التحكم بثروات القرمزان وأسواق السلاح وأقمارها الاصطناعية؛ و.. ما هذا؟ برزت رسالة غريبة على الشاشة:

»This is B.Y. from ei9.. we need to talk«

اللعنة عليك أيها القرمزان.. وعلي! أيًا من يكون هذا الـ ب.ي. فليذهب إلى الجحيم، ألقيت بالمحمول فعادت الجمجمة تحتل شاشته بخيبة أمل، وعدت أنا

إلى صديقي زرآب، ومراقبة حرمي المصون وهي تجلس على الرمال، مشمّرة ثوبها، محتضنة عود زرآب الذي استعدناه من أفلاك تحاول أن تستذكر المعزوفات التي تعلمتها من القرمزان.. تصل لنصف المعزوفة، تتلعثم، تلقي بالعود على الرمال وتقوم غاضبةً تلقي الشتائم بالفُصحى التي أتقنتها؛ مع احترامي لك يا زرآب، تلك هي أروع معزوفةٍ عندي!

ما أجملها بدون شعرٍ مستعار ولا صبغاتٍ شقراء ولا مساحيقٍ تحول بيننا، تخفي تفاصيل وجهها ومساماته وملامحها الحقيقية التي تزداد رونقاً مع كل تجعيدة؛ ما أجملها بالأرطال الزائدة التي أعادتها من دمية إلى إنسانة حقيقية؛ ما أجملها بندباتها التي حملتها كتذكارٍ لكل تضحية قدّمَتها من أجلي؛ ما أجملها بعد أن تخلّت عن أثداء المرضعات السيليكونية بسبب الطلقة التي أصابت صدرها. هي الآن ملكة جمال الكون، بل كل جمال الكون في نظري!

الآن فقط تمنّيت أن يستيقظ القرمزان لوهلة كي يشهد هذه اللحظة وأشاهد دهشته وهو يرى كارول تتخلى عن ذكرياتها معه، وتختارني أنا كما أنا؛ ببجاحتي وقبحي ووقاحتي، لقد صدقتَ أيها القرمزان اللعين، إنما الحياة الحب، نقتله فنموت، ويقتلنا فنحيا. نحن على قيد الحياة، طالما كنا على قيد الحب! وحب كارول هزم الموت مرارًا.. وأجبرنا أن نواصل رقصتنا العمياء مع الحياة.

-النهاية-




المتمخنطون



ح و ج ن
إبراهيم عباس
يقطينيا
العالم القديم
ياسر بهجت
بنيامين
إبراهيم عباس